

دراسات في تاريخ العالم الإسلامي

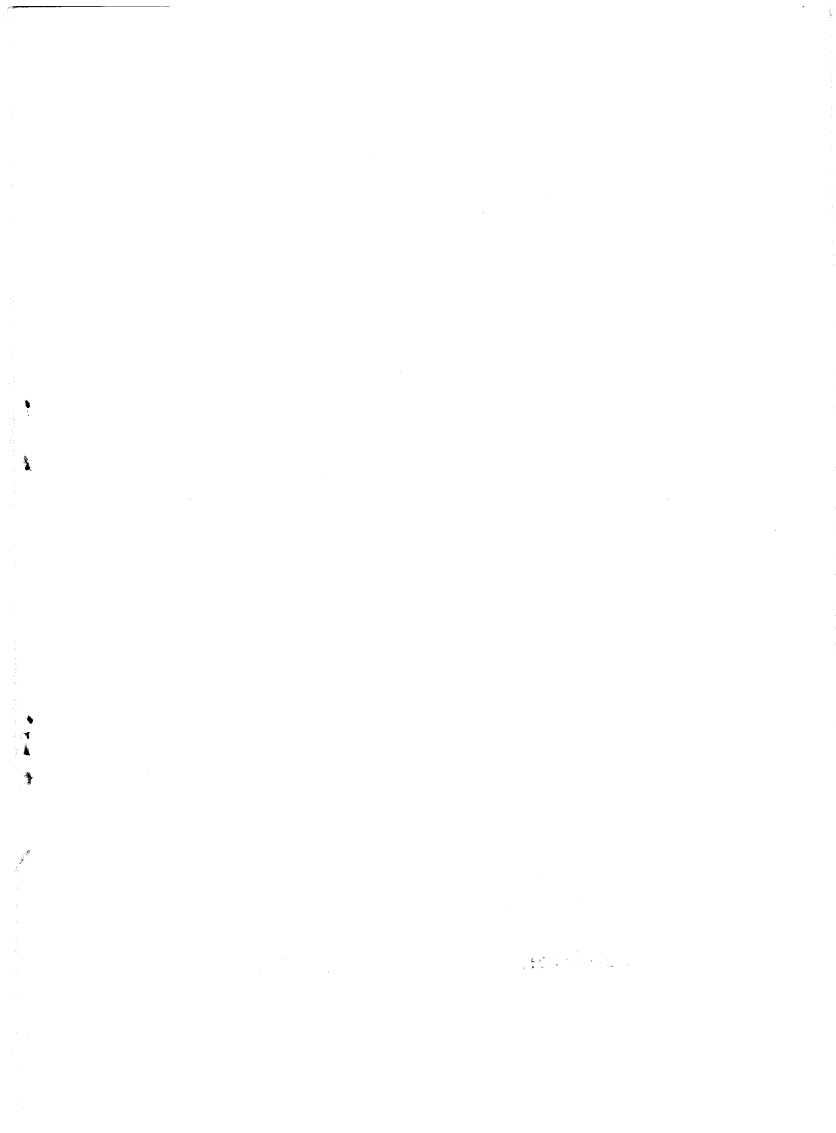
# العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر

الجزء الأول

دكتور محمد طه محمد رضا

استاذ التاريخ الإسلامي الحديث  
بجامعة الأزهر

١٩٨٥ - ١٤٠٥ هـ





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

من الموضوعات التي مازالت تحتاج منا الى جهد كبير في الكتابة موضوع تاريخ العالم الاسلامي ككل ورصد حركة التحول فيه بجميع أقطاره رسدا كاملا وبصورة عامة تختلف عن الصور الاقليمية الهزيلة التي سادت في الآونة الأخيرة ومزقت العالم الاسلامي فأفسدت التصور انعام أو بعبارة أخرى أفسدت الرؤية الصحيحة • لأن تاريخ العالم الاسلامي قد زيفه الغرب عندما تغلب وهذا التزييف للأسف تسلك الى عقولنا وكتبنا عن طريق كتاب الغرب ومن لف لفهم وأخذ عنهم سواء بقصد أو بغير قصد •

ومن أهم الفترات التي زيفت في تاريخ العالم الاسلامي فترة مطلع القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) عندما خططت البابوية للالتفاف حول العالم الاسلامي من الشرق ومحاصرتة من أطرافه الشرقية ونجحت في ذلك وساهمت البرتغال وأسبانيا في هذا الميدان ، هذا التخطيط الذي أدخله الغرب فيما يسمى بالكشوف الجغرافية على الرغم من أن ما يتعلق بالشرق الاسلامي لا يمكن أن يدخل في مجال الكشف الجغرافية لأن الشرق كان مطروقا من قبل من جانب المسلمين ومعروفا لديهم ولدى الغرب معرفة قاصرة عنه • وابتان هذا الالتفاف حول الشرق الاسلامي انتقل ميزان القوى في العالم من البر الى البحر لصالح الغرب المسيحي وظهرت الدول البحرية التي سيطرت على مقدرات العالم كالبرتغال وأسبانيا ومن بعدهما هولندا ثم بريطانيا • وسيطرت هذه الدول البحرية متعاقبة على اقتصاد العالم فاختلف التوازن بين المسلمين

والمسيحيين فى الميادين الحربية والاقتصادية والسياسية ، والدينية ،  
فى المجال الحربى ظهرت الأمم البحرية التى هيمنت على مقدرات العالم  
فى أعالي البحار ، وسقطت الأمم التى كانت قوتها برية وتأخرت كالأمم  
الاسلامية وأصبحت الدول البحرية الغربية سيدة البحار ، وفى المجال  
السياسى أصبح لها بالتالى سيطرة سياسية كبيرة على شئون العالم  
السياسية واحتكرت التجارة العالمية فى أعالي البحار لصالحها وحازبت  
انتشار العقيدة الاسلامية فى البلاد المفتوحة • وحاولت نشر المسيحية  
فى تلك البلاد فاختل التوازن فى هذا الميدان أيضا لصالح المسيحيين وبدأت  
المسيحية تكسب أرضا جديدة فى مناطق كانت وقفا على المسلمين مثل  
أفريقيا وآسيا الشرقية والوسطى وزادت أعداد المسيحيين وبدأت تقل  
أعداد المسلمين ، وتقدم الغرب المسيحى وتأخر الشرق الإسلامى وانقلب  
المسلمون من الهجوم الى الدفاع وما زالوا حتى يومنا هذا •

وساعد فى ذلك أن الغرب بدأ يحتكر الحضارة والتقدم التكنولوجى  
لصالحه وخاصة فى ميدان المخترعات العسكرية الرادعة ولا يعطى للشرق  
الإسلامى منها الا ما مضى عليه الزمن ولم يعد مؤثرا فى المجال  
العسكرى •

ولا شك أن الزحف الأوروبى على شرق العالم الإسلامى جاء فزلزل  
العالم الإسلامى زلزالا شديدا فى كثير من الميادين الاقتصادية  
والسياسية والعقائدية وبدأت التغييرات الخطيرة تظهر فى العالم  
الإسلامى ، وكان من أهمها كما سنرى اختفاء دولة المماليك وزحف الدولة  
العثمانية على الشرق العربى لملء الفراغ العسكرى الذى أحدثته هزيمة  
المماليك أمام القوى الأوروبية الزاحفة على الشرق الإسلامى وبدلا من  
أن تتعاون الدولة العثمانية مع الدولة المملوكية فى مصر هجمت عليها  
فاقتطعت أراضيها ، وانتقلت زعامة العالم الإسلامى من العرب الى الترك  
ونقل العثمانيون الخلافة الى اسلامبول ولكن الثقافة والحضارة الاسلامية  
تأخرت عن غيرها من الثقافات الأوروبية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان

التقدم الذى أحرزه العالم الاسلامى باللغة العربية ، ولم يكن فى مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الاسلامى والعلوم الاسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطاً طويلة باللغة العربية ومنعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة الحضارة الاسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتوفروا على التراث الاسلامى العربى ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية لأن التراث العربى كان أكثر من أن يستطيعوا نقله الى التركية ، وظلوا أمة عسكرية وحالت طبيعتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الاسلامية دفعات الى الامام ، ووقع عبؤهم العسكرى على الشرق العربى لفترة طويلة وعلى الرغم من أنهم حموه فى فترة كان مهدداً فيها من الغرب المسيحى إلا أنهم أضروه ضرراً بليغاً ربما من غير قصد فقد أضروه نغى مضمار الحضارة وأنسوه كثيراً من فنون التقدم العسكرية والحضارية فى فترة عصر النهضة الأوروبى فبينما كان الغرب يتقدم كان الشرق العربى والاسلامى بصفة عامة يغط فى نوم عميق •

ولما ضعفت الدولة العثمانية عسكرياً تخطفتها يد الغرب المسيحى من كل جانب وسقطت جميع مناطقها العربية فى يد الغرب وكانت مهياة لذلك فقد أضعفتها التبعية والعزلة لأن الدولة العثمانية لم تشرك العرب فى الجندية فأضعفت فيهم الروح القتالية ونسوا مسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية بصفة خاصة من ٣٠٠ سنة فى بعض المناطق الى ٤٠٠ سنة فى مناطق أخرى خضعت لها ، وعندما واجه العرب الغرب المسيحى بعد سقوط الدولة العثمانية وإبان ضعفها كان من أهم المشاكل العويصة وما زالت هى مسألة إعادة الروح العسكرية وإعادة التسليح وتنظيم الجيوش تنظيمًا حديثاً وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب

جيوشهم بروح اسلامية وأيد اسلامية دون اعتماد على الغرب فى هذا المضمار وهيئات أن يخلص لهم فى هذا المجال .

وفى غضون ذلك تغلغت الامتيازات الأوروبية فى البلاد الاسلامية فشجعت الغزو الفكرى الغربى الذى كان كل همه تمزيق وحدة الفكر الاسلامى توصلا الى تمزيق وحدة العالم الاسلامى وأصبحت بلدان الخلافة العثمانية فى يد الاحتكارات الغربية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلق عليها تركة الرجل المريض .

وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة والحفاظة على الاستبداد السياسى الذى دمر العالم الاسلامى ولهذا امتد الاصلاح فى المقام الأول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية .

وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية على أيام سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٣٢ هـ) ومحمود الثانى (١٢٣٢ - ١٢٥٥ هـ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظرا لأن المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من العام الاسلامى وعلى الأخص فى الجزيرة العربية التى تتادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات التفتت اليها لتضربها كما سخرى فى صلب هذا البحث عندما نتحدث عن حركات اليقظة الاسلامية فى العالم الاسلامى لمواجهة التخلف والتمزق .

اننا نريد فى هذا العرض السريع التعرف على أخطاء الماضى التى أودت بالمسلمين الى هاوية التمزق والتخلف حتى وقعوا فريسة سهلة فى

يد الاستعمار وأعداء الاسلام وان عرضنا هذا فى الواقع عرض لمأساة المسلمين وانحدارهم بعد صعودهم فهو لذلك مؤلم فى كثير من جوانبه ، ومن منا يجب أن يروى مأساة المسلمين لكن لابد مما ليس منه بد • فنحن نهذف من هذا العرض استنهاض همم المسلمين لارتقائهم بعد سقوطهم وحثهم لاكتشاف ماضيهم المشرق وتعزيز الثقة بأنفسهم حتى يتمكنوا بفضل الله وعونه من ترشيد الحاضر واثارة الطريق للمستقبل والله من وراء القصد يهدى ويعين ••

دكتور مصطفى رمضان

٩ من ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ

١ من يناير ١٩٨٥ م

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem of the existence of a solution of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$ . It is shown that the system (1) has a solution for arbitrary values of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$  if and only if the condition  $\alpha + \beta = 1$  is satisfied. In this case the solution is unique and is given by the formula

$$x = \frac{\alpha}{\alpha + \beta}.$$

2. The second part of the paper is devoted to a study of the properties of the solution of the system (1) for arbitrary values of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$ . It is shown that the solution of the system (1) is a function of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$  which is continuous and differentiable with respect to the parameters  $\alpha$  and  $\beta$ .

3. The third part of the paper is devoted to a study of the properties of the solution of the system (1) for arbitrary values of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$ . It is shown that the solution of the system (1) is a function of the parameters  $\alpha$  and  $\beta$  which is continuous and differentiable with respect to the parameters  $\alpha$  and  $\beta$ .

## الفصل الأول

### تمهيد تاريخي :

ظهر الاسلام في الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وفي فترة وجيزة من الزمن سادت مبادئ الاسلام تلك الجزيرة ، فقد صهرت تلك المبادئ العرب من جديد وحولتهم من أمة ممزقة متنازعة متقاتلة على أتفه الأشياء الى أمة مترابطة ، وحولت ارادة القتال بينهم الى الدفاع عن الاسلام ومبادئه .

وانطلق المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين الى خارج الجزيرة العربية يخرجون الناس من الظلمات الى النور ، وفي نحو قرن من الزمان تمكنوا من السيادة على نصف الدنيا في الشام ومصر والعراق وفارس وما وراء النهر وشمال أفريقيا والأندلس . وقهروا أعظم قوتين يومئذ وهما امبراطوريتي الفرس والروم فزالَت الأولى على يدهم وامتد الصراع مع الثانية . فأذهل المسلمون العالم يومئذ بتلك السرعة غير العادية .

وكان هذا النجاح السريع بفضل سمو مبادئ الاسلام التي تمسك بها المسلمون الأوائل والتي غيرت حياة العرب وغيرهم من الأمم فنقلتهم من جور الحكام الى عدالة الاسلام السماوية ، فكانت بحق فتحة جديدة مشرقة في حياة الأمم التي دانت بالاسلام .

واستمر الاسلام في تقدم وانفتح المسلمون على معارف الدنيا القديمة في العصرين الأموي والعباسي الأول فاستوعبوا وصاغوا حضارة اسلامية راقية ومتميزة في العصر العباسي الثاني بلغت الذروة في القرن الرابع الهجري .

وفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى اجتاحت الأعصار المغولى المدمر بلاد الاسلام الشرقية الآسيوية ، فكانت كارثة عظمت سير الحضارة الاسلامية وتطورها الثقافى الهادى فى دنيا الاسلام وحطم الكيان السياسى للدولة العباسية وفى سنة ٦٥٦ هـ اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو فى وحشية مدمرة متعطشة للدم ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وداسوا التراث الاسلامى بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة •

وكان ذلك بسبب ضعف المسلمين وتنازعهم وانقسامهم ، فقد أضحي الجزء الشرقى من بلاد المسلمين ألعوبة فى يد الأتراك المتغلبين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب فى الدولة الاسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الاسلامية ، وصار الخليفة فى بغداد ألعوبة فى يد الأتراك أيضا فسقطت بغداد فى يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة •

وطلب المغول من حكام مصر ( المماليك ) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم فى فلسطين ، وأنزلوا بهم هزيمة حاسمة فى معركة عين جالوت قرب الناصرة سنة ٦٥٨ هـ ( ١٢٥٩ م ) وتمكن المماليك بذلك من ايقاف الزحف المغولى عند حده وأنقذوا الحضارة الانسانية وما تبقى من الحضارة الاسلامية فى مصر والمغرب من عبث المغول •

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الاسلامى بل بالانسانية كما قرر تلك الحقيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير فى لهجة باكية مؤثرة فى معرض كتابته عن تلك الأحداث سنة ٦١٧ هـ ( ١٢٣٠ م ) فيقول: « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيانيت أُمى لم تلدنى ، وبالييتنى مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك



ذلك لا يجدى نفعا • فنقول : ان هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقيمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصمت المسلمين ، فلو قال تائل : ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها <sup>(١)</sup> •

ثم يستشهد بقول المولى عز وجل حين يقول : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » •

ودخلت الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد فى يد المغول فى طور جديد من أطوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس فى العراق عمد السلطان ( الظاهر بيبرس ) المملوكى الى اقامة الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة عاصمة دولة المماليك رغبة منه فى أن يخلع على حكمه صفة شرعية وكان للمكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة أثر كبير فى رفعتها فاتجه العالم الى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد •

وقد شغل منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ الى سنة ٥٦٩ هـ ، وقد رأى المسلمون أن عملية اقامة خليفة مهما يكن ضعفه غايته رمز للوحدة الاسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة فى يوم من الأيام •

فاستدعى الظاهر بيبرس رجلاً من نسل بنى العباس سنة ٦٥٩ هـ سمي بالمستنصر وقلده الخلافة فى القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسى فى مصر شيئاً من السلطة فى ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩ — ٩٢٣ هـ فقد أدى نظام الخلافة الاسلامية فى هذه الفترة الى الانهيار • فانفصلت السلطة الزمنية السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين

(١) عز الدين بن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ص ٣٦١ ، طبعة دار صادر للطباعة ، بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م •

المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسى السلطة الدينية مثل الظهور فى بعض الاحتفالات الدينية بمطلع العام الهجرى والمولد النبوى الشريف ورؤية أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليك بعد تغلبه على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتى بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب . وتردت الخلافة الإسلامية فى هذه الفترة الى الحضيض فيذكر المؤرخ المصرى أحمد بن إياس فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ أن الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة كان من بين موارده بعض أموال صناديق النذور التى تجمع من أضرحة آل البيت بالقاهرة . وكان المتوكل على الله هو الذى يتسولى النظارة على مشهد السيدة نفيسة » ويقول ابن إياس أيضا بأن النظارة على ذلك المشهد كانت بيد الخلفاء من قديم الزمان « (٢) .

ومهما يكن من شئ ، فإن سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهرة ، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتا فى العالم الإسلامى وجعلت منهم سلاطين على العالم الإسلامى عامة لا سلاطين مصر وحدها (٣) .

وفى غضون ذلك تعرضت منطقة القلب من العالم الإسلامى فى الشام ومصر لهجمات صليبية غادرة شنها الغرب المسيحى بهدف قهر الإسلام فى عقر داره والقضاء على المسلمين ، وقد بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) بالحملة الصليبية الأولى ثم انتهت بسقوط عكا فى يد المسلمين بقيادة السلطان المصرى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) وضياع الممتلكات الصليبية فى الشام الى الأبد .

---

(٢) أحمد بن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ م ج ٥ ص ٢٩٢ .  
(٣) الامام محمد أبو زهرة الوحدة الإسلامية ، ط ٢ ص ٢٢٢ .

وحفلت فترة الحروب الصليبية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء . وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة بالنسبة للصليبيين فى وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر فى عام ( ١٢٤٩ م ) حيث نزل فى دمياط وزحف على المنصورة حيث منى فيها بهزيمة نكراء فى موقعة عرفت بموقعة المنصورة عام ١٢٥٠ م وفيها تم أسر لويس وسجن بالمنصورة فى دار ابن لقمان التى لا تزال على حالها الى الآن ثم افتدى نفسه من الأسر بمبلغ من المال وعاد الى بلاده يجزر أذيال الخيبة والفشل .

وقد أتاحت فترة السجن للويس فرصة هادئة للتفكير بعمق فى السياسة التى يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك اذا ما فكر فى غزو الشرق الاسلامى وصاغ هذه السياسة فى وصية ، وكانت أهم بنود هذه الوصية هى :

أولا : تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديد هو إثارة الخلافات بين الأوساط الاسلامية وإشاعة التفكك فى وحدة المسلمين فينهار بذلك الاسلام .

ثانيا : استخدام من يمكن اغراؤهم من مسيحيى الشرق فى تنفيذ سياسة الغرب .

ثالثا : انشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز لقوته الحربية للقضاء على الاسلام وعين لذلك ساحل الشام<sup>(٤)</sup> ثم أضاف الغرب بعد ذلك مصر ، واتضحت بذلك أهمية الشام

(٤) مجهد على الفتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس ، المرحلة الأولى فى الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ٦٥-٦٦ .

ومصر باعتبارهما القاعدة المعنوية والاستراتيجية للدفاع عن الاسلام الى كونهما رأس جسر يمكن للغرب عبوره متسللا الى آسيا وأفريقيا<sup>(٥)</sup> .  
وسوف نرى فيما بعد كيف حاول الغرب الاستفادة من بنود هذه الوصية سواء في مجال استعمار الشعوب الاسلامية أو في مجال الغزو الفكرى فيها .

#### أوضاع المغرب الاسلامى والأندلس :

هذا عن شرقى العالم الاسلامى وقلبه أما فى غربى العالم الاسلامى فان الأندلس كانت قد تغير حالها من الوحدة الى التمزق بسبب تفرق أهلها فان تلك البلاد التى عاشت ردحا طويلا من الزمن نحو سبعة قرون فى ظل وحدة سياسية قوية أصبحت ممزقة تجد فى كل ناحية أميرا ودولة ، وصدق قائلهم حين قال :

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالحجر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وانتهى بهم هذا التفرق الى دمار ، وأخذ الأسبان يقتطعون منها الاقليم تلو الاقليم ، وبينما كانوا هم متفرقين بدأ عدوهم يتحد ، فاتحد فرديناند ملك ( أرجونة ) وايزابيلا ملكة ( قشتالة ) ، فى مملكة واحدة عن طريق الزواج السياسى بين الملكين سنة ١٤٦٩ م ذلك الزواج الذى نتج عنه أسبانيا الحديثة التى تمكنت فى عهدهما من توحيد شسبه جزيرة الأندلس ما عدا البرتغال ، وفى عام ٨٩٧ هـ ( ١٤٩٣ م ) سقطت غرناطة آخر حصن للمسلمين فى أيديهما وطرد الأسبان ملكها « الزغبى » أى المشؤوم وهو عبد الله بن أبى الحسين بن سعد بن بنى الأحمر ، وتم اخراج عمه أبى عبد الله « الزقل » أى الشجاع من مملكة ، وتم بذلك اقصاء المسلمين عن الأندلس وبعدهما استولى الكاثوليك على غرناطة أبرمو صلحا مع أبى عبد الله ضمن للمسلمين حرية العبادة ، ولم يمر عليه زمن يسير حتى نكث الملكان العهد وأخذوا يضطهدان المسلمين الذين لم يجدوا بدا

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال «فراى دون فرنسيسكو خمينيس» المعروف عند العرب «بابن الخميس» الذى كان الوزير الأول للملكين الكاثوليكين، وتنصر الكثيرون ممن بقى من المسلمين فى الأندلس وأخفوا الاسلام وخرج من خرج فى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) ومما زاد ابن خميس قوة وجراة وصية الملكة ايزابيلا التى قالت فيها بتاريخ ٢٤ من نوفمبر ١٥٠٤ م (٩٠٩ - ٩١٠ هـ) قبل موتها ما يلى :

« أطلب من ابنتى الأميرة والأمير زوجى أن يهتما بأمر الأيمان ( أى الدين ) المقدس وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو أفريقيا وبمحاربة الكفار فى سبيل الدين ( تعنى محاربة المسلمين ) » (٦) .

وقد أثارت هذه المحن التى توالى على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب فبكاه الشعراء والأدباء يوم لا ينفع البكاء ولا يجدى .

ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين لانتجاد الأندلس وغوثها ، ولكن لا سميع ولا مجيب ، على الرغم من أن الدولة العثمانية الفتية كانت قد نشأت منذ زمن بالشرق الاسلامى واشتد عودها وتمكنت فى سنة ١٤٥٣ من فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكنها كانت مشغولة بالتوغل فى أوروبا من ناحية الشرق ، وكانت تستطيع أن تمد يد العون الى المسلمين فى الأندلس ولكن ذلك لم يحدث ، كما كانت هناك الدولة المملوكية التى بدأت تضمحل فى مصر

(٦) عبد الحميد بن أبى زيان ، دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ، طبع الجزائر سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ص ١٤ ، ولقد توفيت ايزابيلا فى نفس السنة ١٥٠٤ ، ومن الجدير بالذكر أن زوجها الملك فرديناند توفى سنة ١٥١٦ وملك من بعده حفيده شارل الخامس ١٥١٦ تحت وصاية الوزير ابن خميس وأنفرد شارل بالسلطة من سنة ١٥٢٧ م وتخلص من ابن خميس وقيل ان حاشيته دس له السم فى الطعام .

والشام ، وكانت مشغولة بالتجارة وكثرة الفتن والانقلابات فلم تفعل شيئاً .

واليك بعض ما جاء فى مرثية الرندى التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

للكل شئ اذا ما تم نقصان	فلا يغربطيب العيش انسان
هى الأمور كما شاهدها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شأن
فجائع الدهر أنواع متنوعة	وللزمان مسرات وأحزان
والحوادث سلوان يهونها	وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له	هوى له أحد وانهد ثهلان

\* \* \*

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية	وأين شاطبة أم أين جيسان
وأين قرطبة دار العلوم فكتم	من عالم قد سما فيها له شأن
وأين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب فياض وملاقن
تبكى الحنيفة الأبيضاء من أسف	كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الا نواقيس وصلبان

\* \* \*

يا راتعين وراء البحر فى دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كانها فى ظلام النقع عقب-ان

أعندكم نبأ عن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان  
فيارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان  
وطفله مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان  
يقودها الملح للمكروه مكرهه والعين باكية والقلب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وإيمان  
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز انسان  
لماذا التقاطع في الاسلام بينكم وأنتم يا عباد الله اخوان<sup>(٧)</sup>

وكان سقوط الأندلس في يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ  
الاسلام وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا •  
وأغرى هذا النجاح الأوروبيين بمحاصرة العالم الاسلامي •

وكانت خطة الأسبان في الأندلس تتلخص في رغبتهم في القضاء  
نهائيا على اهالي المسلمين في الأندلس تمهيدا لاقامة دولة تعتمد قبيل  
كل شيء على مواطنين أسبانيين مسيحيين • كما تشتمل هذه الخطة على  
تطويق أقاليم المغرب العربي واحتلال موانئه المطلة على البحر المتوسط ،  
واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة الى جنوبه ان لم تتمكن من احتلال المغرب  
العربي نفسه وتحويله الى المسيحية وتحويل ميدان الحرب من الأندلس الى  
بلاد المسلمين وظهرت اذ ذاك السفن الأوروبية الحربية التي كان دأبها  
النوحيد قطع الطريق على السفن العربية ونهبها والهجوم على السواحل  
المغربية ومحاولة احتلال الأراضي واقامة مراكز استعمارية سماها  
الأسبان « بربرسيديوس » وسماها البرتغاليون « فرونيتراس »<sup>(٨)</sup> •

(٧) راجع هذه المروية كاملة في كتاب : نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ -  
٥٩٥ وفي كتاب ازهار الرياض ، ج ١ ص ٤٧-٥٠ •

(٨) عبد الحميد بن أبي زيان : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ،  
ص ١١ •

وكان المغرب العربى فى تلك الآونة يبرز تحت آفة الانقسام التى هى أشد الآفات فتكا بقوة المسلمين ، وجعلت ممالك المغرب تضعف شيئا فشيئا بسبب الخصومات التى بين الزيانيين وأبناء عمهم بنى مرين منذ نشوء مملكتهم ، وبينهما وبين الحفصيين فى تونس الذين أخذوا يتوسعون فى المغرب الأوسط ولم يستطع بنو زيان<sup>(٩)</sup> ردهم وحماية رعاياهم بشرق الجزائر فى وقت ظهر البرتغاليون فى شواطئ المحيط الأطلسى ، ومن جهة أخرى تكونت طوائف فى الصحراء الجزائرية والتونسية وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلمسان أو تونس أو فاس ، وزاد الطين بلة سيطرة العرب الرحل فى الهضاب العليا وتجبرهم على المدن والقرى وازداد عسفهم وظلمهم ، وتعددهم على الأهالى وفرضوا عليهم الاتاوات والضرائب غير الشرعية ، وتكونت لصوصية فى الصحارى وفى الجنوب وأخذت العصابات تقطع الطرق وتحجز القوافل الآتية من وسط أفريقيا أو الداهية إليها ، وتكونت اقضية مغربية فى الأقطار الثلاثة فى العائلات البارزة العربية والبربرية أخذت تفرض نفسها على الممالك المرينية والوطاسية والزيانية والحفصية التى أصبحت تحسب لها حسابا وتدخل نفوذها فى الاعتبار وتمنعها الأموال وتستعين بها فى الشدائد .

وتكونت عصابات بحرية كونت شبه جمهوريات بحرية فى شواطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسى مثل طرابلس وجربة وبجاية وجزائر بنى مزعنة وشرشال ووهران وتطوان وسلا وغيرها<sup>(١٠)</sup> .

كانت هذه هى الحالة التى كان عليها المغرب فى وقت تقوى فيه الأسبان بسبب اكتشافهم أمريكا وكسبهم الثروات الواسعة ، كما حاول البرتغاليون الالتفاف حول العالم الإسلامى عبر جنوب أفريقيا ، وذلك بفضل نهضتهم ، وتأخر المسلمين ، تلك النهضة التى اعتمدت على العلوم

(٩) كانت تلمسان عاصمة بنى زيان .  
(١٠) المرجع السابق ، ص ١١-١٢ .



الإسلامية التي كان المسيحيون يتلقونها عن المسلمين في الجامعات العربية بالشرق والأندلس والمغرب وصقلية ، وبفضل الحروب الصليبية التي مكنتهم من نقل العلوم والتقدم الإسلامي إلى بلادهم • في الوقت الذي بدأت فيه المدنية الإسلامية في الازمحلال •

وكان من بين الأسباب التي جعلت الغرب يتفوق عسكرياً على المسلمين هو اختراعهم للأسلحة النارية وأهمها البندقية والمدفع تلك الأسلحة التي احتكرها الغرب لصالحه فأحدثت خلافاً في ميزان القوى لصالح الغرب المسيحي ولم يتمكن الشرق الإسلامي من الاهتداء إلى صنعها وأخذ يعتمد على استيرادها بشروط مجحفة وأخذ الغرب يطورها لصالحه ويحتكرها إلى يومنا هذا ولا يبوح بسرّها للشرق الإسلامي إلا في الأشياء التافهة التي لا تحسم الموقف العسكري ، وعندما استطاع الأسبان والبرتغاليون أن يركبوا المدافع على السفن الشراعية المتقدمة كان ذلك إيذاناً بانقلاب ميزان القوى من الشرق إلى الغرب ومن البر إلى البحر وإيذاناً بميلاد امبراطوريات بحرية كالأسبان والبرتغاليين ومن بعدهم الهولنديون ثم الانجليز ، وسوف نرى فيما بعد كيف أن الأوروبيين سينجحون في اقتحام معاقل الشرق الإسلامي ، ولا يملك المسلمون سوى الاستسلام لهم بسبب قوتهم القاهرة •

#### التأثير التركي المغربي للدفاع عن شمال أفريقيا :

لقد حاول أبناء المغرب العربي في تلك الآونة الحرجة من تاريخ بلادهم الدفاع عن سفن المهاجرين الأندلسيين ، ووقف هجمات السفن المسيحية على أساطيلهم وموانئهم ، تلك الهجمات التي نشرت القرصنة على نطاق واسع في المنطقة وكان رد الفعل الطبيعي لدى أبناء المغرب أنهم عملوا على الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم بعد كل حادثة تقع للمسلمين الفارين من وجه الأسبان ، ولقد أطلق الأوروبيون في كتبهم على أعمال المسلمين المغاربة في الدفاع عن الأندلسيين وعن الشواطئ المغربية اسم القرصنة ، ولكن في هذا تجن على الحقيقة ، فهي عملية دفاع

خسد المعتدين الأوروبيين وأسمها الحقيقي هو الجهاد البحرى ، وسمى  
( ابن خلدون ) القرصان ( غزاة البحر ) • وقد بدأت هذه الأعمال البحرية  
على أيامه فى أواخر القرن الثامن الهجرى ومطلع التاسع الهجرى •

ونه وصف دقيق لهذه الحروب البحرية وإدراك لما كان يجرى من  
تحول فى ميزان القوى البحرى لصالح الأوروبيين نتأمله فيما يلى :

« وكانت أمة الفرنجة وراء البحر الرومى فى الشمال قد صار لهم تغلب  
ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة  
وصقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا الى سواحل الشام وبيت  
المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب فى هذا البحر بعد أن كانت  
سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله  
ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم أساطيل المغرب  
لعهد بنى مرين أياما ، ثم فشل ريج الفرنجة واختل مركز دولتهم  
بافرنسة ، واقتربت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبندقية وغيرهم  
من أمم الفرنجة النصرانية ، وأصبحوا دولا متعددة ، فتمت عزائم كثيرة  
من المسلمين بسواحل أفريقيا لغزو بلادهم ، وشرع فى ذلك أهل بجاية  
منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من ( غزاة البحر ) ويصطنعون  
الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة  
وجزائره على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون  
ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والأنسبى  
والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الشهور الغربية من بجاية بأسراهم تضج  
طرق البلد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ويغانون  
فى فدائهم بما يعتذر منه أو يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملا  
قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى

الى السلطان بافريقية فسم عن سماعهم وتطارحوا سهمهم وتكلمهم فيها  
بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالنار منهم» (١١) •

وتلك الحروب البحرية التي اصطلح على تسميتها في القرون  
المتأخرة بالقرصنة هي في الحقيقة كما ذكرنا اختراع أوربي ، وحتى الكلمة  
دخيلة على العربية فلا يوجد في اللغة العربية بديل لها وهي في الغالب  
معربة في القرن التاسع الهجري ، وهي مشتقة من « كورسه » بالاطالية  
و « كورس » بالفرنسية وقد بدأت القرصنة منذ أواخر القرن الثامن  
الهجري بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامت أكثر من خمسة  
قرون ، بدأها النصارى من مختلف البلدان المجاورة للبحر المتوسط ،  
ومهر فيها الأتراك وأهل الجزائر ، وازدادت شدة بعد استيلاء فرديناند  
وايزابيلا على غرناطة سنة ١٤٩٢ م •

ويزعم المؤرخون الأوروبيون أنها كانت من أعمال المسلمين انتقاما  
من المسيحيين الذين أخرجوهم من بلادهم ، نعم لقد أورث هذا الطرد  
حقدا شديدا في قلوب أهل الأندلس المهاجرين فأرادوا الانتقام من  
الغاصبين الظالمين ، وأشهروا الحرب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم  
وأموالهم ، وكان الأوروبيون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل أكثر من سبى  
وقتل وفتك واستعباد وبيع الأسرى رقيقا وارغام هؤلاء على العمل  
المرهق ، ويبيعون الرجال والنساء والأطفال وينصرونهم اكراها ،  
ويستخدمونهم في منازلهم وفي حقولهم وحدائقهم ، ولكن المؤرخين نسبوا  
نلك الأعمال الى المسلمين فقط كراهية وظلما •

ويذكر تاريخ الاستعمار أن أسبانيا ابان سيطرتها على المستعمرات  
في الدنيا الجديدة ، جنت من وراء ذلك ثراء طائلا ، وتسبب هذا الثراء

---

(١١) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب المعبر وديوان المبتدا والخبر في  
تاريخ العرب والمعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة  
دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٩٠٢ •

فى حقد الدول الأوربية الأخرى وسال له لعاب المغامرين الأوروبيين ،  
وسمع المغامرون الأوروبيون بقوافل الأسبان البحرية المحملة بالمعادن  
الثمينة فى طريقها بالمحيط الأطلسى الى أسبانيا فتعرضوا لها وقاموا بالنسوط  
عليها فى المحيط الأطلسى وكان هؤلاء اللصوص وغيرهم من القراصنة  
الأوروبيين •

وهكذا كان الأوربيون أول من احترف القرصنة البحرية فى المحيط  
اطلسى ولكنهم ألقوها بغيرهم من المسلمين الذين كانوا يدافعون عن  
أنفسهم أمام الزحف الاستعمارى من المغاربة وسكان الخليج العربى •

ويذكر التاريخ أن قراصنة القديس يوحنا تأسست جماعتهم فى  
بيت المقدس عام ١٠٧٠ م بمعونة الصليبيين والبابوية فى روما ، وبعد أن  
طرد المسلمون الصليبيين من الشام نقلت هذه الجماعة مقرها الى قبرص  
عام ١٢٩٢ م مؤقتا ، ثم انتقلوا الى رودس عام ١٣٠٦ م واستقروا بها  
عام ١٣٠٩ م وقد ساعدوا بحماس شديد كل الحملات الصليبية المتوجهة  
الى مصر ، وآسيا الصغرى وخاصة الاستيلاء على أزمير عام ١٣٤٤  
ونهب الاسكندرية عام ١٣٦٥ ، وظلوا يرودس الى أن نجح السلطان  
سليمان القانونى فى اجلائهم عنها عام ٩٢٩ هـ ( ١٥٢٢ م )<sup>(١٢)</sup> وتمركزوا  
فى مالطة بعد ذلك وظلوا يمارسون القرصنة فى البحر المتوسط ضد السفن  
والموانئ الاسلامية الى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو فى طريقه  
الى مصر سنة ١٧٩٨ لأنهم كانوا أعداء للثورة الفرنسية التى عادت  
البابوية وحاربتها •

ولعل من الجدير بالذكر أن القرصنة ظلت باقية من العصور الوسطى  
حتى سنة ١٨٥٦ حيث انعقد مؤتمر باريس لتصفية حرب القرم وقد سرر

---

(١٢) محمد كمال الدسوقي : « العثمانيون وقراصنة رودس » بحث  
منشور فى مجلة مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى ، العدد الثانى ،  
سنة ١٣٩٩ هـ .

المؤتمر الغاءها ، ومن الغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا والمكسيك امتنعت اذ ذاك عن الالتزام بالغاءها ، وأن كانت الولايات المتحدة وأسبانيا جرمتا على نفسيهما ذلك فيما بعد سنة ١٨٩٨ م<sup>(١٣)</sup> .

وبدأ البرتغاليون يحتلون الموانئ المغربية المطلة على المحيط الأطلسي وبدأ الأسبان أيضا يحتلون الموانئ المغربية المطلة على البحر المتوسط .

فاحتل الأسبان المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ م ووهران سنة ١٥٠٩ م حيث قتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف واحتلوا إحدى الجزر الصغيرة المواجهة للشاطئ الأفريقي . واتخذوها قاعدة حربية للهجوم على ذلك الشاطئ وضربه بالقنابل ، ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الشاطئ إلا بمسافة ٣٠٠ متر وهي الجزيرة التي أصبحت فيما بعد نواة لبناء مدينة الجزائر عاصمة دولة الجزائر الحالية .

وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس ، وفى العام التالى استولوا على بجاية وفى سنة ١٥١٥ احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدبير منشآت المدينة كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية ، وبذلك تناثرت على طول الساحل الشمالى لأفريقية ابتداء من طرابلس الى المغرب الأقصى محطات عسكرية اتخذها الأسبانيون ومن قبلهم البرتغاليون جيوشا صليبية<sup>(١٤)</sup> .

وابان هذا الصراع بين المسلمين من ناحية والأسبان والبرتغاليين من ناحية أخرى تطلعت أنظار المغاربة الى اخوانهم المسلمين فى الشرق العربى من أجل مؤازرتهم فى كفاحهم المصيرى لئلا تتكرر المأساة التى

---

(١٣) عبد الحميد بن أبى زيان : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧—٢٢ .  
(١٤) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتقرى عليها . الجزء الثانى ، ص ٩٠١ ، طبعة مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

وقعت في الأندلس وخاصة أن العدو بدأ ينفذ الأسلوب الذي أوصى به لويس التاسع ملك فرنسا وهو أحداث الواقعة بين زعماء المسلمين ونصرة فريق منهم على فريق آخر وهو أسلوب فرق تسد . فجاءهم الرد من الأتراك المناضلين في البحر ، وكان من أبرز الأسماء التي لمعت في مجال مؤازرة المغاربة هما الأخوين التركيين «عروج» و«خير الدين» برباروسا الذين دافعا عن المغرب الاسلامي دفاعا مستميتا لتكوين وحدة مغربية تقف أمام الأطماع المسيحية في وقت تهدد المغرب الاسلامي بالزوال .

ويرجع نسب عروج وخير الدين الى والدهما يعقوب بن يوسف كان تركيا يعيش في جزيرة مدلى ببحر الأرخبيل من بقايا الفانحين المجاهدين وكان متزوجا من سيدة أندلسية ولدت له ذرية من بينها عروج وخير الدين ، ونشأ أولاد يعقوب نشأة اسلامية صلبة وترعرعوا في حجر الجهاد الاسلامي العنيف يوم كانت الملحمة عامة وعارمة في البر والبحر بين المسيحية والاسلام ، واذا كان الدم الأندلسي يجري في عروقهم عن طريق والدتهم كان نداء الدم قد قادهم للجهاد في الحوض الغربي من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالأندلس<sup>(١٥)</sup> .

توجه عروج<sup>(١٦)</sup> الى الناحية الغربية من البحر المتوسط وطلب من سلطان تونس الحفصي (محمد بن الحسن) أن ترسو سفنه في موانئ بلاده فقبل السلطان بشرط أخذ أخماس الغنائم من بضاعة ورق وسفن ، واتخذ عروج أولا جزيرة (جربة) مركزا وسماه أو منحه سلطان تونس لقب الولاية على هذه الجزيرة وحط رحاله بها منذ سنة ١٥٠٠ م وأخذ

---

(١٥) أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، ص ١٥٠-١٥٧ ، نفلا من عبد الحميد بن أبي زيان ، مرجع سبق ذكره ص ٣٩ .  
(١٦) ولد عروج سنة ١٤٧٤ م وكانت ولادة أخيه خير الدين حوالي ١٤٨٦ ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

ينطلق منها ويعدو إليها غازيا سواحل الأفرنج ثم اتخذ تونس قاعدة له  
بصفة عامة • وكان يصحبه في جهاده أخوه خير الدين •

#### أنواع المجاهدين في جيش عروج :

كان عروج يستعين بالمجاهدين من مختلف السواحي المغربية من  
الجزائر وتونس والمغرب ومن الزنوج ومن أسرى الأوربيين الذين اعتنقوا  
الإسلام الذين يسميهم النصاري بالمرتدين ، والعنصر الغالب والقوى في  
جيش عروج أهل الأندلس الذين طردوا من ديارهم أو فروا منها ،  
وكانوا أشد الناس صلابة في الحروب وبفضلهم كان ينتصر عروج على  
أعدائه لاجتماعهم وشدة بأسهم وهم أقوى الناس عداوة للأسبان لما  
قاسوه من اضطهاد وتشريد من جانبهم • وكان عروج قد أسدى إليهم  
معروفا بنقله إياهم من السواحل الأسبانية إلى المغرب وخلصهم من تبخض  
عدوهم ، وقد حمل منهم ما يزيد على عشرة آلاف مهاجر في سفنه كما  
حمل منهم أخوه خير الدين من بعده ما يزيد على ٧٠٠٠٠ سبعين ألفا  
في سبعة أسفار أو أكثر •

وكان المحاربون الأتراك في سفن عروج قليلين جدا بالنسبة لساكني  
الأجناس ويذكر عبد الحميد بن زيان أن عدد الأتراك الأولين الذين كان  
يحارب بواسطتهم عروج وأخوه خير الدين كان ضئيلا جدا يعد على  
أصابع اليد وكانوا من اليونان والشرقس وأهل الروطى والألبانيين وكانوا  
جميعا ينتسبون للاتراك افتخارا بهم (١٧) •

وبعد موت فرديناند عام ١٥١٦ وخلفه شارل الخامس على حكم  
أسبانيا نجح عروج في دخول الجزائر في هذه السنة وتملكها ودخل في  
صراع مع الأسبان بها وقابلته بمشاكل كثيرة من أصعبها موقف العرب

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤٣-٤٤ •

عملاء الأسبان بتلك البلاد . واستشهد على اثر بعض المعارك مع الأسبان حول تلمسان في ٢٩ سبتمبر ١٥١٨ ( ١٣ من رمضان ٩٢٣ هـ ) (١٨) .

كان عروج يبلغ من العمر عندما قتل أربعة وأربعين عاما ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء فأطلق عليه عروج بربروس ، أى ذو اللحية الحمراء ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين وناقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقا بخير الدين (١٩) .

وتولى من بعده أخوه خير الدين برباروسا الذى وجد صعوبة فى مقاومة الأسبان فى جزائرتهم فيه الخيانات العربية ضده من الحكام السابقين فى شمال أفريقيا ، فوجد من الأفضل أن يدخل فى خدمة السلطان العثمانى ويعمل باسمه ، و من ثم طلب حماية السلطان سليم ، وقد منحه السلطان سليم لقب ( بك بكوات أفريقيا ) وأرسل اليه عددا من جنود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالى فى الدولة العثمانية نفسها لمساعدته فى عملياته الحربية فى غرب البحر المتوسط ودخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية اعتبارا من عام ١٥١٩ ودعى للسلطان سليم على المنابر فى المساجد وضربت العملة باسمه (٢٠) ، وتمكن خير الدين من أن يستولى على المنطقة الساحلية من الجزائر ويستولى على القلعة التى بناها الأسبان على الجزيرة السالفة التى أصبحت عاصمة الجزائر فيما بعد سنة ١٥٢٩ :

وقد عمل خير الدين على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة وأصبح أسطوله مرهوب الجانب فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ومنحه السلطان العثمانى أيضا لقب ( قبودان باشا )

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ٧٩ ، عبد الحميد بن أبى زيان : دخول الأتراك للجزائر .

(١٩) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، ج ٢ ص ٩٠٧-٩٠٨ .

(٢٠) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٩١٢ .



وأعطاه القيادة العامة للإساطيل العثمانية فى تلك النواحي ، وحاول  
خير الدين توحيد أقطار شمال أفريقيا •

وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد غدا أميراً  
لدولة كبيرة وان كانت متحدة مع الدولة العثمانية وأصبح الحارس الأمامى  
للدولة العثمانية فى البحر المتوسط ، وكانت تسنده جميع قوات هذه  
الدولة فى صراعه مع الغرب •

ومن ناحية أخرى فقد بذل السلطان سليمان المشرع جهوداً كبيرة فى  
تخليص طرابلس من يد الأسبان وقراصنة القديس يوحنا سنة ١٥٥١ م  
وعين عليها أول وال عثمانى هو مراد أغا فى نفس العام ، كما تمكنت  
الدولة العثمانية من إعادة تونس الى رحاب الحكم الإسلامى سنة  
١٥٧٤ م •

#### موقف الأشراف السعديين فى مراكش :

كان للأشراف من آل بيت الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة  
والسلام أهمية كبيرة فى تاريخ بلاد المغرب منذ أن وصل الى مراكش  
( ادريس بن عبد الله الشريف ) فى عام ١٧٢ هـ ( ٧٨٨ م ) قادماً من  
الحجاز وأسس دولة الأشراف الأدارسة بها وبني مدينة فاس •

وابان الزحف البرتغالى الأسبانى على شمال أفريقيا كانت المغرب  
فى يد ( الأسرة الوطاسية ) التى فشلت فى الدفاع عن مراكش حتى  
سقطت جميع ثغورها فى أيدي البرتغاليين والأسبان ، وابان ذلك أيضاً  
تطلعت أسرة شريفة هى أسرة الأشراف السعديين الى قيادة المغرب فى  
محنته ودخلت فى صراع ضد الدولة الوطاسية التى فقدت احترام  
المسلمين فى المغرب ، ونجح ( محمد المهدي السعدى ) فى القضاء على  
الأسرة الوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩ م وتطلع الى تحرير الثغور

المغربية فاسترد « أصيلة » و « القصر الصغير » عام ١٥٤٩-١٥٥٠ م<sup>(٢١)</sup>، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبتة وطنجة ومزغان •

والواقع أن الأشراف السعديين في مراكش قاموا بدورهم في انجهاذ الدينى ضد الأسبان والبرتغاليين ، غير أنهم لم يقتنعوا بالانضمام الى الدولة العثمانية والانضواء تحت لوائها ، لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامه العالم الاسلامى والخلافة الاسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، واذا كانت الظروف تفرض على أحد القوتين الخضوع للقوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل فى أحقية الأشراف فى السيادة وحاولت قيادة الأشراف السعديين فى مراكش الاعتزاز بموقفهم وزعامتهم ومن ثم وقع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين والجزائريين فى المغرب وحاولت كل دولة منهما النيل من الأخرى وكان الوقت يقتضى وحدتهما أو على الأقل تضامنها أمام الزحف الأوربى على العالم الاسلامى فى تلك الآونة •

---

(٢١) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٩٣٣-٩٣٤ •

## الفصل الثاني

### الانتفاخ الأوروبي

#### حول العالم الاسلامى

من الأخطاء التى وقعت وما زالت تقع فى دراسة ظاهرة الانتفاخ  
الأوروبى حول العالم الاسلامى فى مطلع العصور الحديثة هى أن  
الجامعات الاسلامية تدرس هذه الظاهرة كما ينفخ الغرب المسيحى لنا  
على أنها نشأت فى البداية بدافع بحث الأوروبين عن ظروف اقتصادية  
أفضل وبسبب تنافسهم فى المجال الاقتصادى انطلقوا فى مجال كشف  
أماكن حيوية لهم واستعمارها •

والواقع لكل من يدرس هذه الظاهرة ويدقق فى الظروف والملابسات  
السياسية والدينية التى صاحبته يدرك غير ذلك ، يدرك اذا كان منصفاً  
أن دوافعها كانت صليبية منذ البداية متعصبة مسرفة فى عداثها للمسلمين  
واضحة فى أهدافها ضدهم •

فقد بدأت قصة هذا الانتفاخ الاستعمارى حول العالم الاسلامى مع  
نهاية القرن التاسع الهجرى « الخامس عشر الميلادى » عندما تم اخراج  
المسلمين من الأندلس ، وكانت خطة الأسبان تتلخص فى القضاء نهائياً على  
الأهالى المسلمين تمهيداً لاقامة دولة تعتمد قبل كل شئ على مواطنين  
أسبانين مسيحيين ، كما تشمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب  
الاسلامى واحتلال موانئه المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى  
واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة الى جنوبه ان لم تتمكن من احتلال المغرب  
الاسلامى نفسه وتحويله الى المسيحية • ونجح الأسبان والبرتغاليون  
فعلاً فى احتلال بعض الموانئ بالمغرب الاسلامى ، وامتد الصراع فى

هذه الجبهة زمتا طويلا حيث صمد المسلمون فى الدفاع عن شمال أفريقيا كما رأينا ، وذلك بفضل تضامن المغاربة مع الأتراك فى جهادهم ، وخرج المسلمون من هذه التجربة بقصة عظيمة من قصص التضامن النادرة فى حياتهم تعطيهم مفتاح النصر على عدوهم ان هم أرادوا لذلك سبيلا .

واتفق الأسبان والبرتغاليون على الالتفاف حول العالم الاسلامى وتوزعت أدوارهم ، فبينما يلتف البرتغاليون جنوبا حول أفريقيا ، ينطلق الأسبان نحو الغرب عبر الأطلسى بقصد الوصول الى شرق بلاد المسلمين بعدما تأكد لديهم كروية الأرض ، وذلك ليتمكنوا من حصار المسلمين واحكام القبضه عليهم .

والذى يؤكد هذا المخطط أنه عندما وصل الأسبان الى أمريكا لأول مرة أطلقوا على سكانها اسم الهنود الحمر ظنا منهم أنهم وصلوا الى شرقى بلاد المسلمين حيث بلاد الهند ، وسموا جزرها التى كانت أول محطة لرحالهم اسم « جزر الهند الغربية » وهذا يدل على ما فى نفوسهم من رغبة وعلى ما فى جعبتهم من مخططات ، ويبدو من هذا تفاهم الأسبان والبرتغاليين فى سير كل منهما فى اتجاه معين بحيث لا يتعارضان مع بعضهما ولا يصطدمان معا أبدا .

وركز الأوروبيون فى كتاباتهم على أن العوامل التى دفعت الأوروبيين الى الشرق هى عوامل الكشف الجغرافى وحب المعرفة ثم أضافوا العامل الاقتصادى الذى يكمن فى رغبة البرتغاليين فى المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية ، وأن البرتغاليين وقعوا تحت تأثير أهالى جنوة عندما كانت البندقية تحتكر الأسواق المصرية ، فاتجه أهالى جنوة عندئذ الى ملوك أسبانيا والبرتغال لتشجيعهم على الوصول الى الهند للقضاء على ثروة البندقية عدوتهم اللدود .

وانساق وراء هذه الأقوال كثير من الكتاب المسلمين وأدخلوا هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة على شرقى العالم الاسلامى فى مجال

الكشوف الجغرافية والمنافسة الاقتصادية • وما زالت تدرس حتى يومنا هذا فى مدارسنا وجامعاتنا فى مناهج الجغرافيا وحركة الكشوف والتنافس الاقتصادى بين الدول الغربية وبين الشرق والغرب • واستبعد المزيّفون تماما العوامل الدينية المبنية على الحق والحق والرفعة فى القضاء على المسلمين ونشر المسيحية فى الشرق وهى العوامل التى كانت واضحة فى أقوال من خططوا لهذه الهجمة كما سنرى فيما يلى :

وآن لنا أن نتحرر من ذلك التزييف المتعمد الذى صاغه الغرب لنا ووضع فى مناهج التعليم فى بلادنا يوم أن كان الاستعمار ضاربا أطنابه فيها ويده من حديد يأمر وينهى ويوجه التربية والتعليم فيها الوجهة التى يريدّها وتخدم أغراضه وتخفى أحقادّه •

وللاستاذ محمود شاكر الكاتب الاسلامى والجغرافى المبدع محاولة طيبة لتوضيح الدوافع التى دفعت أوروبا للقيام بالهجوم على الشرق الاسلامى يبرز فيها الدافع الدينى الصليبي بعد أن أهمله المؤرخون وغيرهم من الكتاب زما طويلا ، وينعى باللائمة على أولئك الذين ينقلون الآراء الأوروبية بلا تمحيص ولا تدبر ويؤكد على أن هذه المعلومات المزيفة والمغلوبة « ان بقيت كما هى ، وكما أوردتها أوروبا بالذات فاننا سنبقى فى مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم فى كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئا ، وسنبقى تبعا لأوروبا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتنا ، نقلد دون ادراك ، ونأخذ من غير وضوح فى الرؤية ونحاضر من غير روية ونتكلم من دون علم ونكتب دون مناقشة لا نختلف عن البدائيين ان لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، اننا بحاجة الى أن نناقش الفكرة قبل أخذها ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا وأجيالنا » (١) •

(١) انظر : محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، دوافعها — حقيقتها من منشورات الكتب الاسلامى ، بيروت سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م ، ص ٤ .

ولا شك أن العوامل الدينية من أقوى العوامل التي دفعت الأوروبيين للانتفاف حول العالم الاسلامي وفي طليعتهم البرتغاليون والاسبان .  
فعقب اجلاء المسلمين عن الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ازداد مسيحيوا شبه جزيرة الأندلس تحمسا وشراسة في مطاردة المسلمين خارجها وانتقل نشاطهم الى شمال أفريقيا وغربها يتعقبون المسلمين وراودتهم الآمال في امكان محاصرة الاسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وخاصة في آسيا وأفريقيا .

وكان ثمة أمل يراود البرتغاليين ويرجون تحقيقه وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحي لتطويق البلاد الاسلامية كوسيلة للقضاء على الاسلام .  
بل ان هذه الروح الصليبية استهدفت أيضا تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكي وربطها بكنيسة روما وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر وتكوين جبهة صليبية مع الحبشة ضد المسلمين ولقد ساعد على هذه الرغبة في الاتصال بالأقباش ما روجاه الأوروبيون من أساطير حول مملكة الحبشة ، فقد انتشرت في أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي أسطورة القديس يوحنا ، وتحكى هذه الأسطورة أن بطريك مسيحي اسمه القديس يوحنا أسس امبراطورية مسيحية كبرى في الشرق وحكم الهند والصين والحبشة ، التي كانت تعتبر الجزء الغربي من تلك الامبراطورية ، وتحكى الأسطورة أنباء عجيبة عن هذه الامبراطورية وملكها المقدس ، وأن بلاده تنتج الذهب والأحجار الكريمة والتوابل وأن أمه الوحيد هو زيارة بيت المقدس ومحاربة أعداء الصليب وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تبلورت هذه الأسطورة لدى الأوروبيين بأن القديس يوحنا هو ملك الحبشة وتلاشت فكرة أنه ملك للصين أو الهند .  
وشاع بين الأوروبيين في نهاية القرن الخامس عشر أن ملكة هذه المملكة أرسلت رسالة الى البرتغاليين تعرب فيها عن رغبة الحبشة في مخالفة البرتغاليين فوافق البرتغاليون على عرض الحبشة وامدادها بالمعونة العسكرية اللازمة ضد المسلمين .

وان رائحة الحقد والدوافع الصليبية لتبدو واضحة من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال عمانويل ( ١٤٩٥ - ١٥٣١ م ) وملكة الحبشة اليني فقد جاء فى احدى هذه الرسائل :

« باسم الله والسلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ، تحياتى اليكم ودعواتى لكم ، لقد وصل الى مسامعنا أن سلطان مصر جهاز جيئها ضخما ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التى ألحقها به قوادكم فى الهند ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة برسالة أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر والى مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم نسييرها الى جدة أو الطور وذلك لتتقضى قضاء تاما على جرثومة الكفر ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبديد الشعوب الاسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان فان الاتفاق معكم ضرورى ، اذ أنكم أهل بأس شديد فى الحرب البحرية<sup>(٢)</sup> .

وكانت رحلات البرتغاليين الأولى توافقة للاتصال بمملكة الحبشة ولقد شجعت البابوية فى وما هذا المخطط الصليبي لغزو الاسلام فى عقر داره ، وتورط بعض البابوات فوصفوا الاسلام فى مراسيمهم بأنه طاعون<sup>(٣)</sup> ، وطالبوا ببذل الجهود لتتصير سكان المناطق التى يستولى عليها البرتغاليون والحيولة بينهم وبين اصابتهم بالطاعون الاسلامي، وشجعت البابوية عملية الانخراط فى البحرية البرتغالية والاسبانية ، وكان البابا يعد المشتركين فى تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب وكانت

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩-٣١ وانظر ايضا : حامد عمار : علاقة الدول الملوكة بالدول الامريكية .

(٣) انظر : د. عبد العزيز الشناوى ، أوربا فى مطلع العصور الحديثة الطبعة الاولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، الجزء الاول ، ص ٩٤ .

( م ٣ - العالم الاسلامى )

السفن تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصليبان مرسومة يرافقتها دعاة  
المسيحية المتعصبون لنشرها في جميع البلاد المفتوحة ، ولقد عبر عمايويل  
ملك البرتغال الذي قامت في عهده أول حملة بحرية الى الشرق عن أهم  
هذه العوامل في خطبة طويلة نقتبس منها ما يلي :

« ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر  
المسيحية والحصول على ثروات الشرق<sup>(٤)</sup> » .

كما عبرت الحملة الأولى بقيادة فاسكودا جاما في يوليو ١٤٩٧ عن  
أغراضها خير تعبير ، فقد كانت سفينة القيادة تعلق فوق ساريبتها علمسا  
كبيرا رسم عليه صليب ضخيم ، ولقد قيل يومئذ ان الصليب والمدفع كانا  
رمزى القادم الجديد الذى دخل الى الشرق وكان رفع الشعار الدينى  
واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذى دفعنا الى وصف  
هذه الحملات بأنها حملات صليبية .

ولقد سيطرت على الأسبان والبرتغاليين فى القرن العاشر الهجرى  
فكرة تحويل أعدائهم المسلمين الى المسيحية فى كل مكان يتواجدون فيه  
آسيا وأفريقيا وما حولها من جزر ، وكانت حملاتهم البحرية هى الوسيلة  
للوصول الى قلب العالم الاسلامى .

وكان المؤرخون المسلمون المعاصرون لاحداث الهجوم البرتغالى على  
شرقى العالم الاسلامى يفهمون هذه الأحداث على حقيقتها ويدركون  
مراميها قبل تعرضها للتزييف بعد ذلك على يد المؤرخين الأوروبيين ، فها  
هو المؤرخ المسلم زين الدين الملباوى الذى أرخ للنفوذ البرتغالى فى

---

(٤) انظر : د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة  
الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة  
١٩٧٤ ، ص ٤٦-٤٧ .

(٥) انظر : د . أنور عبد العظيم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٣-٤٤ .



البحار الشرقية ، وعاش في غضون القرن العاشر الهجري يشير الى  
الأهداف الدينية الصليبية بقوله :

« ثم ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين  
المسلمين وادخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك »<sup>(٦)</sup> .

#### اليهود يتجسسون لصالح الأوروبيين :

كان للمسلمين معرفة بالملاحة وعلوم البحار وكانوا متقدمين على  
أوروبا في هذا الميدان حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، وكان لهم نشاط  
ملاحى في أرجاء المحيط الهندي وأرخبيل الملايو وبحر الصين فضلا عن  
أنبحر المتوسط ( بحر الروم ) والبحر الأحمر والخليج العربى ، وقد بذل  
الأوروبيون جهودا كبيرة فى التعرف على علوم المسلمين ومعرفتهم فى  
هذا الميدان ، وكان فى طلبه من بذلوا جهودا فى هذا الصدد الأسباب  
والبرتغاليون واستعانوا باليهود فى مجال الترجمة العربية وفى مجال  
التجسس ، وكان اليهود قد التجأوا الى البرتغال ومعهم علوم العرب  
وخراائطهم وجدولهم الفلكية ، وكانوا قد ترجموها الى العبرية . وكان  
لهذه العلوم الاسلامية أكثر الأثر فى تقدم البرتغاليين فى مجال الرحلات  
البحرية<sup>(٧)</sup> وقد ساعد اليهود على نجاحهم فى عمليات التجسس معرفتهم  
باللغة العربية . وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب برا وبحرا لغرض  
جمع معلومات من الطرق البحرية من الغرب الى الشرق وعن الرحلات  
التجارية الى الهند والصين وعن مقدرة المسلمين العسكرية والبحرية  
وتظاهر هؤلاء بأنهم مسلمون .

ففى سنة ١٤٨٧ م أى قبل رحلة فاسكو دا جاما بعشر سنوات قام

(٦) انظر : زين الدين الملبارقي ، تحفة المجاهدين فى بعض احوال  
البرتغاليين ، لثبوتة ١٨٩٨ م ، ص ٤٦ .

(٧) انظر : د. انور عبدالعليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٢-٤٤ .

جماعة من الجواسيس اليهود متخفين فى زى المسلمين بالسفر الى مصر  
وكان على رأس هؤلاء الجواسيس :

Alfonso de Paiva

الفونسو دى بايفا

Rero de Covilham

بيرو دى كوفيلهام

وذكر الكاتب الايطالى المعاصر « انجلو بسكى » فى كتاب طبيع  
حديثا عن جدة أن بيرو دى كوفيلهام من بين الرحالة الذين زاروا جدة  
فى سنة ١٤٨٧<sup>(٨)</sup> .

وقد انخرط هؤلاء الجواسيس فى قافلة الحج المتجهة من المغرب الى  
الحجاز عبر مصر ثم أقبلوا من السويس الى جدة متظاهرين بالاسلام ،  
وفى جدة استقلوا سفينة متجهة الى الهند ، وفى هذه الرحلة تمكنوا من  
جمع كثير من المعلومات عن طريق التجارة ووضع مراكزها الاسلامية  
بالهند ثم عادوا الى البرتغال عن طريق مصر ، وفى القاهرة التقى هؤلاء  
الجواسيس ببعثة تجسس يهودية أخرى كانت تضم ابراهيم دى بيا ،  
ويوسف لاميجو وانضموا الى هذه البعثة واتجه الجميع الى هردز ،  
ومروا فى طريقهم على « زيلع » ومنها الى الحبشة ، ثم عادوا الى مصر  
ومنها الى البرتغال ، وقد استطاعت هذه المجموعة الحصول على بعض  
الخرائط العربية عن المحيط الهندى ، وجمعوا معلومات تفصيلية عن  
التيارات البحرية والرياح الموسمية فى هذا المحيط ، وكيفية التخلص  
من منطقة الهدوء الاستوائى التى بقيت لغزا صعب حله لدى الأوروبيين  
حيث تهدأ الرياح فى هذه المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التى  
تسير بالشرع وهى المعروفة فقط آنذاك ولا يمكن التنقل شمالا فى  
الربيع مع حركة الشمس الظاهرة ، وفى الخريف جنوبا مع تلك الحركة .

(1) Angelo Pesce, Jiddah Portrait of an Arabian City, Falcom,  
Press, Italy 1977. P. 30

واستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش المماليك أقوى الدول الإسلامية آنذاك والتي تسيطر على شرق أفريقيا والسواحل العربية في البحر الأحمر وتساعد المسلمين في حربهم ضد الأقباش والنصارى ، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية \* وعندما عادت هذه البعثة إلى البرتغال قدّمت كل هذه المعلومات إلى السلطات الحاكمة في لشبونة فاستعانت بها في رحلاتها القادمة إلى جنوب أفريقيا وشرقها إلى الهند<sup>(٩)</sup> .

#### فضل المسلمين على البرتغاليين في الوصول إلى الهند :

كان للمسلمين معرفة دقيقة بالبحار وعلومها كما سلف أن ذكرنا ، وقد نقل اليهود هذه المعرفة إلى البرتغاليين فتعلم البرتغاليون استخدام آلات الملاحة الإسلامية وخاصة البوصلة البحرية والاصطرلاب ووردت الرياح لمعرفة اتجاه الرياح في المحيطات ، وبعد أن اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح في سنة ٩٠٣ — ٩٠٤ هـ ( ١٤٩٧ — ١٤٩٨ م ) بقيادة فاسكو دا جاما لم يتحركوا من شرق أفريقيا إلى الهند إلا بمعونة بعض البحارة المسلمين .

ذلك أن فاسكو دى جاما اتجه شمالا إلى سفالة وموزمبيق وممباسا وهي موانئ إسلامية حيث قوبلوا باستقبال غير رحب ، وقد قام فاسكو دى جاما بقصف موزمبيق مما كون لدى سكان الساحل الأفريقى انطباعا مبكرا عن وحشية القادمين ، وفى « ماليندى » وهي إلى الشمال قليلا من ممباسا \* والتي كون البرتغاليون علاقة طيبة مع ملكها ، وقد كانت ماليندى هي نقطة الانطلاق إلى المياه المفتوحة عبر المحيط الهندى بين أفريقيا والهند \* حيث استطاع دى جاما الحصول بضربه حظ على خدعات

---

(٩) انظر : عبد العزيز الشناوى ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ ، ج ٩٨ .

وانظر أيضا : محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥-٢٦ .

بحار عظيم سماه البرتغاليون ( معلموكنكا ) أو « مولوكانا »<sup>(١٠)</sup> ويبدو أن هذا كان اسمه الفني وعرفت شخصيته الحقيقية فيما بعد في كتب بعض المؤرخين المسلمين مثل قطب الدين النهرواني في كتابة البرق اليماني في الفتح العثماني وابن ماجد أعظم بحار عربي يومئذ واسمه الكامل « أحمد بن ماجد النجدي » وهو من منطقة نجد في وسط الجزيرة العربية كما يوحى بذلك اسمه ، وهو صاحب أفضل موسوعة عربية لعلوم البحار تحت عنوان :

« الفوائد في أصول علم البحار والقواعد » ومن كتبه أيضا : « حاوية الاختصار في علم البحار » كذلك ألف ثلاثين مؤلفا شعريا عبارة عن أراجيز بها إرشادات ملاحية لبيان طرق الملاحة بين السواحل والموانئ المختلفة . ومعلومات ابن ماجد ليست مجرد معلومات نظرية يسردها في علوم البحار وإنما معلومات طبقها ابن ماجد عمليا أي أنه نقل المعرفة النظرية إلى الطريق التجريبي العملي وهذا ما يشير إليه في كتابه الفوائد في قوم :

« ولم نستفد في زماننا هذا شيئا له صيحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التي في كتابنا هذا ، لأنها مصممة مجربة وليس على التجريب شيء أحسن منه »<sup>(١١)</sup> .

---

« (١٠) أحمد بن ماجد : كتاب الفوائد في أصول البحار والقواعد ، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن ، نشر في دمشق سنة ١٩٧١ ، ص ١٦٠ .  
(١١) انظر : قطب الدين النهرواني : البرق اليماني في الفتح العثماني ، طبعة دار اليمامة بالرياض ، ص ١٨-١٩ .  
وانظر : يحيى بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ، ص ٦٣٠-٦٣١ ، هامش ٥ .  
وانظر : د. أنور عبد المليم : الفوائد في أصول علم البحار ... لابن ماجد ، بحث نشر في مجلة تراث الإنسانية المجلد الخامس ، عدد ٤ ص ٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٢ وأنجلويسكي Angelo Pesce : op. cit., p. 70.

وبعض مؤلفات ابن ماجد فى المكتبة الأهلية فى باريس وبعضها فى مكتبة ليننجراد بروسيا وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها الفرنسى « جبرييل فران » والمستشرق الروسى « نيوودور شرموفسكى » والكاتب العربى ابراهيم خورى ، وقد أيدوا جميعا ما ذكره قطب الدين النهروالى فى كتابه « البرق اليمانى ... » من أن فاسكو دى جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذى صاحبهم فى الوصول الى الهند مرشدا لهم . وكذلك يقرر هذه الحقيقة المؤرخ الايطالى الرحالة أنجلوبسكى فى كتابه الذى نشر عن تاريخ جدة فى عام ١٩٧٧ •

وبعد مقابلة فاسكو دى جاما مع ابن ماجد اقتنع فاسكو دى جاما بمعرفة ابن ماجد بعد أن أراه خريطة بالمحيط الهندى بكل المخططات التى اتبعها المسلمون وعندما أراه فاسكو دى جاما الاسطرلاب الخشبى الذى يستخدمه فى رحلته لم يكن ذلك محل غرابة من ابن ماجد وقال له ان كثيرا من بحارة البحر الأحمر يستخدمون النجوم ويستخدم البحار نجوما معينة فى الشمال والجنوب وأيضا بعض النجوم التى تظهر فى الشرق والغرب ولا يستخدمون مثل هذه الأدوات ولكنهم يستخدمون أدوات أخرى والننى لحضرها ليبريها لفاسكو دى جاما وكانت على شكل ثلاثة أطباق •

وقد أبحر دى جاما مع البحار العربى ، وبعد الابحار لمدة عشرين يوما وصلوا الى هدفهم وظهرت أمامهم جبال شامخة وهى الجبال التى تقع شرق كاليفورنيا على الساحل الغربى للهند وقد ظلوا ثلاثة أيام أخرى حتى وصلوا الى الشاطئ فى ٢٠ من مايو ١٤٩٧ المسمى ساحل الملبار •

ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول فى تاريخ العالم الاسلامى حدث أثره فى موانئ الخليج العربى وموانئ البحر الأحمر والبحر الأبيض الاسلامية . وكان بشعر كاليفورنيا جالية كبيرة العدد من التجار المسلمين العرب ، وقبل ان فاسكو دى جاما حياه فى كاليفورنيا نفسها عربيان من تونس

خاطباه باللغة القشتالية ، ولذلك نجد بانينكار فى كتاه آسيا والسيطرة الغربية يعلق على هذا قائلا : فأين اذن أهمية استكشاف فاسكو دى جاما (١٢) .

وفى السواحل الهندية اكتشف البرتغاليون الأسعار الحقيقية للبضائع الشرقية ومروا بأماكن تجمعها على ساحل الملبار واكتشفوا الفوائد العظيمة التى ستجنى منها ، والشئ الثانى وهو على جانب كبير من الأهمية أنهم تأكدوا من تفوق السفن البرتغالية على السفن العربية والهندية حيث أن المدافع التى كان يستخدمها البرتغاليون غير معروفة فى المحيط الهندى ، وواجه المسلمون نتيجة لذلك تنافسا قويا على تجارة الهند ، وتعرض سلاطين مصر الذين كانوا يتحكمون فى كل طرق هذه التجارة الى الغرب لفقدان مصالحهم ، وأخطر من ذلك أصبح المسلمون مهددون فى عقر دارهم وأصبح البرتغاليون على وشك تحقيق حلمهم القديم وهو التحالف مع مسيحى الحبشة الشرقيين للهجوم على الاسلام وأرضه وأتباعه ومصالحه .

وقضى البرتغاليون ما يقرب من ثلاثة أشهر ونصف فى المياه الهندية قبل أن يبحروا فى طريق عودتهم الى بلادهم مع تغيير موسم الرياح فى رحلة العودة ، وفى أغسطس ١٤٩٨ م رحل دى جاما عائدا الى البرتغال فوصلها بعد عام تقريبا أى فى سبتمبر ١٤٩٩ م واستقبلته لشبونة عاصمة البرتغال استقبال الفاتحين ، بعد رحلة استمرت حوالى عامين التى أبحر فيها حوالى ٢٤ ألف ميل .

#### البرتغاليون يبنون مراكز استعمارية فى الشرق :

تركز نشاط البرتغاليين بعد وصولهم الى الهند فى تثبيت أقدامهم على شواطئ المحيط الهندى ومهاجمة السفن والمراكز التجارية الاسلامية

(١٢) بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٠ .

فى جميع جهات المحيط واستغلوا بعض الخلافات بين حكام الهند فى التدخل لنصرة فريق على آخر كما تدفعهم وصاياهم للتفريق بين الأنحاء مما أعطى لهم فرصة لتدعيم نفوذهم على الساحل الهندى وإقامة بعض الحصون البرتغالية .

واتصف نشاط البرتغاليين الاستعماري فى هذه المرحلة بامتزاج العوامل الصليبية بالعوامل الاقتصادية ، فقد حرصوا على نشر المسيحية فى المناطق المحيطة بمستعمراتهم التى أقاموها ، وكانت حملاتهم تضم بعض القساوسة لهذا الغرض واتصف موقفهم من المسلمين بالعداوة والعنف فقاموا بطرد المسلمين من مراكزهم التجارية بالهند وسواحل أفريقيا ، وطاردوا السفن التجارية الإسلامية وعملوا على اغرقها والاستيلاء عليها ، فقد قام فاسكو دى جاما أثناء رحلته الثانية الى الهند بمهاجمة إحدى السفن الإسلامية التجارية وكانت تخص سلطان مصر واسمها « ماريام » أو « مريم » وكانت فى رحلة لها الى جدة وكانت تحمل أعدادا كبيرة من الحجاج الذين واجهوا حتفهم وكانت هذه السفينة مسالمة غير مسلحة واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر باغراقها بما تحمل من ركاب<sup>(١٣)</sup> .

وبعد هذا الحادث توجه الأسطول البرتغالى الى « كاتتور » ودفع الى الشمال من « كاليكوت » ، وكان حاكمها على خلاف مع حاكم كاليكوت فعقد معاهدة صداقة معه ثم عاد بعد ذلك الى كاليكوت طالبا من سكانها تعويضاً على الخسائر التى لحقت به اثر اعتدائهم على سفنه دفاعا عن أنفسهم وتصرف معهم بقسوة شديدة لطخت اسمه بالعار ، فعندما اقترب من الميناء وجد به خمسين سفينة غير مسلحة فأسر خمسين شخصا من السكان كرهائن وأرسل للزامورين تهديدا بأنه اذا لم تلب طلباته فإنه سيبدأ حربا مبتدئا بقتل الخمسين رهينة ، ولما لم يأتته أى جواب مانه

Angelo Pesce : op. cit., p. 73.

(١٣) انظر :

وانظر أيضا : باتيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٠ ، ٤١ .

شنق الخصمين سجيناً وقطع أيديهم وأذنانهم وأرسلها الى المدينة ، ثم بدأ ضرب المدينة بالمدفعية حتى تهدمت واحترق عدد من منازلها بما فى ذلك القصر الملكى ، ثم توجه الى « كوتشين » جنوب كاليكوت حيث عقد معاهدة أخرى مع ملكها •

وتحرشت السفن الاسلامية بأسطول فاسكو دى جاما ووقعت الحرب بين المسلمين يساعدهم الزامورين والبرتغال ، وقد رتب فاسكو دى جاما أسطوله وهو عائد الى « كنانور » فقسمه الى قسمين :

أحدهما : مكون من ثلاث سفن وخمسة قوارب تحت قيادة (سيدرى) وأمر هذه السفن أن تبخر قرب الشاطئ وتدمر كل شئ يصادفها •

أما القسم الآخر : فكان مكونا من عشر سفن أبخر بها وسط البحر وفى صباح ١٢ من فبراير ١٥٠٣ بينما كانوا مبحرين بهذا الترتيب شاهدوا أسطول كلكتا الذى كان متأهباً للحرب يتقدم نحوهم مكونا من ٢٩ سفينة بقيادة بحار عربى ذو سمعة طيبة اسمه « خواجة بار » بالإضافة الى عشرات من القوارب السنبوك بقيادة « خواجة قاسم » وللوهلة الأولى فانه يظن أن الغلبة ستكون للقوات الاسلامية ، ولكن الأسطول البرتغالى كان أحسن تسليحا حيث توجد المدافع القوية لدى البرتغاليين ، وبعد معركة عنيفة سيطر البرتغاليون على الموقف وكان النصر حليفهم ونهبوا كثيرا من الغنائم بعد المعركة من السفن ، فوجدوا فى إحدى السفن تمثالاً ذهبيا يزن ٤٠ رطلا يرجح أنه كان لبعض الهنود معجوهتين كبيرتين •

وبعد ذلك غادر فاسكو دى جاما مياه الهند الى لشبونة التى وصلها سنة ١٥٠٣ محملا بالغنائم المنهوبة من السكان والتجار المسلمين • غلم تكن هذه الغنائم من التجارة الحرة ولكن نهباً من سفن المسلمين الهنود ومن سفن العرب وكانت هذه الحمولة تقدر بنحو ٢٤ ألف دوكانت ذهباً وكانت تتكون ٣٥٠٠ طن بهارات و ٥٠٠ طن من الفلفل والذهب • ويقول



أنجلو بسكى معلقا على ذلك : « فاذا كان غرض البرتغاليين من الهند قد تحقق فإن طريقتهم كانت شاذة ومتناقضة مع طريقة العرب الذين عملوا بالتجارة منذ مئات السنين بدون أى محاولة لتخريب الدولة والتأثير على سكانها أو القضاء على التنافس »<sup>(١٤)</sup> .

وكان دى جاما أبان رحلته الثانية ( ١٥٠٢ م ) قد كلف أحد قادته بالاقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الإسلامية ولنعما من الأبحار فى مياه المحيط الهندى الا بتصريح خاص من البرتغاليين ونجح هذا القائد فى مهمته الى حد كبير فقد قام فى رجب سنة ٩٠٨ هـ (يناير ١٥٠٣ م ) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركابها وأسرا بعض الآخر .

وفى سنة ٩١٣ هـ هاجم البرتغاليون بقيادة « البوكيرك » جزيرة « سوقطرة » واستولوا عليها وتقع فى مدخل خليج عدن لاغلاق البحر الأحمر ومحاولة القضاء على تجارة المسلمين وأقسام البرتغاليون فى « سوقطرة » بعض التحصينات لهذا الغرض « كما هاجم البوكيرك عدن فى نفس السنة ولكنه فشل فى اقتحامها ، فتوجه الى الخليج العربى لأحكام السيطرة البرتغالية عليه وبذلك بدأ فى عملية غزو الخليج العربى فى سنة ٩١٣ هـ وما بعدها وبدأ البرتغاليون غزو المراكز التجارية به وأهمها من الجنوب الى الشمال « قلهان » و « قريات » و « مسقط » و ( صحار ) و « خورفكان » و « هرمز » و « البحرين » و ( القطيف ) و « البصرة » وارتكب البرتغاليون من الأعمال والفظائع ما يضيق المجال هنا عن ذكرها ، وكانت دليلا واضحا على أن نفوسهم الحاقدة لا ترويه الا الدماء .

وقضوا على مملكة هرمز الإسلامية التى كانت تتحكم فى مدخل الخليج العربى طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالى وتخضع

لها غالب الامارات الممتدة من البحرين والتطيف حتى الساحل  
العماني<sup>(١٥)</sup> .

(١٥) يرجع تكوين مملكة هرمز البحرية الى اواخر القرن السابع الهجرى  
ومطلع القرن الثامن . عندما وصلت غارات المغول الى الشاطئ الشرقى  
للخليج العربى ودمرت مدينة هرمز القديمة الواقعة على الساحل فانتقل أهلها  
الى جزيرة فى مياه الخليج مقابل مدينة هرمز تسمى جزيرة « جرون » وأطلقوا  
عليها اسم « هرمز الجديدة » وبمضى الزمن تمكنوا من الانتشار التجارى فى  
كثير من موانئ الخليج وجزره وغدا لهؤلاء التجار سلطنة تحولت الى مملكة  
عرفت « بمملكة هرمز » فرضت سيطرتها فى الخليج وظلت حتى قضى عليها  
البرتغاليون ، وكان يحكمها أبان الهجوم البرتغالى ملك صغير يسمى سيف الدين  
تحت وصاية معلمه الشيخ خواجه عطار ، وتانى أهمية مملكة هرمز من كونها  
تقع فى مضيق فى مدخل الخليج العربى اخذ اسمها وظل يعرف بمضيق هرمز  
الى وقتنا هذا .

انظر : صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص  
١٠ — ١١ .

## الفصل الثالث

### أوضاع المشرق الاسلامى فى مطلع القرن العاشر الهجرى

كان بالمشرق الاسلامى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ومطلع القرن العاشر عدة ممالك اسلامية بعضها ضعيف فى الهند وجنوب شرقى آسيا وبعضها قوى فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى سلطنة المماليك السنية فى مصر والشام وجزيرة العرب ، و سلطنة العثمانيين السنية فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، ثم مملكة الصفويين الشيعية فى فارس •

ولم تتحد هذه القوى من أجل الوقوف فى وجه أوروبا المعتدية التى تخطط للالتفاف حول العالم الاسلامى من الشرق ونجحت فى السيطرة عليها • لأن العالم الاسلامى فى المشرق لم يصل حتى الى التضامن المفروض فى الملمات وانما حدث العكس وهو التضارب والتجارب وقت الشدائد ، واستغلت الدولة العثمانية فترة ضعف سلطنة المماليك بسبب الخربات البرتغالية التى وجهت اليها فى الهند والبحار الشرقية لتحتل بلادها ، فى وقت كان الاخاء الاسلامى يفرض عليها أن تمتد يد العون لها فى محنتها •

وقبل أن نفصل القول فى هذا الموضوع لابد لنا أن نلقى الضوء على تلك القوى الاسلامية التى أثرتنا اليها سلفا ، لكى يقف القارىء على أوضاعها التى دت الى سقوط بعضها بسبب ضربات الغزو الأوروبى ، وهوان البعض الآخر وتخاذله وخيانتته لشقيقه وقت الشدة ، واستجداء فريق ثالث وتحالفه تحالفا محرما مع الغزاة الجدد ، مما أعطى فرصة للاستعمار الأوروبى أن يستغل الى أبعد الحدود مبدأ فرق تسد بين القوى الاسلامية •

### سلطنة المماليك فى مصر :

كانت دولة المماليك ( ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ — ١٥١٧ م ) تشتمل  
انقسم الأكبر مما نسميه الشرق الأوسط الآن حيث كانت تسيطر على مصر  
وبلاد الشام ( فلسطين وسوريا ولبنان والأردن ) والحجاز ثم اليمن فى  
أخريات أيامها ، وبعض الجزيرة الفراتية وأقليم العواصم والشعور وهو  
القسمة الجنوبية من آسيا الصغرى وكانت هذه أجزاء كثيرا ما تدخل فى  
سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الإسلامية ، وكان بنو رمضان الذين  
تسلطوا فى طرسوس وما يليها يولون من قبل المماليك •

وبذلك يتضح أن السلطان المملوكى قانصوه الغورى (٩٠٦—٩٢٣ هـ)  
انضى عاصر نهاية انهيار الدولة كان يدير ملكا واسعا فى مصر والأقطار  
التي تتبعها وكان للغورى والسلاطين المماليك من قبله الزعامة بين ملوك  
المسلمين وذلك لأمرين :

أولهما : أن سلاطين المماليك كانوا يقومون بخدمة الحرمين الشريفين  
وحمايتهما وعلى الرغم من اهتمامهم باللقاب الدينية ومنها لقب « خادم  
الحرمين » فقد تولوا من هذا الملك الواسع السلطة الزمنية فقط وتركوا  
ما عداها للخليفة العباس فى القاهرة الا أنهم اهتموا بلقب « خادم  
الحرمين الشريفين » أو كما كان يقال أحيانا « حامى حرم الحرمين  
الشريفين » •

ثانيهما : وجود الخلافة العباسية فى القاهرة منذ سقوطها فى  
بغداد • وصارت للمماليك بذلك زعامة معترف بها فى جميع الأقطار  
الإسلامية ، ولم يكن أحد ينازعهم هذه الزعامة حتى أن العثمانيين أنفسهم  
وهم من أقوى الممالك الضاربة فى العالم يومئذ كانوا يقررون للمماليك

بهذه الزعامة ، ومن يطلع على الرسائل المتبادلة بين سلاطين آل عثمان وممالك مصر يدرك تلك الحقيقة<sup>(١)</sup> .

ومن ثم نجد فى كتاب ابن اياس « وهو هم مؤرخ عاصر نهائية الممالك » كثيرا من أخبار البعثات الدبلوماسية أو ما كان يطلق عليهم فى ذلك الزمان الرسل أو القصاد الذين كانوا يترددون بين الغورى وبين زعماء الأقطار الاسلامية يومئذ ، وذلك مثل العثمانيين ، وسلاطين الهند وإيران والعراق وأمراء آسيا الصغرى وبلاد السودان والحبس ، ومن بلاد الكرج وأوروبا ، وجزر البحر المتوسط وكانت مصر يومئذ مأوى الكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم يلجأون الى مصر ليستجدوا فيها بسلاطين الممالك أو يقيموا فيها آمنين .

يقول ابن اياس فى حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٨ هـ : « ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك : قاصد شاه اسماعيل الصفوى ( الصفوى ) وقاصد ملك الكرج وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ( فى أذنه وطرسوس ) وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم<sup>(٢)</sup> وقاصد يوسف ابن الصفوى خليل أمير التركمان وقاصد صاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين

(١) كثير من تلك الرسائل محفوظة فى « منشآت السلاطين » التى جمعها غريدون بك فى القرن الحادى عشر الهجرى . وبعضها فى كتاب : ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠-٢٦ .

(٢) كان يطلق على آسيا الصغرى يومئذ بلاد الروم ، وعلى سكانها الروم وذلك على الرغم من استيطان الأتراك السلاجقة لها والأتراك العثمانيين من بعدهم ، وكان يطلق على سلطان العثمانيين كما قال ابن اياس « ملك الروم » وكل من يأتى من آسيا الصغرى يقال عنه « رومى » ، وذلك لسيطرة الرومان السابقة على هذه البلاد زمنا طويلا فالتصقت بهم صفة الرومانية وأن كانوا أصبحوا خليطا من الرومان والأتراك والتركمان والمغول ومن سكان البلاد الأصليين قبل مجىء هؤلاء جميعا الى آسيا الصغرى .

الذى توجه الى الهند ( حسين الكردى نائب جدة ) وقاصد ملك الفرنج  
الفرانسة ، وقاصد البنادقة وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عدد  
جماعة من النواب<sup>(٣)</sup> .

وكان بلاط الغورى على جانب كبير من الأبهة والعظمة فيذكر ابن  
اياس فى مراسيم الاحتفال بمبعوث الشاه اسماعيل الصفوى ما يلى :

« وفيه ( أى فى شهر ربيع الآخر سنة ٩١٨ هـ ) فى يوم الأحد  
سابع عشر منه عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصفوى فجلس  
معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى  
البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة  
القاصد . ومد له هناك أسمطة حافلة حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم  
من حسن النظام وتزايد العظمة »<sup>(٤)</sup> .

وكان السلطان الغورى ملكا مهيبا يميل الى الأبهة فى ملابسه  
ومواكبه ، كما كان محبا للتنعم ، مولعا بالفنون الجميلة ، ومحبا للموسيقى  
والغناء ، وكان يلهو أحيانا بلعب الكرة ويحضره مبارياتها كثيرا فى ملاعب  
ميدان الرميّة بالقلعة ، وكان يلهو أحيانا أخرى بمشاهدة نطاح الكباش  
والثيران ولعب الكلاب والصقور والفهود .

وتمكن سلاطين المماليك من تشييد كثير من القصور والمساجد  
والمدارس والخانقاوات والأسبلة والأسواق ، وجعلوها فى أبهى زينة  
وما زالت آثار عصرهم ماثلة أمامنا الى اليوم دليلا واضحا على ثراء  
عصرهم ومن هذه العماثر الباقية مدرسة السلطان المنصور قلاوون وثبته  
وبقايا بيمارستانه بالنحاسين بحى الجمالية الحالى بالقاهرة ومجموعة ابنه

(٣) انظر : محمد بن اياس ، بدائع الزهر فى وقائع الدهور ، الطبعة  
الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، ج ٤ ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ذات المكان .

السلطان الناصر محمد بجانبها ومدرسة السلطان حسن ابن الناصر محمد بالقلعة ، ومدرسة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قانصوه الغورى ( الجامع والقبه والمكتب والسبيل بالغورية ) بالقاهرة •

وكان السلطان الغورى من أعظم البناة للعمائر الاسلاميه بالقاهرة وغيرها من أجزاء مملكته فكان مولعا بتشبيد العمائر والتأنيق فيها ، تدن على ذلك آثاره الباقية ، فقد أنشأ بجانب المجموعه السالفه جامعاً عند القلعة ، وبنى خان الخليلي وخانا وأحواضا فى طريق الحجاج عند العقبة ورباطا ومارستانا فى مكة وقصرا عند مقياس النيل بالروضة ، وأنشأ الميدان الكبير عند قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وهو الميدان المعروف بميدان الرميلة ، وأضاف اليه أحواضا وأبنية ، وعمر قاعة البيسرية وقاعة العوامدية والدهيشة بالقلعة وغير ذلك من الأبنية المدنية والحربية والقلاع والحصون فى مصر والحجاز والشام •

والذى مكن الممالك من اقامة تلك الحضارة الزاهرة فى العصور الوسطى ذلك الثراء البالغ بسبب تمكنهم من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب فجنوا بذلك أرباحا طائلة مكنتهم من اقامة العمائر الزاهرة وتكوين الجيوش القوية ، ومن ثم خفت وطأتهم على الشعوب التى حكموها لاعتمادهم على موارد خارجية بل ان شعوبهم أدلت بدلوها هى الأخرى فى مجال التجارة العالمية فعندما راجت التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى عن طريق البحر الأحمر اشتكت فيها الأوساط الشعبية أيضا وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط فأخذ الأفراد يستثمرون أموالهم فى هذه التجارة عن طريق نظام المضاربة الاسلامى فقد كان التجار يمولون من مجموعة من الأفراد أصحاب رؤوس الأموال ولهؤلاء المولين نصيب فى الربح غير محدد عند عودة التاجر من تجارته •

( م ٤ — العالم الاسلامى )

وتتفرخ مجموعة وثائق الجنييزة<sup>(٥)</sup> بالعديد من الوثائق التي هي عبارة عن عقود تجارية على نسق نظام المضاربة الاسلامى عقدت بين التجار والممولين الذين اشتركوا فى نقل هذه التجارة العالمية مما يدل على أن هذه التجارة العالمية فى العصور الوسطى عاد نفعها على الشعوب بعد الحكام . وأحدثت رواجاً اقتصادياً مرموقاً فى منطقة الشرق الأوسط.

ولكن فترة حكم الماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ) ١٣٨٢-١٥١٧ م اتسمت بعدم الاستقرار فى الحكم ، فقد كثر تعاقب سلاطين الماليك على الحكم فى سرعة فائقة ، حتى أن بعضهم ما كاد يعتلى العرش أياماً حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذى أصاب سلطنة الماليك فى ذلك العصر ، بل أن أحد سلاطين الماليك لم يبق سلطاناً سوى ليلة واحدة ، فنسمع أن خاير بك اعتلى العرش سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) بعد عزل (تتربفاً) ، وكان اعتلاؤه العرش فى المساء وتم عزله فى الصباح التالى ، مما جعل ابن اياس يطلق عليه « سلطان ليلة »<sup>(٦)</sup> .

ولم تستقر الأوضاع فى عصر سلاطين الماليك الجراكسة الا فى عصرين هما :

١ - عصر السلطان الأشرف قايتباى ٨٧٢ - ٩٠١ هـ (١٤٦٨ - ١٤٩٦ م) .

(٥) مجموعة وثائق الجنييزة عبارة عن عشرة آلاف وثيقة حفظها اليهود فى معبدهم بالفسطاط ومقرتهم باليساتين على مقربة من القاهرة لمدة قرون طويلة قبل أن تأخذ طريقها الى مكتبة جامعة كمبرج وغيرها من مكتبات الغرب الأوروبى وهى ترجع الى العصور الوسطى ، الفاطمية والأيوبية والمملوكية وتلبل منها من بداية العصر العثمانى ومعظمها يرجع الى العصرين الفاطمى والأيوبى . وتغطى فترة زمنية طويلة تمتد من ٣٥٨-٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٨ م أى ما يقرب من ٦٠٠ سنة انظر د. حسنين ربيع ، وثائق الجنييزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لوانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، بحث قدم الى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، إبريل ١٩٧٧ م .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٨-٨٩ .



٢ - وعصر السلطان قانصوة الغورى ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ (١٥٠١ م) -  
٠ (١٥١٦ م) .

وتسببت هذه الفوضى المملوكية فى سوء أحوال المملكة المصرية ، وبدأ ذلك فى أواخر عهد السلطان قايتباى فقد قدر له أن يحكم حتى جاوز الثمانين من عمره واستبد به المرض فى شيخوخته ، وعندما توفى قايتباى فى سنة ٩٠١ هـ عاد الصراع وكثر القتال على الحكم بين المماليك ، ولم تهدأ الأحوال الا عندما اعتلى قانصوه الغورى كرسى السلطنة فى ٩٠٦ هـ ( ١٥٠١ م ) ولعل الميتة الوحشية التى تعرض لها كثيرون من سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هى التى جعلت قانصوه الغورى يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وامتنع عن تولي الساطنة وبكى<sup>(٧)</sup> بيد أنه قبل فى النهاية ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله اذا أرادوا خلعه<sup>(٨)</sup> .

ولم يكد السلطان الغورى يتولى السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود على الرغم من أنه كان قد جاوز الستين من عمره<sup>(٩)</sup> وعلى الرغم من اعتقاد المماليك أنه ضعيف يمكن التغلب به عمل بسرعة منذ اللحظة الأولى على إعادة الأمن والاستقرار الى العاصمة ، وملا مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم انتجه الى علاج أزمة المالية بعد أن أفلس خزانة الدولة بسبب اعتراض البرتغاليين للتجارة الشرقية واعتدائهم على السفن الاسلامية التى كانت تحصل هذه التجارة .

وعلى الرغم من أن الدولة كانت فى حاجة ملحة الى المال بعد أن نضب معين التجارة فى عصر الغورى مما اضطره الى فرض كثير من

(٧) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٨) عبد الرحمن الراغبى ، وسعيد عاشور : مصر فى الصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٢٥ .

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٥ .

الضرائب لمواجهة البرتغاليين وتحصين ثغور البحر الأحمر واعداد أسطول قوى لمجابهة البحرية البرتغالية المتقدمة ، على الرغم من ذلك إلا أنه يؤخذ على الغورى جمع المال بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، واتباع سياسة تعسفية فى اشباع خزانة الدولة ، فمجمع ضرائب عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة ، ولم يكف بفرض الضرائب على الأراضى والحوادث والمقاربات وإنما تجاوز ذلك الى الطواحين والمعديات والسفن ، ودواب النقل حتى الأوقاف الخيرية هذا الى جانب أنه تلاعب فى العملة لتستفد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضرارا بالغة .

وأثقلت تلك الاجراءات كاهل الشعب المصرى والشامى والحجازى فى وقت بدأت المنافسة البرتغالية للتجارة المصرية فى البحار الشرقية تلقى بظلمها على الحياة الاقتصادية داخل دولة المماليك ، وعلى الرغم من ذلك فإن الغورى ظل يصرف كثيرا من الأموال على مظهر بلاطه ، وفخامته ولم يقلع عن أسلوب الفخفة والعظمة حتى فى أهلك الظروف الاقتصادية وأصبحت ممالكه وخیوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية التى ضمت الشعراء والأدباء والعلماء<sup>(١٠)</sup> .

\* \* \*

#### سلطنة العثمانيين :

##### الظروف والملايسات السياسية التى ظهر فيها العثمانيون :

كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس و الصين القديمتين ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتخطى أسوار احدى هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين ، ولكنها ظلت تقوم بدور

---

(١٠) انظر بحثا قیما عن مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام .

الوسيط في نقل الحضارة بينهما ، وكانت قوة الامبراطورية الفارسية تحول بينهم وبين التدفق غربا الى بلاد الشرق الأدنى •

وبعد أن اخترقت الجيوش الاسلامية حزام فارس الى مواطن الأتراك فيما وراء النهر وبلاد خوارزم ، أقبل الأتراك يدخلون في رحاب الاسلام وعندما أخذت الدولة الاسلامية في الضعف في العصر العباسي انشأت العناصر التركية بضعف السلطة المركزية وبدأت تحاول إنشاء دولة تركية اسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنهارة • ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية في ظل الخلافة العباسية وهي دولة الأتراك السامانية<sup>(١١)</sup> •

وكان قيام هذه الدولة حافظا لكثير من القبائل التركية على الرحف الى منطقة الشرق الأدنى في أوائل القرن العاشر الميلادي ( الرابع الهجري ) وكان من أهمها عناصر القبائل السلجوقية في القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) وعلى أثر ذلك زاد النفوذ التركي السلجوقي في البلاط العباسي واستبد السلاجقة بالخلفاء في بغداد ، وكان للسلاجقة فضل في توحيد الدولة الاسلامية • وتمكنوا من هزيمة الدولة البيزنطية في موقعة ملاذكرد في سنة ٤٦٢ هـ ( ١٠٧١ م ) ووصلت أملاكهم الى بحر مرمرة وسيطر السلاجقة بعدها تماما على آسيا الصغرى ، وصار الأناضول مهجرا تقصده العناصر التركية زاحفة من وسط آسيا<sup>(١٢)</sup> •

غير أن ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الأتراك السلاجقة ما لبث أن انهار بعد وفاة ملك شاه السلجوقي سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢ م ) فقد انقسمت الدولة السلجوقية بعده الى دويلات صغيرة مزقت الكيان

---

(١١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ١٨-١٩ •

١٢ محمد فؤاد كوبرلي : قيام الدولة العثمانية ، ص ط من المقدمة •

السلجوقي وعرفت هذه الدويلات بدويلات الأتابكة، وفقد أمراء السلاجقة سلطانهم بعد أن استبد بهم الأوصياء عليهم المعروفون بالأتابكة .

وشهدت أحداث القرن السادس الهجرى ( ١٢ م ) ظهور عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، ومن بعده ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذين حاولوا توحيد المشرق العربى ضد الزحف الصليبي ، كما شهد هذا القرن أيضا سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر ، واستيلاء صلاح الدين الأيوبي على التركة الفاطمية فى مصر وتصديه للصليبيين فى الشام .

وفى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى ( ١٣ م ) دخل فى الأناضول عنصر جديد هو العنصر المغولى إذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة فى معركة ( كوسة طاغ ) أى الجبل الأقرع سنة ٦٤١ هـ ( ١٢٤٣ م ) حتى أخذوا يستوطنون بقبائلهم وجيوشهم فى الأناضول (١٣) .

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر فى الجانب الإسلامى نقص مستمر فى الجانب المسيحى فى الأناضول حتى صار المسيحيون منذ القرن السابع الهجرى عناصر تذكارية فى جنوب الأناضول (١٤) بسبب اسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر .

وقد تركت العناصر المغولية وسط الأغلبية التركية بالأناضول : حتى اذا مازالت دولة الايلخانيين المغولية التى أسسها هولاكو فى الأناضول سنة ١٢٥٣ (٦٥١ هـ) (١٥) دخلت العناصر المغولية بحسب أماكنها الجغرافية فى خدمة الامارات المختلفة التى تمخض عنها الوضع السياسى فى نهاية

(١٣) محمد فؤاد كوبريلى : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(١٤) المرجع السابق : ص ٥١ ، م .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٣-٧٦ .

القرن السابع الهجرى (١٣ م) وتقدر تلك الولايات بنحو ست عشرة ولاية (أو دويلة) على الأقل من بينها ولاية آل عثمان .

ولا زالت هناك بعض المشكلات التى تتصل عن كذب بقيام الدولة العثمانية وتحتاج من الباحثين الى كثرة التوفر على دراستها لحلها أو الاجابة عليها اجابة معقولة ، ولعل من أهم هذه الأسئلة : فى أى زمان وفد الأتراك العثمانيون على الأناضول ؟ وفى أى زمان اعتنق العثمانيون الاسلام ؟

وتجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذى أنجب أسرة عثمان والذى يعتبر بالضرورة النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر عزي أى تركى لا يفترق فى ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة<sup>(١٦)</sup> وتنتمى أسرة عثمان الى قبيلة (قابى خان) التى تنقلت رحا من الزمان ابان القرن الثالث عشر فى الأناضول بقيادة زعيمها سليمان جد عثمان ثم بقيادة ابنه أرطغول من بعده ثم بقيادة عثمان بن أرطغول الذى أعطى اسمه من بعد لقبيلته التى غدت امبراطورية مترامية الأطراف ، وكانت هذه القبيلة تخضع نظريا لا عمليا لسلطين قونية ، وشهدت العنساخ التركية بآسيا الصغرى فترة الاضطراب بسبب الزحف المغولى على الأناضول مما سبب لها كثيرا من التنقل والترحال الاجبارى من مكان الى آخر ، وبعد موت (جنكيزخان) فكر سليمان جد عثمان فى العودة بقبيلته الى موطنه الاصلى بآسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية بيد أنه غرق عند مخاضة على نهر الفرات قرب حلب ، ودفنه أبناؤه بجوار قلعة جعبر داخل الحدود السورية الحالية عام ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) وما زال قبره هناك معروف باسم (ترك مزارى) أى مزار الترك<sup>(١٧)</sup> .

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(١٧) انظر : ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٦٠ م ، ص ١٣-١٤ . وانظر أيضا : عبدالسلام عبد العزيز فهمى : السلطان محمد الفاتح ، دمشق سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ١١ .

وبعد موت سليمان انقسم بنوه من بعده ، فمنهم من فضل مواصلة المسير الى مقصد أبيهم . ومنهم من آثر البقاء فى تلك النواحي وكان على رأس الفريق الثانى أرطغرل بن سليمان الذى قاد رجاله متوغلا فى آسيا الصغرى ، وتروى الحوليات العثمانية أنه بينما كان أرطغرل يسير بمن تبعه من قبيلته فى وهاد الأناضول شاهد جيشان يقتتلان أحدهما من المغول بقيادة ( أوكتاى بن جنكيزخان ) والآخر علاء الدين السلجوقى سلطان قونية ( ١٢١٩ — ١٢٣٥ م ) فدفعته غريزته الحربية للتوقف حتى تحقق من أنكسار الجيش السلجوقى وعندئذ أسرع بالانضمام اليه وهاجم جيش المغول بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب فى قلوبهم وأعمل فيهم السيف ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغولى<sup>(١٨)</sup> وكان ذلك فى عام ٦٣٠ هـ ( ١٢٣٣ م ) وبعد انتهاء المعركة عقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علاء الدين السلجوقى وأرطغرل وكافاه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه قطعة من الأرض على حدود الدولة البيزنطية قرب مدينة ( بروسه ) تسمى ( اسكى شهر )<sup>(٢٠)</sup> ومنحه لقب « سلطان أوفى » أى مقدمة السلطان لوجود قبيلته فى مقدمة جيوشه واتخذ أرطغرل الهلال شارة انسلاجة — شعارا له على أعلامه وبيارقته ، وهو الرسم الذى لا تزال ترفرف به أعلام الأتراك حتى الآن<sup>(٢١)</sup> .

وسار علاء الدين يعتمد فى حروبه مع مجاوريه وخاصة الدولة

(١٨) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٩ — ٤٠ .

(١٩) عبد السلام عبد العزيز فهمى : مجمع سبق ذكره ، ص ١٢ .

(٢٠) اسكى شهر : أو كما يكتبها البعض أحيانا كلمة والحدة « اسكى شهر » مكونة من لفظتين تركيتين : اسكى : معناها قديم ، وشهر معناها مدينة فتكون بمعنى : المدينة القديمة . واسكى شهر تقع فى الجزء الغربى من إقليم الأناضول الأوسط على نهر بورصوق وهو فرع من نهر سقاريا .

(٢١) انظر : د. عبد الزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، طبعة الانجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ٣٥ ، هامش رقم ١ .

البيزنطية على أرطغرل ورجاله ، وكان عقب كل انتصار يمنحه أرضاً جديدة ، وكانت هذه الامارة الصغيرة ( اسكى شهر ) هى مهد الدولة العثمانية ، ففيها ولد عثمان بن أرطغرل سنة ٦٥٦ هـ ( ١٢٥٨ م ) الذى تنتسب اليه الدولة العثمانية ، وفيها دعم أرطغرل أقدام قبيلته فى الأناضول وفيها تمكن من تحويل قومه من نظام القبيلة المتنقلة الى نظام الدولة المستقرة التى بدأت تنمو وتتسع بالتدريج على حساب الامبراطورية البيزنطية بالأناضول حتى أصبحت امبراطورية مترامية الأطراف • وغدت من أكبر الدول الاسلامية التى شهدتها التاريخ •

ولما توفى أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ ( ١٣٨٨ م ) خلفه فى حكم الامارة ابنه عثمان فسار على نهج والده فى تدعيم سلطانه فى امارته الناشئة باتصاله الوثيق بخلفاء علاء الدين السلجوقى ، وواتته الفرصة عندما تحطمت هبة سلاجقة الروم أمام غارات المغول وفر آخرهم سنة ٦٩٩ هـ ( ١٣٠٠ م ) هارباً ولجأ الى الامبراطور البيزنطى الذى غدر به وقتله ، فاستقل بامارته ولم يلبث أن ضم اليها بقية الامارات التركية الأخرى التى قامت بالأناضول بعد الغزو المغولى ، واندمجت هذه الامارات التركية فى اماره عثمان على توالى الأيام وسمو أنفسهم عثمانيين أيضاً ، وبذلك ورث العثمانيون سلاجقة الروم متوسلين فى سبيل ذلك حيناً بالمصاهرة وحيناً بالمال وحيناً بالقهر والغلبة •

وتدعمت حركة عثمان دينياً عندما اتصل بشيخ الطرق الصوفية فى الأناضول وهو الشيخ « اده بالى » أدب عالى وأكثر من التردد عليه وكان رجلاً صالحاً ومن العلماء المسلمين المتعمقين فى الدراسات الدينية ، وكان هذا العالم يقيم فى قرية مجاورة لمدينة اسكى شهر • وفى خلال زيارته له تعمقت أواصر المحبة بينهما وتوجت هذه الصلة بأن تزوج عثمان ابنة

هذا الشيخ واسمها « مال خاتون » ثم قلده الشيخ سيف الجهاد فى سبيل الله وبذلك قويت حركة العثمانيين روحيا وأصبح لها دعاة يقوون من روح الجنود المعنوية ، الأمر الذى يجعلهم يستبسلون فى الجهاد ، ويحتفرون الموت فى ساحات القتال •

وإذا كان أرطغرل والد عثمان قد بنى أساس الدولة العثمانية ودعمها سياسيا باتصاله بعلاء الدين السلجوقى ، فإن عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الدينى عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ آدب عالى ، وتحمس عثمان لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين ، وصارت من رسومهم بإسلامبول أن يتقلدوا سيف عثمان من أمام جامع أبى أيوب الأنصارى حيث تتم البيعة لهم ، ومن ناحية أخرى أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة فى وضع النظم الادارية لامارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطا بعيدا على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة الى نظام الادارة المستقرة ، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطورا سريعا الى دولة كبرى ، واعدادها للدور الضخم الذى قامت به بعد ذلك •

وأخذ عثمان يوسع أراضيه بالتدريج مستغلا الفوضى والاهمال المسيطرين على الأراضى البيزنطية بالأناضول ، وكان أول صدام بينه وبين البيزنطيين فى « قوين حصار » سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١م) ولم تستطع بيزنطة لمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان ، فقد كانت مشغولة بالقتال والفن فى العاصمة وفى البلقان ، وسقطت فى يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواتها المحلية ، فسقطت ( بروسه ) فى يدهم سنة ٧٢٦ هـ ( ١٣٢٦ م ) •

ثم نقل العثمانيون عاصمتهم فى هذه السنة ( ٧٢٦ هـ ) الى



« بروسه » (٢٢) . وفى هذه السنة توفى عثمان فى بروسه ودفنه بنـوه فيها فى مقبرة فخمة بعد وفاته ، وشيد العثمانيون فى هذه المدينة كثيراً من المنشآت الاسلامية الرائعة وصارت محطاً لرحال الأتراك النازحين من بلاد تركستان بآسيا الوسطى . وولى الحكم من بعد عثمان ابنه (أورخان) ٧٢٦ — ٧٦١ هـ ( ١٣٢٦ — ١٣٥٩ م ) الذى واصل تنظيم الدولة على أسس ادارية وحربية وطيدة الأركان (٢٣) .

وقد وجد آل عثمان فى غربى الأناضول مجالاً واسعاً لتوجيه نشاط عشيرتهم الفتية نحو الحرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية وادخالها فى حوزة الاسلام ، واقدامهم على الجهاد بهذه الصورة صار يجذب اليهم عدداً غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركية الاسلامية التى قامت على أنقاض الدولة السلجوقية .

وسار العثمانيون فى حكمهم على هدى الاسلام ، وكانوا متحمسين له . وكان للاسلام أثر كبير فى مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذى تركه الاسلام فى مستقبل عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون فقد عبأهم الاسلام بشعور اسلامى دافق وجعلهم متحمسين نالاسلام . واجتمع لهم الى جانب العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة فى الأتراك العثمانيين ، وقد استمدوا هذه

(٢٢) أصبح لبروسة مركز كبير فى العالم الاسلامى منذ ان اتخذها اورخان ابن عثمان عاصمة للدولة ، وضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهى الاقجة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) وظلت بروسه عاصمة للدولة العثمانية حتى فتح العثمانيون القسطنطينية فانتقلت حاضرتهم اليها ، ونزح من بروسه كثير من الأتراك الى العاصمة الجديدة .

انظر : د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤٢ ، هامش ١ .

(٢٣) عبد السلام عبد العزيز فهمى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤ .

الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل (٢٤) .

وقد استفاد العثمانيون عندما اجتازوا الدردنيل سنة ١٣٤٥ في عهد أورخان ، وأخوا يتغلغلون في القارة الأوروبية في البلاد التي سموها « روم ايلي » أو « روملى » في المراجع العربية ( أى ديار الروم ) فقد كانت تلك البلاد تعتبر من الوجهة الشرعية دار حرب وجهاد ، فيسوغ فيها الاسترقاق ، ولذلك ابتكر آل عثمان في عهد أورخان طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد ، فأخذوا يقومون من وقت لآخر بغارات على ما وراء حدودهم في البلاد النصرانية بقصد استرقاق الأطفال ، وكانوا يعودون من تلك الغارات بعدد كبير من الأطفال المسغار الذين كانوا يودعونهم في مؤسسات خاصة لتنشئتهم نشأة اسلامية عسكرية ، وكان هذا الجيش هو الذى عرف بالانكشارية ، وهذه الكلمة محرفة من الأصل التركى ، « بنى تشرى » بمعنى النوع الجديد أو النظام الجديد (٢٥) .

وكان أفراد هذه الطائفة لا يعرفون بطبيعة الحال - شيئاً من أصلهم ونسبهم فما كانوا يشعرون بارتباط نحو أسرة غير أسرة الجيش الذى ينتسبون اليه وكانوا ينشأون على الديانة الاسلامية ويتشبعون بفكرة الجهاد منذ نعومة أظفارهم يؤمنون بأن الجهاد من فرائض الاسلام فيذهبون الى ساحات القتال وهم يقولون في قرارة أنفسهم : « اما غزى واما شهيد » بمعنى أن عليهم أن ينتصروا على الأعداء فيكونوا من الغزاة ، واما أن يموتوا خلال الحرب ، فيدخلون في زمرة الشهداء الأبرار .

وصفوة القول أن هذا الجيش كان ينشأ للحرب والجهاد ويستعد

(٢٤) د. عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٢٩ .

(٢٥) ساطع الحصرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦-٦٧ .

لذلك من كل الوجوه المادية والمعنوية ، ويعتبر هذا الجيش فى نظر بعض المؤرخين أول جيش دائم عرفه التاريخ •

وبعد أن عبر العثمانيون الدردنيل واستولوا على ( غاليبولى ) استوفدوا كثيرا من أتراك الأناضول وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنوهم هناك وفر قسم من أهل تراقيا أمام الزحف العثمانى وعمر الأتراك القادمون من الأناضول أماكنهم الخالية •

وبدأت بيزنطة التى احتفظت بمركزها كعاصمة قرونا طويلة تحس بالخطر العثمانى بأوسع معانيه • ولما تولى مراد الأول العرش فى سنة ٧٦١ هـ ( ١٣٥٩ م ) كان الأتراك قد استقروا نهائيا على ساحل أوربا متخذين من « غاليبولى » نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية •

وتقدمت الفتوحات فى « تراقيا » ووفق مراد فى مدة سلطنته التى استمرت حتى سنة ٧٨١ هـ ( ١٣٧٩ م ) فى تحقيق غايته وهى بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان •

وسارت فتوحات الدولة العثمانية بسرعة حتى عهد السلطان الرابع بايزيد الأول ٧٩٢ - ٨٠٥ هـ ( ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م ) الملقب بالمصاعقة « يلدرم » لحمله على أعدائه فى معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة ، وصارت الدولة فى عهده امبراطورية راسية القواعد فى الأناضول والبلقان فقد قضى نهائيا على مملكة البلغار وقضى على قوة الصرب تماما ، بيد أنه كان سىء الحظ بغزو التتار لبلادهم فقد اجتاحت تيمور لك الأناضول وطلب من بايزيد التسليم فى سنة ٨٠٥ هـ ( ١٤٠٢ م ) فتقابل بايزيد مع تيمور لك بجيش أقل من جيوش المغول فى معركة ( أنقرة سنة ١٤٠٢ م ) فانتصر المغول فى هذه المعركة وأسر بايزيد بعد المعركة ومات فى أسر تيمور لك وقامت حرب أهلية بين أبناء بايزيد من بعده استمرت نحو عشرة أعوام تعرضت الدولة خلالها للتمزق ، ولكن انتهى هذا التنازع

بانتصار السلطان محمد الأول ( ٨٠٥ — ٨٢٤ هـ ) على أخوته في سنة ١٤٢١ م .

وفي عهد السلطان محمد الأول تغلغل العثمانيون في شبه جزيرة الألبان حتى أتموا فتح جميع أقسامها ثم توسعوا في الأناضول حتى أوصلوا حدودهم إلى جبال طوروس ، وأصبحوا متاخمين لدولة المماليك .

وقد توج العثمانيون هذه الانتصارات بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ ( ١٤٥٣ م ) على يد السلطان محمد الثاني ٨٨٦—٨٥٥ هـ ( ١٤٥١ — ١٤٨١ م ) الذي استحق لقب الفاتح منذ ذلك التاريخ ، ولقد حقق العثمانيون بذلك أمنية ظلت تراود المسلمين منذ صدر الإسلام ، وكان من أول الأعمال التي قام بانجازها محمد الفاتح بعد فتحها عمل يرمز إلى هذه الحقيقة ، ويمثل كفاح المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح عاصمة الدولة البيزنطية ، إذ بادر الفاتح إلى تشييد مسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد عند أسوار المدينة في إحدى المحاولات الإسلامية المبكرة لفتحها في القرن الأول الهجري ثم دفن أمام أسوارها سنة ٥٠ هـ ( ٦٦٩ م )<sup>(٢٦)</sup> .

وفي مطلع القرن العاشر الهجري ( ١٦ م ) ومع بداية التفاف الأوربيين حول الشرق الإسلامي ، كانت الرياح العثمانية تنذر بعصر جديد تتحرك فيه القوة العثمانية الضاربة نحو الشرق ، وذلك بسبب الفراغ العسكري الذي حدث في منطقة الشرق الأوسط الناتج عن ضعف الدولة المملوكية في مصر الأمر الذي أغرى العثمانيين بملء هذا الفراغ ، ومن

(٢٦) يذكر القرطبي في كتابه « أخبار الدول و آثار الأول » بصدد التعرف على قبر أبي أيوب الأنصاري ، وإن السلطان محمد الفاتح التمس معرفة مكان القبر باجتهاد أحد الصالحين الذين رافقوا محمد الفاتح في حملته الموفقة ويدعى الشيخ شمس الدين فأمر السلطان بأن تبني قبة فوق القبر والحق بها جانباً فخماً هو من أهم المساجد والمعالم الإسلامية الآن في إسطنبول ، وكان من رسوم سلاطين بني عثمان أن يتقلدوا سيف الجهاد من أمام مسجد أبي أيوب الأنصاري لدى توليهم السلطة في احتفال إسلامي مهيب .

ناحية أخرى بسبب النزاع المذهبي بين الدولة الصفوية الشيعية الناشئة  
فى فارس وبين الدولة العثمانية السنية •

#### الدولة الصفوية فى فارس :

ظهر الصفويون على مسرح الحياة السياسية فى فارس فى مطلع  
القرن العاشر الهجرى ( ١٦ م ) عندما تمكن اسماعيل الصفوى من دخول  
تبريز ( سنة ٩٠٧ هـ ) عاصمة الآق قويونلو التركمان السنة وأعلن نفسه  
ملكا على فارس وأعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى جميع أنحاء  
البلاد •

وكانت ايران ( فارس ) منذ هبت عليها العاصفة المغولية أشبه شىء  
بالكرة يتنازعها أمراء من الترك حينا ومن المغول حينا آخر ، وفى مطلع  
القرن العاشر الهجرى تمكن الصفويون من توحيد البلاد والقضاء على  
جميع الكيانات المتناثرة من التركمان وبقايا المغول •

ويرجع نسب الصفويين الى أسرة آرية كانت تعيش فى أردبيل وهى  
مدينة تقع فى شرقى اقليم آذربيجان قريبا من بحر قزوين ، وتصل  
الكتب التى أرخت للصفويين نسب اسماعيل الصفوى مؤسس دولتهم الى  
جده الأكبر الشيوخ صفى الدين الأردبيلى ( ٦٥٠ — ٧٣٥ هـ ) وتصل  
الكتب أيضا نسب صفى الدين هذا الى الامام الحسين بن على بن  
أبى طالب (٢٧) ، وإلى آل ساسان أيضا •

ويبدو أن انتساب هذه الأسرة الى الحسين من الأمور المختلقة فهى  
من أصل آرى قديم ، وكانت تسكن فى منطقة آذربيجان ، وان الذين  
يقولون بانتساب الصفويين لآل البيت أرادوا أن يكسبوا الأسرة أدهيتها  
فى الحكم نظرا لأن نظرية الحق الالهى التى أودعت فى الأسرة الساسانية  
كانت ذات أثر عظيم فى تاريخ الفرس والتشيع ، ويعتقد الفرس أن  
الحسين بن على قد تزوج ( شهربانو ) ابنة يزجرد الثالث آخر ملوك

(٢٧) بديع جمعة ، أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج ١ ،  
القاهرة سنة ١٩٧٦ ، ص ٢٨ .

آل ساسان واستنادا الى هذا أصبح الأئمة من الشيعة لا يمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب ، بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضا من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من آل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان ، ومن هنا نشأت هذه العقيدة السياسية (٢٨) .

والذين يقولون بانتساب الصفويين الى أصل آرى قديم يريدون تأكيد دور الصفويين في بعث القومية الفارسية التي ظهرت على أيديهم .

وعلى كل حال فقد تعلم الشيخ صفى الدين فى صغره العلوم الدينية والعقلية ثم تعمق فى أسرار المحبة الالهية وتصوف وأصبح مرشدا لجماعة من المتصوفة وال دراويش وفكر فى الرحيل الى فارس ولكنه نزل بشيراز حيث اتصل بالشاعر سعدى الشيرازى واتصل بالشيخ زاهد الكيلانى الذى تزوج ابنته وعهد اليه الشيخ زاهد بمقام الارشاد فى طريقته الصوفية ، ثم عاد الى أردبيل ومات بها سنة ٧٣٥ هـ .

وبعد موت الشيخ صفى الدين خلفه فى الدعوة ابنه الشيخ صدر الدين موسى ( ٧٠٤ — ٧٩٤ هـ ) ثم حفيده خواجه على ( ت ٨٣٠ هـ ) ثم الشيخ ابراهيم المعروف بشيخ شاه ( ت ٨٥١ هـ ) ثم السلطان « جنبد » الذى قتل فى عام ٨٦٠ هـ ثم السلطان حيدر والد اسماعيل الصفوى الذى قتل أيضا عام ٨٩٣ هـ .

ولقد ساعدت الظروف السيئة التى حلت بإيران على يد التيموريين فى التناف المريدين حول دعاة الصفويين من أجداد اسماعيل وازدياد نفوذهم يوما بعد يوم وقد حظى منهم الشيخ « خواجه على » برعاية تيمور سنة ٨٠٥ هـ فلم ينزل بأتباعه أذى فأعطت هذه الرعاية أرضا صالحة

---

(٢٨) محمد اسماعيل جمال الدين ، دولة الاسماعيليه فى ايران ، ص ٨ ، وانظر أيضا ، د . بدیع جمعة واحمد الخولى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

لدعايات الأسرة الصفوية التي بدأت فى تعميق الأفكار الشيوعية لدى أتباعها على يد خواجه على الذى يعتبر أول من اعتنق المذهب الشيعى من أولاد الشيخ صفى الدين ودعا اليه الاتباع صراحة .

\*\*\*

وفى عهد « جنيد » اكتسبت الجماعة قدرة أوسع على الحركة وبدأت تكشف عن رغبتها فى الملك عندما عمل جنيد على تحويل جماعته الدينية الى حركة سياسية معتمدة على عدد المريدين الضخم فكان أول اجراء اتخذه فى هذا السبيل هو اطلاقه على نفسه لقب سلطان بدلا من لقب شيخ وفى هذا اشارة الى الرغبة الكامنة فى السلطة ، وتابع خطته السياسية بتدعيم عسكرى فجند أعدادا كبيرة فى مقر أسرته فى أذربيل واستطاع أن يقيم بها حكما مستقلا (٢٩) .

تتخلط الكيانات السياسية فى فارس لهذه النهضة الصفوية ، ولم تغفر لها تطلعها للسلطة ، وكانت أقوى الكيانات الحاكمة فى فارس أسرتى التركمان ١ — قراقويونلو ٢ — وآق قويونلو (٣٠) ومعنى الأولى : الخروف الأسود ، ومعنى الثانية : الخروف الأبيض وسبب هذه التسمية يرجع الى أن اسرتين اتخذتا الخروف الأسود والخروف الابيض رمزين على علميهما فغضب « جهانشاه » التركمانى رئيس الأسرة الأولى وأجبر جنيدا على الرحيل الى ديار بكر ، ولما كانت الأسرة الثانية فى نزاع مع الأولى فقد استغلت هذا الحدث لصالحها واستقبل رئيسها « أوزن حسن » : أى حسن الطويل زعيم الصفويين جنيدا وأحسن وفادته وزوجه أخته .

ولكن جنيدا عاد الى أذربيل ، ولما رأى كثرة المريدين من حوله لعبت السلطة برأسه فأقبل على تدريب المريدين تدريبا عسكريا ، وتوجه بهم الى شيروان مهاجما حاكما ولكنه منى بالهزيمة وقتل عام ٨٦٠ هـ ، وتعد

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٣٣—٣٤ .

(٣٠) نفس المرجع ، ص ١٢ .

( م ٥ — العالم الاسلامى )

هذه الحرب - وإن كانت قد انتهت لغير صالح الصفويين - بمثابة ظهور للصفويين على مسرح الحياة السياسية والعسكرية كقوة تنافس على عرش فارس .

وتولى حيدر بن جنيد رئاسة الصفويين . وحاول الانتقام من حاكم شيروان قاتل أبيه ، فأعد جيشاً لهذا الغرض وميزه بأن جعل أفرادهم يرتدون قلنسوة حمراء ومنذ ذلك الوقت صار أتباع الشيخ حيدر يعرفون أو يلقبون ( بالقلباشة )<sup>(٣١)</sup> أى أصحاب الرؤوس الحمراء ، غير أنه فشل بعد اتحاد التركمان ضده وتمكنوا من هزيمته وقتله وتفرق جماعته سنة ٨٩٣ هـ ومنذ ذلك التاريخ انقسمت إيران على نفسها وزاد الصراع بين البيت الصفوي الناشئ ومنافسيهم من التركمان . واتسع نطاق هذا النزاع .

وأدت هذه الحالة الى زيادة الفوضى في فارس ، ونشر الفساد في شتى أنحاء البلاد ، وقد ساهمت هذه الأوضاع في ظهور المدعى الجديد لعرش إيران وهو الشاه ( اسماعيل بن حيدر ) ، الذي وجد تأييداً كبيراً من الفرس وذلك لميلهم منذ صدر الاسلام الى الأفكار الشيعية . فصادفت الدعوة الصفوية الشيعية هوى في نفوسهم ، لأن الناس في ذلك الزمان قد ضاقوا ذرعاً بظلم وأجحاف أنماط الحكم المتناثرة في فارس ، وفقدوا الأمل في حياة مستقرة ، فلجأوا الى حلقات الأسرة الصفوية الصوفية بحثاً عن الراحة النفسية ، ولم يكتفوا بذلك بل صاروا مريدين وأتباعاً يضحون في سبيل نصرته شيخهم وزعيمهم .

(٣١) كان هذا الفطاء يتكون من اثنتي عشرة ثنية حمراء تمثل كل منها اماماً من اثمة الشيعة الاثني عشرية ، ومنذ ذلك الوقت صار اتباع الصفويين يعرفون باسم القزلباش اي ذوى الرؤوس الحمراء ، وقد اعتنق هذا المذهب نحو تسع قبائل تركمانية سميت بقبائل القزلباش تضافرت على خدمة البيت الصفوي وتدعيم كيانه واقرار المذهب الشيعي الاثني عشر مذهباً رسمياً في فارس .



وقد ساعدت هذه العوامل أجداد اسماعيل على الانتقال من شيوخ  
طريقة صوفية الى مؤسسى دولة ذات أهداف سياسية ومذهبية غيرت  
وجه فارس ، ونهض جنيد جد الشاه وحيدر والده نهضة حربية لنجها  
من أجل الوصول الى السلطة اعتمادا على فدائية واخلاص الأتباع  
القلباشية الذين لا يهدفون الى شىء سوى التضحية فى سبيل نصره  
شيخهم ومرشدهم •

#### الشاه اسماعيل الصفوى :

ولد اسماعيل الصفوى فى ٢٥ من رجب سنة ٨٩٢ هـ (٣٢) قبل مقتل  
والده بعام وقد ساءت حالته بعد مقتل والده حيدر ، وزادت سوءا بقتل  
أخيه الأكبر (سلطان على) فاضطر الى اللجوء الى حاكم لاهيجان فى  
المناطق الغربية من فارس فحماه ورباه تربية دينية وعسكرية وتجمع  
أتباع القزلباش عليه مرة أخرى ، وكون منهم جيشا فى عام ٩٠٥ هـ  
(١٥٠٠ م) وفكر فى الانتقام من قاتل والده حاكم شيروان فتوجه بهم  
اليه فى عام ٩٠٦ هـ وكان فى سن الرابعة عشرة من عمره ، يرافقه جيش  
من سبعة آلاف مقاتل استطاع أن يهزم بهم جيش حاكم شيروان الذى  
اعتصم فى شماخى •

وكان لحياة الاضطهاد التى عاشها اسماعيل وأسرته ، ومقتل جده  
والده وأخيه وتعرضه هو للقتل من أعدائه وهو صغير أكثر من مرة  
كان لهذا أثره الكبير فى نفس ذلك القائد الصغير ، فظهر عليه أثناء المعركة  
وبعدها روح القسوة والعنف والوحشية ، فأحرق جسد خصمه ( فرخ  
بيسار ) حاكم شيروان ، وأقام برجاً من رؤوس القتلى ، وتعدت وحشيته  
الأحياء الى الأموات فنشئ مقابر حكام شيروان ومثل برفاتهم • وكان  
لهذا أثر كبير فى ارهاب أعدائه ، كما كان للفنائم التى استولى عليها من  
شيروان أثرها الكبير أيضا فى تدعيم قوته المالية ، ومن ناحية أخرى كان

(٣٢) يوافق هذا التاريخ ١ من يونيو ١٤٨ م من السنة الميلادية •

لهذا الانتصار أيضا أثره الواضح في تشجيع كثير من الايرانيين للانتفاف حول اسماعيل واعتباره منقذا لهم من دوامة الأسر الحاكمة الدخيلة على فارس •

واشتد ساعد اسماعيل فتوجه الى تبريز عاصمة تركمان الآق قويونلو، ودخلها في سنة ٩٠٧ هـ دخول المنتصرين • وتصرف بعنف شديد تجاه خصومه ، فقطع أوصال الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، وأرغم كل من بقى في المدينة على قبول علامة الشيعة القزلباشية ، وقتل في هذه المذبحة أكثر من عشرين ألف شخص • ثم أمر باخراج جثث الكثيرين من رؤساء أعدائه من القبور وأحرقها<sup>(٣٣)</sup> وغير ذلك من ضروب الفظائع التي تتشعر لهولها الأبدان ، وأعلن اسماعيل نفسه في « تبريز » ملكا على فارس ولقب نفسه بلقب « المظفر شاه اسماعيل الهادي الوالي ؟ » ، وأصدر عملة باسمه ، وأعلن المذهب الشيعي مذهبا رسميا في جميع أنحاء فارس ، وعلى الرغم من نصيحة علماء الشيعة له بالترثيث نظرًا لأن ثلاثة أرباع سكان تبريز من السنة ، وقالوا له ربما قاوم هؤلاء ملكه ، إلا أنه أجابهم بقوله : « لا يهمني هذا الأمر فالله وحضرات الأئمة المعصومين معي وأنا لا أخشى أحدا وبإذن الله تعالى لو قال أحد من الرعية حرفا فسأسحب سيفي ولن أترك أحدا يعيش » ثم أمر المؤذنين أن يرددوا قول الشيعة في الأذان « أشهد أن عليا ولي الله ، وحى على خير العمل »<sup>(٣٤)</sup> •

وتمكن اسماعيل على هذا النحو من فرض المذهب الشيعي في فارس بحد السيف واستسلم الناس له قهرا ما عدا البعض الذي قاوم فأقى حتفه على يده ، وفي خلال عشرة أعوام من تاريخ اعتلائه العرش استطاع أن يخضع كل فارس ، وبدأ يفكر في جلب أتباع القزلباش من آسيا الصغرى ووطن العثمانيين ، وطلب من بايزيد الثاني العثماني بالسماح لمريدي الصفويين بزيارة أردبيل المقر الروحي لشييوخهم ، وكان

(٣٣) ٣٤٠٣٣) بديع جمعة واحمد الخولى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥

بايزيد مسالما محبا للأدب والفلسفة غير ميال للصدام باسماعيل فأرسل إليه في سنة ٩١٠ هـ سفيراً هنأه بفتح العراق وفارس وعرض عليه إقامة علاقات ودية بين البلدين •

غير أن العلاقات بدأت تسوء بين العثمانيين والصفويين عندما حاول اسماعيل نشر مذهبه في الأناضول بعد أن دعم مركزه في العراق سنة ٩١٤ هـ بادخال كربلاء والنجف كمدن مقدسة للشيعة في حوزته ، وبدأ يتطلع الى نشر نفوذه في الشام والجزيرة العربية ويمد حبال المودة للعثمانيين في الشاميين ، وعندما تولى سليم الأول ابن بايزيد الحكم في اسلامبول سنة ٩١٨ هـ عزم على تأديب الشاه ووضع حد لأطماعه لأنه اعتبر أن دعوته الشيعية المتعصبة خطر على أمن وسلامة دولته ، وخاصة أن أطماعه كانت تهدف الى تحطيم النظم السنية الاسلامية المعاصرة له وساعده على هذا الاعتقاد السرعة الخارقة التي نجح بها في فارس والعراق •

وفي سنة ٩٢٠ هـ واجهت الدولة الصفوية عاصفة عثمانية كادت تقضى عليها لولا أن ساعدتها الأتقار • وذلك أن سليم الأول زحف عليها في هذه السنة بجيش جرار دخل به تبريز عاصمة الصفويين ، وكاد يقضى على دولتهم لولا أن الانكشارية تمردت وامتنعت عن التقدم لاشتداد البرد ، فقفل راجعا الى اسلامبول •

وعلى الرغم من هزيمة الصفويين الا أنهم عادوا الى تجميع صفوفهم حول اسماعيل ولم يستطع العثمانيون القضاء عليهم كما فعلوا مع المماليك فيما بعد ، ذلك لأن حركة الصفويين كانت بجانب أنها حركة شيعية ، فقد كانت حركة قومية لتجميع شتات الفرس يشترك فيها الشعب الفارسي كله ، واستمر الصراع بين الصفويين والعثمانيين زمنا طويلا ، وظلت الدولة الصفوية طوال القرن العاشر الهجري ( ١٦ م ) تواجه خطرين على جبهتين : العثمانيون في الغرب ، والأوزبك في أفغانستان من الشرق ، وكلاهما من السنة •

وفي غضون ذلك كان البرتغاليون قد وصلوا الى البحار الشرقية كما سلف أن أشرنا ، وتوغلوا في الخليج العربي وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية وكثر توغلهم في البحر الأحمر واستعدوا للالتحام الفاصل بالقوى الاسلامية .

#### الدولة الطاهرية والزيدون في اليمن :

في مطلع القرن العاشر الهجري ( ١٦ م ) كانت « اليمن » تتوزع بين قوى عديدة ، فمنطقة الشمال الجبلية كانت موزعة بين عدد من الأئمة الزيديين حول صعدة وصنعاء وذمار والإشراف في منطقة الجوف الشرقية .

وفي الجنوب كانت هناك سيادة سنية شافعية تركز نفوذها في مناطق عدن وحضرموت وزبيد ونتيجة لذلك وجد في اليمن نظامان :

#### ١ — نظام الإمامة الزيدية :

والذي بدأ ينمو في اليمن الشمالي منذ وصول الامام الهادي الرسي في صعدة في سنة ٢٨٠هـ وهو يحيى بن الحسين من نسل علي بن أبي طالب ، وينسب المذهب الزيدي الى زيد بن علي ابن الحسين بن أبي طالب . وقد وصل هذا المذهب الى درجة كبيرة في الشمال غير أن الذي أضعفه هو ظهور أكثر من امام في زمن واحد مما أضعف قوته أمام القوى السنية في الجنوب والتي كانت تسيطر على النواحي السهلية في اليمن والتغور الهامة .

#### ٢ — نظام الملك السني في الجنوب :

وقد كانت تمثله الدولة الطاهرية التي بدأت في سنة ٨٥٨ هـ ( ١٤٥٤م ) وتعتبر آخر الدول السنية التي تولت الحكم في اليمن ، وكان

بنو طاهر فى أول أمرهم عمالا للدولة الرسولية<sup>(٣٥)</sup> فى (عدن) و (لجج) فخرجوا عليها وأسسوا دولة لهم على أنقاضها وقد حاول ملوك هذه الأسرة منذ البداية توحيد اليمن تحت سيطرتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامهم بالأئمة الزيديين فى الشمال ، وظلت البلاد مقسمة بين الطاهريين والزيديين حتى بداية العصر العثمانى وقد اعتمد الطاهريون فى صراعهم على قوة مواردهم الاقتصادية التى كانوا يجلبونها من التجارة التى كانت تمر بموانئ اليمن الجنوبية وعلى الأخص ميناء عدن الذى كان يتحكم فى مدخل البحر الأحمر .

وفى سنة ٨٩٤ هـ تولى آخر سلاطين آل طاهر وهو السلطان « عامر بن عبد الوهاب » فعمل على توسيع رقعة أملاكه فقد ورث حوالى ثلثى اليمن عند توليته الحكم ، أما الثلث الباقى فقد كان موزعا بين عدد من الأئمة الزيديين ، وتمكن عامر بن عبد الوهاب الطاهرى من احتلال صنعاء سنة ٩١٠ هـ وبينما كانت قوات عامر بن عبد الوهاب تواصل جهودها لتوحيد اليمن ظهر امام قوى فى « حجه » سنة ٩١٢ هـ وبدأ فى توحيد الكيانات الزيدية فى الشمال ويزحف على الجنوب وهو الامام « شرف الدين » يحيى ابن شمس الدين .

وظل عامر طوال فترة حكمه يرسل الحملات الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه فى المنطقة الشمالية وكاد ينجح فى القضاء على مقاومتهم لولا ما حدث من ظهور البرتغاليين فى البحار الشرقية ، وأدى الحصار البحرى الذى فرضه هؤلاء على السواحل العربية الجنوبية ومطاردتهم للسفن اليمنية الى ضعف إيرادات الدولة الطاهرية الضخمة التى كانت ترد اليها من التجارة الشرقية فلم يستطع عامر الوقوف أمام خصومه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يستطع الدفاع عن المصالح التجارية اليمنية أمام الأطماع البرتغالية من ناحية أخرى .

(٣٥) حكمت الدولة الرسولية اليمن فى الفترة من ٦٢٦ - ٨٥٦ هـ .

وكان المفروض أن تتعاون مصر واليمن وهما الدولتان المتضررتان من أثر الزحف البرتغالي ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد كان عامر ابن عبد الوهاب مشغولاً بحروبه الداخلية لتوحيد اليمن ، ومن ناحية أخرى فقد كان اليمن يفتقر الى أسطول حربي قوى مزود بالأسلحة النارية .

وعلى الرغم من أوضاع عامر بن عبد الوهاب الداخلية وضعف قدرته الحربية إلا أنه أمر بتجهيز حملة بحرية فى سنة ٩١٢ هـ ( ١٥٠٧ م ) لمحاربة البرتغاليين فى الهند مكونة من ( أربع عشرة سفينة ) من سفن النقل العادية تحمل ( ستمائة مقاتل يمنى ) بالإضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين ، وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن فى ١١ من مارس سنة ١٥٠٧ ( ٢٧ من شوال سنة ٩١٢ هـ ) ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين نظراً لأن المصادر اليمنية قد صممت حينئذ عن ذكر أبناء تلك الحملة التى كانت أضعف بكثير من القيام بمهمتها الصعبة (٣٦) .

وترتب على فقدان هذه الحملة تماماً أن السلطان عامر لم يفكر فى ارسال حملة أخرى الى الهند بعد تجربته الأولى هذه ، كما أنه عجز من ناحية أخرى عن حماية سواحل أمام هجوم البرتغاليين عليها .

#### الالتحام بالقوى الاسلامية :

كان من الطبيعى أن تتحد القوى الاسلامية سواء الشيعية أو السنية فى مواجهة خطر مشترك أصبح يهدد كل المسلمين فى عقر دارهم ولكن على العكس من ذلك فقد انفرد البرتغاليون بالممالك وبدلاً من أن يتلقى الممالك المساعدة من أشقائهم فى محنتهم امتدت اليهم أطماع العثمانيين

---

(٣٦) لم يشر الى هذه الحملة سوى ابن الديبع فى كتابه « الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد » .

ولاذ الصفويون لحماية أنفسهم بمهادنة البرتغاليين بل ذهبوا الى أبعد من ذلك فى التعاون معهم وهو التحالف كما سنذكر ذلك فيما يلى :

وتفصيل ذلك أن الشرق الاسلامى تأثر بالوجود البرتغالى فى البحار الشرقية ، ولكن هذا التأثير بدرجات متفاوتة فبصفة عامة تأثر المسلمون جميعا لأن هذا الوجود نتجت عنه نتائج خطيرة أضرت بأوضاع الدعوة وعملية نشر الاسلام فى تلك الأصقاع فأوروبا التى كانت تهدد العالم الاسلامى من الشمال أصبحت تحاصره من الشرق والجنوب مما قاب موازين القوى فى العالم لصالح النصارى وبدأ المسلمون بعدهم ينقلبون من الانتشار الى الانكماش ومن خطة الهجوم الى الدفاع عن أنفسهم أمام الزحف الأوروبى الذى كان البرتغاليون طليعته وفى أعقابهم أتى الأسبان والهولنديون والانجليز وغيرهم •

وتأثرت سلطنة الممالك وسلطنة الطاهريين باليمن وممالك الهند متأثرا مباشرة فى أوضاعها الاقتصادية بسبب احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق وتحويلهم لها الى رأس الرجاء الصالح وكان من البديهي أن تعمل هذه القوى التى تأثرت تأثيرا مباشرا على استرداد سيطرتها وطردهم الغزاة الذين جاسوا خلال الديار وكانت ممالك الهند مفككة وضعيفة وان كانت أقوىها هى مملكة « كجرات » فى الشمال الغربى وكانت عاصمتها « أحمد آباد » وأهم موانئها « ديو » و « سورات » فأرسل سلطانها الى الغورى سلطان الممالك بمصر يستعين به ويطلب منه بعض الأسلحة والمدافع الحديثة ، كما استنجد حاكم « كاليكوت » وكان يدعى الزامورين Zumorin بالسلطات المصرية •

وكان من البديهي أن يستنجد سلاطين الهند بالغورى ، فقد كانت الدولة المصرية حينئذ من أقوى الممالك الاسلامية ان لم تكن أقوىها على الاطلاق ، وكان لها مصالح اقتصادية مباشرة فى الهند والمحيط الهندى كما سلف أن شرحنا ، وكان لديها الأسلحة النارية الحديثة التى يمتلكها البرتغاليون وأهمها المدافع فقد حصلت عليها من البندقية •

ولبت مصر استغاثة المسلمين الهندود وعرب جنوب الجزيرة العربية ومسامى شرق أفريقيا ، وتركزت خطتها تجاه البرتغاليين على تقوية وضعها العسكرى فى أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحلها للدفاع عن الأماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز ، وعلى الأخص ثغور جدة وسواكن وعدن •

وأعد الأشراف قانصوة الغورى حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردى غادرت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٩١١ هـ (نوفمبر ١٥٠٥ م) وقد تكونت هه الحملة من المصريين والمغاربة المهاجرين الى مصر من وجه الاضطهاد والاستعمار الأسباني والبرتغالى فى الأندلس والمغرب ، وكان المغاربة يؤلفون معظم أفرادها لأنهم كانوا من البحارة<sup>(٣٧)</sup> ، وكان اشتراكهم فى هذه الحملة بدافع الانتقام من الأوربيين الذين أخرجوهم من ديارهم ودأبوا على تعقبهم فى سواحل أفريقيا الشمالية والغربية •

ولسنا نعرف شيئاً عن تعداد جنود هذه الحملة وكان عدد سفن الحملة نحو ثلاث عشرة سفينة مجهزة بالمدافع طبقاً لما ذكرته المراجع العربية<sup>(٣٨)</sup> على أنه انضم اليها كثير من السفن الهندية لمملكة كجرات ، واشترك أسطول السامرى ( أو الزامورين ) حاكم كالليكو فكان مجموع السفن المصرية والهندية مائة سفينة أكثرها فاعلية السفن المصرية لتسلحها بالمدفعية ، وكان يعاون القائد رجل مغربى أطلق عليه ابن اياس انخواجا « نور الدين على المسلاتى المغربى » وكان يرأس جماعة المغاربة<sup>(٣٩)</sup> ويرأس السفن الهندية لمملكة كجرات القائد البحرى ( مالك اياس ) حاكم ديو •

وتذكر بعض المراجع الأجنبية أنه كان على متن السفن بعض

(٣٧) انظر ابن اياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣٨) سيد مصطفى سالم : مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ — ٦٣ .

(٣٩) ابن اياس : مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ص ٨٥ .



المستشارين من البندقية وألف وخمسمائة مسيحي<sup>(٤٠)</sup> ولم تذكر المراجع العربية ذلك لا من قريب أو بعيد .

وعلى الرغم من أن السبب الرئيسي في أعداد هذه الحملة هو الغزو البرتغالي كما ينص على ذلك ابن أياس وغيره من المؤرخين ، إلا أن صاحب كتاب « السلاح والعدة في تاريخ جدة » يذكر أن سبب الحملة الدفاع عن مدينة جدة أمام هجمات البدو من عربان بنى ابراهيم وهم أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة ، وكانت السلطات المصرية توكل اليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق وفيما بين سنة ٩٠٧ هـ وسنة ٩١١ هـ قام أعراب بنى ابراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام متضامنين مع أمير ينبع يحيى بن سبع واشتد أمرهم في سنة ٩١١ هـ فأمر الغوري بإيقاف عملية الحج في هذه السنة . وعلى الرغم من قرب صاحب كتاب السلاح والعدة من تلك الفترة التاريخية إلا أنه يغفل الأسباب الرئيسية التي دفعت الغوري الى ارسال هذه الحملة ويجعل سببها الرئيسي هو أعمال السلب والنهب والتخريب التي قام بها عربان بنى ابراهيم ومن شايعهم .

وكانت مهمة حسين الكردي تحصين جدة أولاً لتكون على استعداد لصد أى عدوان مفاجئ تتعرض له ، وبدأ حسين الكردي يعد العدة لتحويل جدة الى قاعدة للحرب ضد البرتغاليين ، وكان مع الحملة فريق من البنائين والنجارين وكثير من العمال لأقامة التحصينات اللازمة كما سنرى فيما يلي :

وعلى الرغم من عدم احاطة صاحب « السلاح والعدة » بالظروف والملايسات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أحاطت بحملة حسين الكردي إلا أنه يعتبر أهم مصدر وصف لنا عملية تحصين جدة وبناء سور حولها على يد المصريين في عهد تانصوه الغوري ، كما وصف سور جدة وصفاً دقيقاً لا نجده في مصدر سواه .

ونظرا لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور الذي بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التي دفعت عن « جدة » عادية البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هذا الوصف بشيء من التفصيل فيما يلي :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج<sup>(٤١)</sup> أنه بمجرد وصول حـسـبـين الكردي وجماعته الى جدة ( بعد فراغه من تأديب عربان بنى ابراهيم بينبع وهو فى طريقه الى جدة ) شرع فى عمارة السور التي تمت فى تسعة أشهر ( تمت فى ذى الحجة من سنة ٩١٢ هـ ) بما فى ذلك الأبراج العالية ودار النيابة التي هى مقر قيادة نائب جدة ، وجامع الميناء ومصلى العيد ، ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد فى عملية بناء السور وملحقاته وساعد فى نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور ، كما حضر الشريف بركات بنفسه عملية البناء ، وكان فى بعض الأيام يقف على العمارة راكبا فرسه « ليحضر لحضوره جميع من فى البلد ويعينون بالحمل للمونة الكبير منهم والصغير والغنى والفقر والمأمور والأمير »<sup>(٤٢)</sup> .

وبذلك يتضح لنا أن عملية تحصين جدة شارك فيها مع المصريين الشريف بركات شريف مكة وأهل جدة على كل المستويات ، ولعل هذا هو السبب فى براعة العمارة وسرعتها فى مدة وجيزة كما يشير الى ذلك عبد القادر بن فرج .

---

(٤١) عبد القادر بن فرج مؤلف كتاب « السلاح والعدة فى تاريخ جدة » وكان خطيب جامع جدة ولد بجدة ونشأ بها وكانت وفاته فى سنة ١٠١٠ هـ وعاصر بداية الفتح العثمانى ، وكتابه سالف الذكر مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٨ تاريخ دهلوى ، ومما هو جدير بالذكر أن لدى صورة من هذا المخطوط (Photo Copy) وأنا معنى بنشرها محققة ان شاء الله ( المؤلف ) .

(٤٢) انظر : عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة فى تاريخ جدة ، ص ٢٠ — ٢٢ .

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه ( ١٢ ذراعا ) وطول محيطه من ناحية مكة واليمن والشام ( ٣٠٠٠ ذراع ) وعرض جداره ( ٤ أذرع ) أما الأبراج فكانت ستة أبرج ، ومحيط كل برج منها ستة عشر ذراعا وارتفاعه من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا ، منها برج شمالي تجاه الشمال وآخر يميني تجاه الجنوب وبرجان قبليان ( تجاه مكة ) ملاصقان لبابين يسمى أحدهما باب الفتوح وهو الأيمن والآخر يسمى باب النصر وهو الأيسر : أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر اثني عشر ذراعا<sup>(٤٣)</sup> وكان من تمام هذا العمل حفر خندق محيط بالمدينة من جميع نواحيها ، وبعد اتمام البناء وحفر الخندق زود المصريون المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي ، وكان جملة ما صرف على عمارة السور وملحقاته ( الأبراج ودار النياية وجامع جدة ومصلى العيد وحفر الخندق ) مائة ألف دينار غوري ( أى من الدنانير التي سكها قانصوه انغورى سلطان مصر )<sup>(٤٤)</sup> .

وتتضح لنا من عملية بناء سور حول جدة الحقائق التالية :

أولا : أن المصريين هم أول من وضع حجر الأساس في الاهتمام بشغل جدة وتقويته بعد أن أصبح مستهدفا من البرتغاليين من مطلع العصور الحديثة .

ثانيا : أن بناء السور كان قويا بأبراجه العالية وخندقه المحيط به وتسليحه الأمر الذي جعل من جدة صخرة تحطمت عليها آمال البرتغاليين في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني .

(٤٣) نص ابن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وأنه ذراع ونصف بذراع النجار ، وبالرجوع إلى خطط علي مبارك وهو أهم مصدر تعرض لتقدير الأطوال تبين لنا أن ذراع النجار التي أشار إليها ابن فرج تبلغ ٧٧ر٥ سم فتكون ذراع العمل التي قدر بها ابن فرج أبعاد سور جدة هي : ٧٧ر٥ × ١ر٥ = ١١٦ر٢٥ سنتيمتر .

(٤٤) عبد القادر بن فرج : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

ثالثا : أن الشريف بركات ومعه جمع غفير من أهل جدة على كل المستويات شاركوا فى عملية بناء سور حول جدة مع المصريين فى همة ونشاط .

رابعا : وهو الأهم أن عملية بناء سور حول جدة لحياتها بعد تسعة قرون من تاريخ الاسلام يعد رمزا لانقلاب المسلمين من سياسة الهجوم الى سياسة الدفاع حتى فى عقر دارهم التى تعنى بداية عصور الضعف .

وبعد أن أنجزت الحملة المصرية عملية تحصين جدة أضحي ميناء جدة هو خط الدفاع الأول عن مصر وعن الحرمين الشريفين ، ثم توجهت حملة الكردي بعد ذلك الى سواكن على ساحل السودان الحالى فأقامت فيها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها قبل أن تتجه الى الهند وخرجت الحملة من سواكن ومرت بالموانئ اليمنية مثل : جيزان وكمران والمخاتم الى عدن حيث استقرت فيها بعض الوقت ، وقد أوضح حسين الكردي لوالى عدن من قبل الطاهريين أن غرض الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين ، كما طلب منه أن يهده بالطعام والمؤن فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن ما يشاء<sup>(٤٥)</sup>، ثم توجهت الحملة بعد ذلك الى مياه الهند .

#### الموقف فى الهند :

فى نفس الوقت كان البرتغاليون قد أتجزوا تقدما فى الشواطئ الهندية وأحكموا قبضتهم على الممتلكات الهندية وقد عين ملك البرتغال أول حاكم برتغالى فى الهند هو ( فرانسيسكو دالميدا Francisco d'almeida ) ومنذ سنة ١٥٠٥ م فانه حول بعض الأماكن الى قلاع فى كوشين ، وكتانور ، ومنتلون ، هذا هو الوضع فى الهند عندما ظهر حسين الكردي فى نهاية سنة ١٥٠٧ فى المياه الهندية ، وفى يناير ١٥٠٨ أرسل فرانسيسكو

(٤٥) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد تهاجم المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط بمعهد احياء المخطوطات العربية ، القاهرة ، رقم ٤٠٦ تاريخ ج ص ٥٨ ( صورة بالميكرو فيلم ) .

دالميدا ابنه لورانسو Lourenco من كنانور بثلاث سفن وخمسة قوارب لزيارة ميناء شبول<sup>(٤٦)</sup> Choul حيث أراد الحاكم أن يعقد معاهدة تجارية مع حاكم تلك المدينة ، وكانت شبول تقع على نهر على بعد ٤٥ كم جنوب بومباي ويوم بحرى من ديو حيث الأسطول المملوكى كان راسيا بصورة مؤقتة وعندما وصلت أخبار وصول السفن البرتغالية الى حسين الكردي ومالك بن اياس حاكم ديو وسلطان كجرات قرر الاثنان مهاجمتها فورا<sup>(٤٧)</sup> ، وأبحروا بقوة كاملة للإيقاع بلورانسو فى نهـر شبول ، وغاجأت القوات الاسلامية السفن البرتغالية وانتصرت عليها فى معركة استمرت ثلاثة أيام<sup>(٤٨)</sup> .

وقد كان من الواضح أن البرتغاليين فى وضع سيء محاصرين فى مدخل النهر مع قلة عددهم ولم يكن هناك أى أمل فى الهروب الى البحر المفتوح ولكنهم قاتلوا بشراسة حتى آخر رجل ، وقد تردد حسين الكردي فى البداية فى استعمال مدافعه على أمل أن يأسر بعض القوارب ، واختار أن يجعل الهجوم من سطح السفن وكان رد فعل البرتغاليين عنيفا جدا وحدثت مذابح رهيبه بين الطرفين فى اليوم الثانى والثالث وانتهت بقتل ابن دالميدا ( لورانسو ) والذى أصيب بواسطة سهم عندما اجتاحت السفن البرتغالية بعض القوارب الكجراتية بينما كان هذا الشاب مربوطا فى سفينة بواسطة حتى يستطيع قيادة رجاله الى النهاية .

وتمكنت سفينتان برتغاليتان من الفرار فى آخر لحظات المعركة بينما كانت القوات الاسلامية المتحدة تتحرك بوضع اللامسات الأخيرة فى المعركة ، فوصلت السفينتان الى كنانور بعد أسبوع موحلة وناقلة لأخبار المأساة للقيادة البرتغالية التى صممت على الانتقام<sup>(٤٩)</sup> .

(٤٦) كان ميناء شبول يقع جنوب سلطنة كجرات ويتبع مملكة الدكن الإسلامية ، سيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢ .  
(47,48) Angelo pesce, op. cit., pp. 76 — 77.  
(49) Ibid : p. 77.

### معركة ديو الفاصلة :

على الرغم من أن عوامل الغضب كانت واضحة بادية لدى البرتغاليين إلا أنهم انتظروا وصول الأسطول البرتغالي الذي كان في طريقه إلى الهند ، وعندما علم الميدا أن المصريين انسحبوا إلى ديو بعد معركة شول قرر أن يهاجمهم في ذلك الميناء وقد أبحرت ١٩ سفينة من كنانور في بداية عام ١٥٠٩ م لبدء الحملة الثأرية • وبعد توقف قصير في « دى بول » بدأت المعركة في ديو في ٣ من فبراير ١٥٠٩ وقد ألحق البرتغاليون هزيمة شديدة وأسرت معظم سفن التحالف الاسلامي أو أغرق وزبح البحارة وأسروا ليعذبوا بعد ذلك ، وقد تصرف الميدا بقسوة مع الأسرى فبعد وصوله إلى كنانور وعلى مرأى من الناس أمر بشنق كل الأسرى وربط بعضهم من أفواههم إلى فوهات المدافع الكبيرة وأطلق عليهم النار حتى تناثرت شظايا أجسامهم ، وهذا اعتبره تحية للمدينة ويعلق أنجلوبيس على هذه الأعمال الوحشية فيقول : « ان مثل هذا العمل البشع هو ما جعل نهايتهم في أبشع صورة من قبل أبشع ناس في العالم » وجرح حسين الكردي ولكنه نجح في الوصول إلى الشاطئ وجمع رجاله القلائل بمساعدة الكجراتية وتوجه بهم إلى جدة •

وتعد معركة ديو من المعارك الحاسمة الفاصلة في التاريخ ، فقد حسمت الموقف لصالح البرتغاليين بصفة خاصة وللأوروبيين بصفة عامة في البحار الشرقية وفصلت بين عهدين عهد لسيطرة المسلمين السلمية على التجارة الشرقية وعهد أتى بعد هذا سيطر فيه الغرب بسيطرة عسكرية على البحار الشرقية وبدأ بذلك عهد الاستعمار والاستنزاف لثروات الشرق بأبشع صورته وتضاءلت بعدها إلى حد كبير الأهمية التجارية للخليج العربي والبحر الأحمر تلك الأهمية التي ظلت المنطقة تتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل إلى طريق رأس الرجاء الصالح وساحل أفريقيا الغربية الذي غدا يزخر بخطوط ملاحية نشطة لأول مرة في التاريخ للتجارة بين الشرق والغرب حتى فتح قناة السويس

سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) للملاحه الدولية وعودة النشاط التجارى الى البحر الأحمر وموانيه من جديد فى ظل السيطرة الأوروبية أيضا ولم يكن للعرب ولا للمسلمين فى هذا الوقت سيطرة حتى ولا على أوطانهم \*

وبعد هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون فى الهند تمكن البرتغاليون من تقوية أوضاعهم فى الهند وصدرت الأوامر من ملك البرتغال بتتحيه الميدا من الولاية فى الهند وتعيين البوكيرك Alboquerque ، وقد كان بين هذين الرجلين اختلاف فى رأى حول كيفية تقرير السيطرة البرتغالية فى الشرق فقد كان البوكيرك من المؤيدين للتوسع الاقليمى وكان الميدا يريد الاحتفاظ ببعض المراكز البحرية والتجارية وتقوية القوات البحرية ووصل التنازع بين الرجلين لدرجة جعلت الميدا يقبض على منافسه ويضعه فى السجن فى سبيل المصلحة القومية<sup>(٥٠)</sup> ، وفى نوفمبر ١٥٠٩ وصلت تعليمات مع الأسطول البرتغالى بتعيين البوكيرك كقائد عام وعودة الميدا الى لشبونة وقد استجاب الميدا على الفور وعاد الى وطنه ، ويعتبر البوكيرك أول مؤسس للاستعمار الأوروبى فى الشرق فقد عمل بعد ذلك على احتلال المراكز البحرية الهامة وإقامة الحصون القوية فى جميع الجهات فى المحيط الهندى حتى يحكم سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة<sup>(٥١)</sup> \*

فقد سيطر على مدينة (جوا) على ساحل الملبار غربى الهند وكانت مركزا لمملكة اسلامية مستقلة عن المغول وكانت منذ زمن هى الطريق لتصدير الحصان العربى الى الهند وأحد المراكز لبناء السفن فى شاطئ الملبار أضاف الى ذلك فانه لكونها تقع فى جزيرة كانت معرضة لخطر البوكيرك ، فقام بالهجوم الأول الناجح عليها سنة ١٥١٠ م ولكنه أخرج منها بعد وقت قصير ، ولكنه بعد فترة قصيرة عاد واستولى عليها بعد معركة حامية وحولها الى مستوطنة برتغالية قوية \*

(50) Angelo pesce, op. cit., p. 78.

(٥١) السيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤ .  
(م ٦ - العالم الإسلامى )

وقبل ذلك نجد البوكيرك قد أسس عدة قلاع على الشاطئ العربى  
ففى سنة ١٥٠٨ م كان قد استولى على سوقطرة<sup>(٥٢)</sup> وبنى قلعة بها وجعل  
منها قاعدة للهجوم على البحر الأحمر والهجوم على السفن المحملة  
بالبهارات المتوجهة الى جدة والسويس ولكن لندرة المياه بها ولخطورة  
مراسيها لطبيعتها الصخرية أجبرت البرتغال على تركها فى السنوات  
الأولى .

وفى سنة ١٥١٠ م احتل البوكيرك مضيق هرمز مركزا هاما لتجارة  
الخليج العربى ( الفارسى يومئذ ) وكانت ذات أسطول بحرى تجارى كبير  
وهى ميناء شبيه بجدة فى البحر الأحمر حيث كان هو الموصل للبضائع  
المتوجهة الى البصرة والقادمة من الهند حتى غدا اسمه مقترنا بالثروة  
الشرقية .

ووجه البوكيرك همه واهتمامه للسيطرة على بوابة جنوب شرق آسيا  
الهامة وهى ( ملقا ) الميناء الذى يقع على شاطئ شبه جزيرة الملايو فى  
أضيق مكان بينها وبين جزيرة سومطرة الأندونيسية . وتتحكم فى الخليج  
الذى سمي باسمها ويوصل الى بحر الصين وجزر الفلبين واليابان والشرق

(٥٢) سوقطرة . كما يكتبها أهلها ، وكما يكتبها أبو الفدا فى تقويم  
البلدان ، أو سقطرى كما يكتبها الهمذانى صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب  
وياقوت الحموى صاحب معجم البلدان » هى جزيرة عربية تقع فى مدخل خليج  
عدن على مقربة القرن الأفريقى كانت محطة هامة للتجارة بين الشرق والغرب  
لدى الغرب والهنود وتقدماء المصريين كمصدر هام للبخور والعطور ، وعرفها  
اليونان والرومان ، واحتلها البرتغاليون لفترة ، ثم احتلها الانجليز بعد ذلك  
وجعلوها مركزا هاما لهم لتكوين السفن ، وهى اليوم تابعة لجمهورية اليمن  
الجنوبية ، ولأنها ذات مركز استراتيجى توجهت اليها اطماع الروس الذين  
يقيمون علاقات قوية مع اليمن الجنوبى وتعتبر الآن من القواعد البحرية الهامة  
الروس فى خليج عدن والبحر العربى . انظر : مادة سوقطرة فى تقويم  
البلدان لأبى الفدا والهمذانى فى « صفة جزيرة العرب » وياقوت الحموى فى  
( معجم البلدان ) .



الأقصى بصفة عامة وفى سنة ١٥١٣ م وصلت أول سفينة برتغالية الى ميناء كانتون الصينى (٥٣) •

#### محاولة التحالف مع الأحباش :

حاول البرتغاليون التحالف مع الحبشة لتكوين جبهة صليبية فى الشرق ضد المسلمين •

وكانت الحبشة فى صراع مستمر مع مسلمى دول الطراز الاسلامى المجاورين لها فى شرق أفريقيا وصمد المسلمون أمام محاولات الجيش للسيطرة عليهم ، ومن ناحية أخرى كان البرتغاليون تواقون للاتصال بالأحباش ، كما سبق أن ذكرنا ، وعندما وصل فاسكو دى جاما الى الساحل الشرقى لأفريقيا فى رحلته الأولى لم يجد سوى الممالك الاسلامية على الساحل لذلك عامل سكان هذه المناطق بقسوة ووحشية ، وظل البرتغاليون فى محاولاتهم المضيئة للتحالف مع الحبشة • وفى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) تولى عرش الحبشة الملك الطفل لبنادنجل Lebna Dengel وكانت الوصية عليه أمه الملكة هلين ELeni التى سعت فى عقد تحالف صليبي مع البرتغال ، وقد اتصل الأحباش فى عهدها بالبرتغاليين وطلبوا معونتهم فى صراعهم مع جيرانهم المسلمين ووصلتهم بعض هذه المعونات التى دعمت مركزهم الى حين ولكن عندما ظهر العثمانيون فى سماء البحر الأحمر وعملوا على اغلاقه فيما بعد كانوا من العوامل الرئيسية فى عدم نجاح هذا التحالف وتقوية الكيانات الاسلامية فى ساحل أريتريا والقرن الأفريقى فى وقت تركز نشاط البرتغاليين فى عملية اغلاق البوابات الرئيسية فى البحار الشرقية والسيطرة عليها وعلى التجارة الشرقية •

وكان للبرتغاليين خطط خطيرة فى السيطرة على البحر الأحمر

والوصول الى مكة أفصح عنها البوكيرك في رسائله للملك عمانويل ملك البرتغال والتي قال في احداها :

« ان عدن يجب أن تحتل ويوضع قلاع وهي ميناء آمن لحماية سفننا في الشتاء وآخر أخبارها أن حائطا عاليا بنى عليها بمعاونة حاكم ديو وهو يظن أنى لا أدرى بما يجرى • وحيث أن المضيّق لا يصلح لعدم

غزارة المياه فان عدن هي المكان الوحيد الملائم ومفتاح المضيّق » •

وقد تطرق في رسالته الى بلاد العرب وكان يستخدم كلمة « ترك ورومان وعرب » لوصف العرب ، ولذا فان كلمة رومان يقصد بها العرب في بعض أدب البرتغاليين في هذه الفترة ، وأشار أيضا في رسالته الى أن « شيخ عدن بنى قلعة هناك ولكن هذا لن يفيدنا لأن لدينا قلعة بالقرب من جدة تسمى « فرسان » وهي التي تواجه ميناء جيزان فهي بالإضافة الى أنها مهيأة جيد للمياه فهي مرفأ طيب لسفننا ، أما بربره وزيلع فسنفرض جزية عليهم ونخضعهم • ولدينا جزر دهل حيث توجد أيضا مياه ، وخطواتنا الأولى هي أن نؤمن أنفسنا في مصوع وذلك لنضمن المؤونة والاشراف حيث أن مصوع هي المركز التجارى الرئيسى في مقاطعة « البرسترجون » أى مملكة الحبشة ، كما أعلمكم أنه عند انجاز هذه الأشياء نستطيع بعدها أن توجه نظرنا الى مكة والسويس وحيث أن هناك كثير من الخيل في مقاطعات البرسترجون فانه يكون من السهل تجهيز ٥٠٠ فارس برتغالى بمعداتهم للنزول في جدة ومن هناك ينتقلون الى مكة وهي رحلة يوم ليجعلوها رمادا (٥٤) •

وفي رسالة أخرى يقول : « ان رغبتى هي أن أذهب الى مصوع ميناء البرسترجون لأستولى على دهل حتى أرى ما أستطيع أن أفعله في جدة ، ان الرحلة الى البحر الأحمر تعتبر ذات قيمة قصوى نتيجة لوجود

تجارة البهارات والتي تأتي كل سنة الى هذه المناطق من الهند ، وحيث أننى أرغب فى تصفية الرومان ( يقصد العرب ) وبعد أن أكون علاقات مع البريسترجون ، فانى سأدمر مكة لهذه الأسباب فأنا مصمم على الذهاب الى البحر الأحمر أولا وتحطيم قوى السلطان ( يقصد سلطان المماليك ) فى تلك المياه» (٥٥) .

#### نتائج الغزو البرتغالى :

لا شك أن الزحف البرتغالى على شرق العالم الاسلامى والسيطرة البرتغالية على البحار الشرقية جاءت فزلزلت العالم الاسلامى زلزالا شديدا فى كثير من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية وبدأت التغييرات الخطيرة تظهر فى العالم الاسلامى ، وكان من أهمها كما سنرى بعد قليل اختفاء دولة المماليك وزحف الدولة العثمانية على الشرق العربى لملء الفراغ العسكرى الذى أحدثته هزيمة المماليك أمام القوى الأوروبية الزاحفة على الشرق الاسلامى .

وجدير بالذكر أن البرتغاليين انتهكوا مبدأ حرية الملاحة فى البحار الشرقية وهو مبدأ كان معمولا به قبل وصولهم وكانوا يعترفون به فى أوروبا ، ولكن هذا الحق كان لا يتجاوز فى نظرهم قارة أوروبا ، وساد بعد ذلك مبدأ « أن القانون الدولى الذى يضعه الأوروبيون لا يطبق خارج أوروبا ، وما يعد همجية فى لندن أو باريس يكون ساوفا متمدينا فى أفريقيا وآسيا ، كما يلاحظ أنهم استعملوا القرصنة البحرية على نطاق واسع فى البحار الشرقية التى كانت خالية تماما قبل مجيئهم من هذه الأعمال الشريرة

فقد شرع فاسكو دى جاما فى تطبيق ادعاء السيطرة على البحار وكان يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ودمرها تدميرا ، وروى بانينكار فى كتابه آسيا والسيطرة العربية حادثة مروعة

لسفينة عربية عائدة من مكة وهي غير مسلحة فيذكر أن فاسكو دي جاما ألقى القبض عليها واستولى على ما بها من بضائع ومنع اخراج أى عربى منها وأصدر أوامره بإشعال النار فيها<sup>(٥٦)</sup> .

وقد أدى تحول التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح الى انهيار اقتصاديات بلدان الشرق الاسلامى بصفة عامة والشرق الأوسط بصفة خاصة والتي كانت تعتمد الى حد كبير على موارد التجارة الشرقية ، وقد عرض البرتغاليون تجارتهم الشرقية فى أسواق لشبونة بأسعار أقل من أسواق البندقية وذلك لكي يجذبوا اليهم العملاء من أوروبا، ونجحوا فى ذلك نجاحا ساحقا وعادت تلك الأوضاع بالكساد على الثغور اليمنية والحجازية والمصرية والشامية وفى الخليج العربى ، وقلت موارد تلك البلاد ودخلت دورا جديدا من أدوار تاريخها اتسق بالضعف والانهيار .

وتمكن البرتغاليون من السيطرة على منافذ البحار كما سبق أن أشرنا ولم يستطع المماليك ولا العثمانيون زحزحتهم عن هذه السيطرة وأصبحت لهم مراكز استعمارية مسلحة يمكن عن طريقها التحكم فى مداخل البحار والخلجان والجزر والثغور ذات المكانة الاستراتيجية فى العالم الاسلامى وذلك فى كل من أنجولا وموزمبيق ومدغشقر وسفالة وجوا وملقا وسومطرة ومسقط وهرمز وديو وبومباى وغيرها من المراكز ودامت لهم السيطرة فى شرق العالم الاسلامى نحو قرن من الزمان زاحمهم عليها بعد ذلك كل من الهولنديين والانجليز والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين .

ولعل من الأشياء الخطيرة التى قام بها البرتغاليون لمحاكمة الاسلام فى أفريقيا انهم استعمروا أنجولا فى غرب أفريقيا وكانت تسمى أحيانا بأفريقيا الغربية البرتغالية واستعمروا فى مقابلها شرقا موزمبيق وكانت تسمى بأفريقيا الشرقية البرتغالية وحاول البرتغاليون أن يصلوا بين

(٥٦) انظر : باتيكاز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ ، ٤١ .

المستعمرتين بحجاب حاجز لمحاصرة الاسلام فى الشمال لمنع انتشاره فى جنوب القارة الأفريقية بحزام مسيحي مانع ، ولعل هذه السياسة التى حاول البرتغاليون تنفيذها فى أفريقيا مثنى عليها فما بعد الأسبان فى القلبين وحاول تطبيقها أيضا الانجائز فيما بعد فكانوا يعزلون المناطق الوثنية عن المناطق التى انتشر فيها الاسلام للحيلولة بينها وبين انتشار الاسلام بها .

ومن النتائج الخطيرة على مستقبل العالم الاسلامى أن هذه الغارة على العالم الاسلامى أضافت مجالا حيويا جديدا للغرب المسيحي فاذا عرفنا أنه فى نفس فترة التوسع الغربى فى شرقى العالم الاسلامى ثم التوسع الغربى فى الأمريكتين ( الدنيا الجديدة ) وما حولهما من جزر أدركنا أن أسهما جديدة أضيفت الى الغرب المسيحي فى العالم وانتشرت النصرانية فى تلك الأصقاع والأفاق مما نتج عنه تفوق الغرب المسيحي فى العدد والقوة وتراجع المسلمون بعدها عددا وقوة بعد أن كان لهم تفوق فى هذا المجال طوال العصور الوسطى .

ولقد حاول المماليك بعد هزيمتهم فى ديو اعداد قوة بحرية لمواجهة الزحف البرتغالى على شرقى العالم الاسلامى واستعانوا فى سبيل ذلك بالعثمانيين الذين أمدوهم ببعض المعونات العسكرية فى البداية فى سنة ٩١٦ هـ ( ولكنهم عادوا فغيروا هذه السياسة عندما نولى سليم الحكم فى سنة ٩١٨ هـ وخططوا للاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط ) وبعد أن أتم المصريون استعدادهم البحرى فى السويس وجدة خرجت حملة بحرية لهم من ستة آلاف جندي فى عشرين سفينة متجهة الى الهند بقيادة حسين الكردى فى سنة ٩٢١ هـ ولكن مما يؤسف له أن الحملة المصرية اشتبكت مع أمراء اليمن عندما رفض اليمنيون اقامة بعض التحصينات فى السواحل اليمنية لمنع البرتغاليين من احتلالها وتطور الصراع بدرجة جعلت الحملة تفرق فى مشاكل اليمن قبل أن تذهب الى سواحل الهند وانتهى الأمر بدخول المماليك صنعاء وقتلهم للمسلطان عامر بن عبد الوهاب الظاهرى واحتلت القوات المصرية صنعاء .

وبذلك تطور الوضع فى العالم الاسلامى تطورا خطيرا ، فبدلا من أن يكون بأس المسلمين على عدوهم أصبح بأسهم بينهم شديدا ولم يتحدوا على حرب عدوهم وظلوا مختلفين الى يومنا هذا ، واستغل الاستعمار الأوروبى نقطة الضعف هذه وغذاها بنصرة فريق على فريق ، وبذلك وجدنا حكام عدن بعد ذلك يتحالفون مع البرتغاليين ويقدمون لهم الولاء والطاعة ففى سنة ٩٢٣هـ قدم أمير عدن مرجان الطاهرى للبرتغاليين المؤن اللازمة لحملة لوبوسوريز على البحر الأحمر وأمدهم ببعض المرشدين من بحارة اليمن لارشادهم داخل البحر الأحمر للوصول الى جدة بعيدا عن مخاطر الشعب المرجانية التى أعاققت تقدمهم من قبل وذكرت بعض المراجع الأوروبية أن مرجان قدم اليهم مفاتيح عدن للتعبير عن خضوعه •

وعلى الرغم من ذلك فقد عمل البرتغاليون على اخضاع عدن لسيطرتهم خوفا من وقوعها فى يد العثمانيين ونجحوا فى اجبار الطاهريين على عقد معاهدة معهم سنة ٩٣٠هـ بمقتضاها تدفع عدن جزية سنوية لهم وتفتح ميناءها أمام سفنهم وفى سنة ٩٣١هـ فرضوا عليها معاهدة جديدة أشد اذلالا بعد ضربها بالمدافع وفى سنة ٩٣٦هـ اعترفت عدن لهم بالسيادة ودفعت لهم الجزية وحرم البرتغاليون على المدنيين عدم توجه سفنهم الى جدة وتركوا حامية لهم فى عدن لضمان تنفيذ تلك الشروط ، وقد تعرض حاكم عدن لهجوم العلماء عليه لموقفه الخيائى مما أثار عليه حفيظة الأهالى وغضبهم مما دفعه للتخلص فيما بعد من هذه المعاهدة ومراسلته السلطان العثمانى سليمان المشرع يطالب منه الدخول فى طاعته لعله يكفر عن موقفه الخبز ، ومما لا شك فيه أن سياسة فرق تسد التى استغلها الاستعمار الأوروبى يستعملها ويستغلها بمهارة فى العالم الاسلامى الى يومنا هذا •

وفى غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك الذين وقسح على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد الهجمات البرتغالية الشرسة فى

الوقت الذى زادت فيه هجمات فرسان القديس يوحنا من رودس على موانئ مصر والشام وإذا عرفنا أن البابا كان من وراء فرسان القديس يوحنا وأعمالهم ويمدهم من أوروبا بكل عون أمكن لنا تفسير شدة هذه الأعمال فى هذا الوقت بالذات لاشتغال المماليك عن جبهة الهند والبحر الأحمر لكى يتمكن منها البرتغاليون الذين بارك أعمالهم البابا أيضا وشجعها وعمل لها دعاية فى كل أنحاء أوروبا للقضاء على الاسلام والمسلمين وعلينا أن نلاحظ هذا التنسيق المحكم بين البابا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال فى الهجوم على العالم الاسلامى فى وقت فقد المسلمون أى نوع من هذا التنسيق .

وبدلا من أن يتقدم العثمانيون لمساعدة المماليك على أيام سليم الأول العثمانى (٩١٨ — ٩٢٦ ق هـ) ويكونوا يدا واحدة على عدوهم اذا بهم يفكرون فى شئ آخر لمصلحتهم هم لا لمصلحة الاسلام وهو أن يتدخلوا فى المنطقة للء الفراغ العسكرى بعد أن ضعف المماليك وأعدوا أنفسهم لهذا فعلا ، وساعدهم على ذلك تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر والشام ومنطقة البحر بعد أن كسرت التجارة وجفت مواردها وتخربت موانئ الشام ومصر والحجاز واليمن وهرمز وفى صفحات ابن اياس المؤرخ المصرى المعاصر اشارات كثيرة الى هذه الأوضاع السيئة التى نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والغور الاسلامية<sup>(٥٧)</sup> .

وانعكست تلك الأوضاع الاقتصادية السيئة على الوضع العسكرى فلم يتمكن المماليك من الاعداد اللازم للجيش وأصبح ظاهرا للعيان مدى ضعفهم العسكرى ومن ثم قام سببا رهيب بين البرتغاليين والعثمانيين للىء هذا الفراغ وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة

---

(٥٧) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ حوادث المحرم وذى الحجة من سنة ٩٢٠ هـ .

الملوكية المتهاكمة لأنها ضعفت عن مجابهة الأقطار المحيطة بها وبينما كان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل داخل البحر الأحمر حتى أنهم هاجموا ميناء جدة فى خلال سنة ٩٢٣ هـ كان العثمانيون قد نجحوا فى خلال عام ٩٢٢ هـ وأوائل عام ٩٢٣ هـ فى الاستيلاء على أملاك الدولة المصرية الملوكية بالشام ونجحوا فى ضم الحجاز واليمن سلميا ، ولم يتمكن الغورى من الانتصار فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ لأنه كان مشغولا بتأمين البحر الأحمر ضد الزحف البرتغالى والاعداد لحملة جديدة على الهند وكانت قواته موزعة فى كثير من ثغور الحجاز واليمن والساحل الأفريقى ، كما كان من ناحية أخرى يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة على ثغور البحر المتوسط •

وبشنق طومان باى آخر سلاطين المماليك على باب زويلة بالقاهرة أسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامى كانت مليئة بالجهاد حقق المماليك فيها النصر على الصليبيين والمغول ولكنهم أخفقوا فى رد عادية البرتغاليين وسقطوا فى قبضة اخوانهم العثمانيين •



## الفصل الرابع

### العالم الاسلامى فى ظل الدولة العثمانية

خضعت كل من الشام ومصر وغالبية الجزيرة العربية لحكم الدولة العثمانية ، وأما العراق فقد ظل مجال أخذ ورد وصراع بين العثمانيين والصفيين لوجود العتبات المقدسة الشيعية فى كربلاء والنجف حتى قام السلطان العثمانى سليمان المشرع بضمه الى الدولة العثمانية فى سنة ٩٤١ هـ ، وأعاد فتح اليمن فى سنة ٩٤٥ هـ .

أما أقطار المغرب العربى فقد اتصلت بهم لنتحالف معهم تجاه الأخطار المسيحية المحدقة بهم كما سبق أن أشرنا ، وطلب المجاهدون فى المغرب وعلى رأسهم خير الدين بربروسا من العثمانيين المساعدة ضد البرتغاليين والأسبان فتقدم العثمانيون اليهم بالمساعدة على أيام سليمان المشرع ، ونتج عن هذا التضامن الاسلامى قوة فى المغرب مكنت المغاربة من استعادة كثير من الأراضى فى شمال أفريقيا ، ووجد خير الدين شمال أفريقيا كله ما عدا مراكش تحت راية الدولة العثمانية ، وكان فى مراكش الأشراف السعديون فاعتبروا أنفسهم أحق بحكم المسلمين وخلافتهم من العثمانيين فلم يسلموا لهم وظلوا يحاربونهم واستغل الغرب هذه الثغرة أيضا للايقاع بين المسلمين .

وصفوة القول أن العثمانيين تمكنوا من السيطرة على غالبية العالم العربى فى سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة بسبب الضعف الداخلى والخطر الخارجى ثم التجاوب الدينى أو الوشيجة الدينية التى تربط العثمانيين بهذه البلاد والتى لولاها لكان مصير الغزو العثمانى منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والصليبية السابقة .

ولقد قابل العثمانيون مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين المماليك والبرتغاليين حول السيادة عليه والسيادة على البحار الشرقية وتجارتها ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد وصولهم الى المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت إحدى القضايا الملحة التي تحتاج الى عمل حربي عاجل وحاسم منهم ، ولقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك •

بيد أن الخطوات العثمانية في مجابهة البرتغاليين ظلت بطيئة واتسمت سياستهم العسكرية بالاسترخاء العسكري في البحار الشرقية تلك الحالة التي استمرت حتى سنة ٩٤٥ هـ ( ١٥٣٨ م ) وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم في أوروبا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم في كثير من المناطق الأوروبية منتهزين الحرب الإيطالية التي شغلت أوروبا في الفترة من سنة ١٥١٥ حتى سنة ١٥٥٩ م • كما كانوا يعملون من ناحية أخرى على مد نفوذهم الى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء على العالم العربي توصلا الى توحيد العالم الاسلامي •

لكن على الرغم من هذه المشاكل ظل الخطر البرتغالي يمثل تهديدا مباشرا للعثمانيين في البحر الأحمر والأماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز وكان الأمر باليمن يقتضى عملا حاسما لتقوية الوجود العثماني به بعد أن اضطربت أحواله بسبب تصارع القوى المملوكية والعثمانية والزيدية وبقايا الطاهريين في عدن ، ومن ثم توجهت همة العثمانيين الى اعداد حملة بحرية الى اليمن والهند منذ عام ١٥٣٧ م ( ٩٤٤ هـ ) بميناء السويس •

### حملة سليمان الخادم العثماني على اليمن والهند

٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م

لا شك أن فتح العثمانيين للعراق في سنة ٩٤١ هـ جعلهم وجهاً نواجه مع البرتغاليين في الخليج العربي ، فقد دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين بعد فتح العراق ، ومن ناحية أخرى فإن البرتغاليين قد أقاموا علاقات ودية مع الصفويين في فارس نتج عنها امداد البرتغاليين للفرس ببعض المعدات العسكرية ، ولقد ساعد الخطر العثماني الذي كان يهدد الدول الأوروبية على التقارب بين هذه الدول وإيران ، وعندما ظهرت الدولة الصفوية بقوتها في شرقي الدولة العثمانية خفف الضغط العثماني على أوروبا واتجه إلى فارس ، ولذلك فقد سعت دول أوروبا إلى اسماعيل الصفوي تعرض عليه تثبيت عرى الصداقة والمودة وحاول اسماعيل من جانبه استغلال هذه الفرصة لحماية نفسه من أطماع الدولة العثمانية التوسعية في الأراضي الفارسية وخاصة بعد هزيمته المنكرة من الدولة العثمانية في معركة شالديران سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) فأرسل الشاه اسماعيل رسوله إلى البوكيرك في هرمز سنة ٩٢١ هـ يطلب من البرتغاليين مساعدته ضد العثمانيين وقيام تحالف بينهما ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تنص على :

— تقديم سفن برتغالية لاسماعيل لمعاونته في حملته على البحرين والقطيف ، في مقابل أن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء جوادر على ساحل بلوخرستان •

— تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية •

— تصرف حكومة فارس النظر عن جزيرة هرمز ، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعاً للبرتغال ، وأن لا تتدخل في أمورها الداخلية<sup>(١)</sup> .

وقد أثقلت هذه العلاقات الصفوية البرتغالية الدولة العثمانية بالإضافة الى ذلك فقد استتجد سلطان كجرات بالهند « بهادر شاه » بالعثمانيين يطلب منهم ارسال مدد عسكري للصمود أمام البرتغاليين الذين سيطروا على « ديو » حتى لا تضطر سلطنة كجرات الى عقد صلح مهين معهم .

كل هذه العوامل السالفة جعلت العثمانيين يرسلون حملتهم التي سبق اعدادها في السويس بقيادة سليمان باشا الخادم<sup>(٢)</sup> ففي المحرم سنة ٩٤٥ هـ أبحرت تلك الحملة وكانت مؤلفة من ٨٠ سفينة و ٢٠ ألف جندي ، وكان سليمان الخادم لا يصلح لقيادة هذه الحملة فقد كان في الثمانين من عمره ، سرى اليه ضعف العقل والرأى وكانت لديه عقدة خاصة بنشأته حيث نشأ في القصر السلطاني وكان من الخصيان العبيد ، ولم تكن له علاقة بالبحرية وكانت كل مؤهلاته أنه رجل ميال للغدر وسفك الدماء .

وعلى الرغم من هذه العيوب الخاصة بشخصية قائد الحملة الا أنه تمكن من فرض السيطرة العثمانية في سواحل اليمن الغربية والجنوبية

---

(١) انظر : بديع جمعة وزميله : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج ١ ، ص ٩٧ .

وانظر ايضا : صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٧ — ١٨ .

(٢) كان سليمان باشا الخادم احد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين اليه وظل والياً على مصر منذ عام ٩٣١ هـ حتى غادرها الى العراق للاشتراك في فتح بغداد سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٣ هـ ، واستمر بها حتى خرج منها على رأس حملة بحرية الى الهند واليمن سنة ٩٤٥ هـ .

بأساليب امترجت بالحيلة والغدر ، ذلك أنه بمجرد وصوله الى عدن أظهر حاكمها عامر بن داود الظاهري حسن استقباله بعد أن ظل فترة يراوغه ويهمل الرد عليه وكان سليمان يضر له الغدر ، ولما فتح عامر أبواب المدينة أمام سليمان أمر الأخير جنوده سرا بالاستيلاء عليها عقب دخولها ، وفى نفس الوقت استدعى حاكمها الى سفينته فلما توجه لاستقباله أمر بشنقه ومن معه من رجال على سارية السفينة ، وأمر بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة خيانتهم للمسلمين ومحاولة تسليمهم عدن للبرتغاليين وتحالفهم معهم •

ويعتبر عامر بن داود آخر الحكام الطاهريين وبموته انتهى حكم هذه الأسرة من اليمن وقد تم للعثمانيين الاستيلاء بهذه الطريقة على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم ، وقامت الحملة بتحسينها وتقويتها بالمدايع لتتكون خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر ، وعين سليمان أميراً عثمانياً عليها هو الأمير بهرام ومعه حامية من ٥٠٠ جندي •

وانطلقت الحملة بعد ذلك الى ديو بسواحل الهند لتحقيق الجزء الثانى من خطتها وهو القضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند وكان ذلك بعد فوات الأوان لأن البرتغاليين كانوا قد دعموا نفوذهم فى تلك الأماكن ومضى على وجودهم هنا كما يربو على ثلاث قرن من الزمن وكانت هذه الفترة الزمنية كافية بأن يحتاطوا لأمرهم ويعدوا لكل شئ عدته • ومن ثم فما كادت الحملة تقوم بحصار بعض القلاع البرتغالية هناك حتى فكت الحصار عندما علمت بنجدة برتغالية كبيرة قادمة عن طريق البحر ويقال أن الهنود هم الذين أوهموهم بهذه الحملة ليتخلصوا منهم وكان البرتغاليون قد تمكنوا قبل وصول الحملة من قتل حاكم كجرات السلطان ( بهادر شاه ) سنة ٩٤٣ هـ قبل أن تدركه المعونة العثمانية مما أعاق عملية التحالف لأن خلفاء بهادر شاه ارتابوا فى العثمانيين وخافوا من غدرهم بعد أن وصلتهم أنباء عن غدر قائدهم باليمنيين الذين فتحو له مدينتهم فتوجسوا منه خيفة

واعتقدوا أن العثمانيين قوم لا أمان لهم ولا يوثق بعهدهم بالإضافة الى عدم قدرة الحملة من الناحية العسكرية على منازلة البحرية البرتغالية وفشلت بذلك الحملة العثمانية فى تحقيق شئ يذكر بالهند نظرا لضعف قائدها وضعف حلفائها الهنود •

وعادت الحملة الى الموانئ اليمنية وتفرغت بعد ذلك لفتح باقى الموانئ اليمنية كالشحر والمخاوييد ولجأ سليمان فى سبيل ذلك الى أسلوبه المعروف بالعدو وطلب قائد المماليك (الناخودة أحمد) حاكم ربيد لتقابلته بعد أن أرسل اليه الأمان وعندما وصل اليه فى ميناء المخا أمر بقتله فى الثامن من شوال ٩٤٥ هـ وعين عثمانيا مكانه وهو مصطفى بك نائب غزة السابق •

وكان القضاء على الطاهريين والمماليك يعنى بداية المواجهة المباشرة مع الزيديين وهم القوة الباقية فى اليمن وحاول سليمان الخادم استدراج الامام شرف الدين على طريقته فى الغدر ولكنه لم يفلح وظل يتبادل معه الرسائل دون جدوى لأن الرجل لم يأمن جانبه فأعرض عنه حتى غادر سليمان اليمن عائدا الى مصر •

وصفوة القول أن حملة الخادم حققت الاستيلاء على السواحل اليمنية من جيزان شمالا الى الشحر جنوبا أما الجهات الداخلية فظلت فى أيدي الزيديين وقضت نهائيا على كل من المماليك والطاهريين وفشلت الحملة فى مشروعها الثانى بالهند كما رأينا ، وبعد فشل العثمانيين فى الهند لم يفكروا فى سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلت سياستهم دفاعية عن البحر الأحمر ومحاولة اغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية وكانت حملة الخادم هى الاولى والاخيرة للعثمانيين على الهند •

كما أن العثمانيين فشلوا فى مقاومة الوجود البرتغالى فى الخليج العربى الذى أقام له مراكز استعمارية هناك وتحالف مع الصفويين فى فارس كما سلف أن ذكرنا •

وإذا كان العثمانيون قد تم لهم تأمين البحر الأحمر أمام الغزو البرتغالي فإنهم عجزوا عن تحقيق غاياتهم الرئيسية المطلوبة منهم وهي ضرب السيطرة البرتغالية في البحار الشرقية ، ولعل سبب إخفاقهم راجع الى عدة عوامل ، منها عدم قدرتهم على لم شمل المسلمين وتأليف حلف إسلامي منهم لتوحيد القوى الإسلامية لمكافحة السيطرة البرتغالية عن طريق التضامن الإسلامي كما حدث منهم في المغرب العربي مع المجاهدين المغاربة عندما تحالفوا معهم ومدوا لهم يد المعونة كما سأل أن ذكرنا ومنها أيضا قلة استعدادهم البحري لمجابهة البرتغاليين فقد كانوا حتى ذلك التاريخ مازالوا من الأمم البرية التي تعتمد على قوتها الضاربة في البر دون البحر ، ولعل أقوى هذه العوامل قاطبة هو تحطيمهم للقوة المملوكية بدلا من التضامن معها لتحمل المسؤولية أمام الأخطار الصليبية كما حدث في المغرب العربي •

ومن النتائج التي تترتب على سيطرة العثمانيين على العالم العربي أنهم ورثوا القيادة في العالم الإسلامي بعد دولة المماليك المصرية وحظيت الدولة العثمانية بحماية الحرمين الشريفين وأضاف سلاطين أهل عثمان الى ألقابهم لقب « خادم الحرمين الشريفين » وكان العثمانيون بطمحن الى مد نفوذهم الى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم منذ زمن بعيد أن ينعتوا أنفسهم بلقب حماية الحرمين الشريفين ذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم وذلك لاعلاء مكانتهم في العالم الإسلامي وقد عبر السلطان سليم الأول عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢ هـ ودخوله حلب فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له أيما طرب وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعاً متعددة وأحسن اليه إحساناً زائداً<sup>(٣)</sup> •

(٣) انظر : قطب الدين النهروالي : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٧—١٨٨ •

وحدث تطور آخر يتعلق بالخلافة الإسلامية فيبعد أن ظلت الخلافة العباسية بالقاهرة قرابة ثلاثة قرون تحت إشراف أمراء المماليك منذ أن نقلها الظاهر بيبرس سنة ٥٨٠هـ إلى القاهرة إذ بها بعد الفتح العثماني للعالم العربي تنتقل إلى الأتراك ويصبح خليفة المسلمين تركيا في اسلامبول ولعل من الجدير بالذكر أن الخلافة عادت لها هيبتها في ظل الأتراك حيث كان السلطان العثماني هو الخليفة وكان يمسك في يده كل السلطات الزمنية والسياسية والسلطات الدينية أيضا وظل الأمر هكذا حتى إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ولما كانت الدولة العثمانية سنية فقد وقفت وقفت سدا منيعا أمام انتشار المذهب الشيعي الصفوي في العالم العربي فحفظت له سيادة المذهب السني باستثناء بعض الجيوب الشيعية الضعيفة في العراق والشام واليمن وامارات الخليج العربي ولم تكن لهذه الجيوب تطلعات خارج حدودها بالإضافة الى وجود خلافت مذهبية بينها وبين شيعة فارس .

ويمكن القول بأن الدولة العثمانية حفظت أيضا لشمال أفريقيا عروبتة واسلامه بتأزرها مع المغاربة في كفاحهم طوال القرون الثلاثة التالية .

ومن النتائج الخطيرة أن الدولة العثمانية لم تشرك العرب في الجندية وأعفت المواطنين من التجنيد فأضعفت فيهم الروح الحربية القتالية وكانت تتعقب من يحمل السلاح منهم وظلت في حرب دائمة مثلاً مع النعمانيين لأنهم أبوا أن يسلموا سلاحهم ، واعتبرت الدولة العثمانية أن مسألة الجندية خاصة بالانكشارية فقط لأنها حكمت تلك البلاد بنظرية مستوحاة من بثيتها الرعوية الأولى في أواسط آسيا والتي تكون العناصر فيها ثلاثة :



الراعى ، والرعية ، وكلب الحراسة ، فطبق العثمانيون هذه النظرية على الشعوب التى دانت لهم فالراعى هو السلطان العثمانى والرعية هم الشعب وكلب الحراسة هم الانكشارية من الأتراك وحدهم ولا شأن للشعب بقضية الدفاع عن نفسه فهى من شئون كلب الحراسة ونتج عن هذا استرخاء فى عضلات العرب ونسيان للجندية واضعاف للروح القتالية ونسيان لمسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية من ٣٠٠ سنة فى بعض المناطق الى ٤٠٠ سنة فى مناطق أخرى ، وعندما واجه العرب الغرب المسيحي بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها فى النهاية كان من أهم المشاكل العويصة ( وما زالت ) هى مسألة اعادة الروح العسكرية واعادة التسليح واعادة تنظيم الجيوش وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح اسلامية وأيد اسلامية دون اعتماد على الغرب المسيحي وهيئات أن يخلص لهم فى هذا المجال •

ولعل أخطر النتائج قاطبة هو أن الحضارة الاسلامية والثقافة العربية تأخرت عن غيرها من الحضارات والثقافات الأوروبية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان التقدم الذى أحرزه العالم الاسلامى باللغة العربية ولم يكن فى مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الاسلامى والعلوم الاسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطاً طويلة باللغة العربية وكان قد تضخم بحيث يصعب نقله الى اللغة التركية التى لم تكن مهياة لذلك ولم يكن الأتراك أيضاً كشعب عسكرى مهياً لهذا العمل ، ولقد منعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة الحضارة الاسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتعرفوا على التراث الاسلامى ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية وظلوا أمة عسكرية فحسب وحالت طبيعتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الاسلامية دفعات الى الأمام ووقع عبثهم العسكرى على الشرق العربى فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنهم حو-

فى فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحى الا أنهم أضروه ضررا بليغا ربما من غير قصد فقد أضروه فى مضمار الحضارة وأنسووه كثيرا من فنون التقدم الحضارية والعسكرية فى فترة عصر النهضة الأوروبية ، فبينما كان الغرب الأوروبى يتقدم كان الشرق الاسلامى والعربى قد توقف والحكمة الحضارية تقول : « ان من لم يتقدم يتأخر » •

ولم تزل الدولة العثمانية أن ضعفت بعد أن اتسعت اتساعا مهولا ولم تستطع معه أن تجدد نظمها وادارتها ولما كانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت الدولة نتيجة للضربات التى سددها الغرب المسيحى اليها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد أن تغلغل فيها الامتيازات الأوروبية التى شجعت الغزو الفكرى الذى ساعد فى تمزيق الأفكار والأوطان • وسوف نتناوله فيما بعد فى فصل خاص به ، وأصبحت بلادان الخلافة العثمانية فى يد الاحتكارات الأوروبية الرأسمالية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلقوا عليها تركية الرجل المريض وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ولها امتد الاصلاح فى المقام الأول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث ( ١٢٠٤ - ١٢٢٢ هـ ) وأيام محمود الثانى ( ١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظرا لأن هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التى تنادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح أى بالبناء على قواعد الماضى التى أسسها الجدود ، وبدلا

من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت إليها  
لتضربها كما سنرى فيما بعد •

#### اقتسام تركة الرجل المريض :

كان الاستعمار يتربص الدولة العثمانية وكان يتعجل في القرن التاسع عشر اقتسام أراضيها ، فتمكن من اقتطاع كثير منها في ذلك القرن ، فاحتلت فرنسا ( الجزائر ) في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م كما احتلت بريطانيا ( عدن ) في ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م واحتلت فرنسا ( تونس ) في سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م ، وغزت بريطانيا « مصر » سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م وضربت ثورتها التي قادها أحمد عرابي ونفته مع لقيف من رجال ثورته الى سيلان ، وأعلنت النمسا ضمها لاقليمي البوسنة والهرسك الى دولتها في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م وفي نفس السنة أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بمعونة الدول الغربية •

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م فدخلتها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا والنمسا والمجر وهي ما كانت تسمى دول الوسط أو المحور ضد دول الوفاق أو الحلفاء وهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، وذلك لما كانت تراه تركيا في الجانب الثاني من مطامع ودسائس ضدها ودارت الدائرة عليها وعلى دول المحور واحتل الحلفاء عاصمتها كما احتلت بريطانيا وفرنسا بعض المناطق في الأناضول والحجاز وبلاد الشام والعراق ، وكان العرب قد دخلوا الحرب باغراء الانجليز لهم بالاستقلال تحت زعامة الشريف حسين فقد أعطوه وعدا مزيفا بالاستقلال فحارب الدولة العثمانية في الحجاز والشام معهم •

وفي غضون ذلك اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا في معاهدة سرية على اقتسام أملاك الرجل المريض في آسيا فكان نصيب روسيا أن تفوز بالمضائق البسفور والدردنك وما حولهما ، ونصيب فرنسا سوريا ولبنان ، وبريطانيا العراق وشرق الأردن وفلسطين وهذه المعاهدة

هى المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦ وفى سنة ١٩١٧ أعطت بريطانيا وعدا لليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين • ونفذه اليهود بمعونة الغرب ، حيث تلاقت المخاوف الأوروبية مع الأحلام الصهيونية كما سنذكر فيما بعد •

وهكذا لم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية ، وبقي أن يقضى على نظام الخلافة الاسلامى ، فاصطنع الاستعمار بعد الحرب مصطفى كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيسى فى إلغاء الخلافة ١٩٢٤ م ( ١٢٤٣ هـ ) فأعلن ( إلغاء الخلافة ) فى سنة ١٩٢٤ وأعلن الجمهورية ، ونقل عاصمة الدولة الجديدة الى « أنقرة » وأفقدتها المقر التاريخى فى اسلامبول ، وأجرى كثيرا من التغييرات فى تركيا أبعدتها عن الاسلام وأعلن النظام العلمانى للدولة ، ( ألغى الأوقاف الاسلامية ) والتعليم الدينى ، وألغى عطلة الجمعة وجعلها يوم الأحد كما يفعل النصارى ، وألغى التاريخ الهجرى وأحل محله تاريخ ميلاد المسيح ، وفى هذه الاجراءات معنى قطع صلة الاسلام والعروبة بتركيا الجديدة ، وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وإلغاء كثير من الألفاظ العربية منها والتي كانت يومئذ تكون نحو نصفها وأحل محلها ألفاظا أوروبية ، وغير ذلك من الاجراءات التى قربت تركيا من أوروبا وأبعدتها عن الاسلام والعرب بغية تنهدينها كما ادعى مصطفى كمال الذى أغدق عليه الغرب لقب أبو الأتراك « أتاتوك » •

وكان المبدأ الرئيسى فى حركة مصطفى كمال هو العلمانية وقيل فهم هذه الكلمة ( أى العلمانية ) فلا يمكن فهم تركيا الحديثة ، ان العلمانية فى الغرب معناها فصل الكنيسة عن سلطة الدولة ، ولكن العلمانية فى بلد مسلم تحمل مفهوما أكثر حدة وخطورة ذلك لأن الاسلام ممتزج بالدولة بشكل قوى ، فالشريعة تحكم حياة الأفراد فى كل نواحيها ، ولم يستطع

أى بلد إسلامي اختيار طريق العلمانية سوى تركيا ، ولذلك فإن تركيا أحدثت بموقفها هذا هزة فى العالم الإسلامى<sup>(٤)</sup> .

والواقع أن هذا الإصلاح الذى أجراه مصطفى كمال لم يكن هو الإصلاح الأمثل الذى يؤدى الى تقدم المجتمع ، فاللورخ الانجليزى « آرنولد توينبى » يرى أن هناك نوعان من السلوك تسلكهما الأمة عندما تغلب أمام أمة أخرى ، أو عندما تقع فى وضع خطر يهدد كيانها :

١ - أما أن تتوقع على نفسها .. وهنا يعطى مثالا لذلك من الحركة السنوسية فى شمال افريقيا والحركة الوهابية فى الجزيرة العربية .

٢ - وأما أن تقلد الأمة الغالبة .. وهنا يعطى مثالا لذلك من حركة محمد على فى مصر وحركة مصطفى كمال فى تركيا ومع أن توينبى يفضل السلوك الثانى على الأول الا أنه لا يوافق عليه أيضا ، بل يعتبره سلوكا خطرا ، ويقول بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف ذلك لأن التيار سيجرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد .

ثم يضيف قائلاً بأن السلوك الثانى يحمل فى طياته خاصتين سيئتين :

الأولى : ان هذا السلوك يخلو من الابداع لأنه مجرد تقليد أعمى ، وهو لا يضيف شيئا جديدا .

الثانية : أنه يبقى منحصرا فى طبقة معينة أى أن محاولة التقليد هذه تبقى منحصرة فى فئة صغيرة من مدعى الثقافة ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ولا تنزل الى صفوف الشعب .

والذى يتمتع فى حركة مصطفى كمال يرى العجب فى المدى الذى وصل

(٤) ضابط تركى لم يعلن عن اسمه ، الرجل الصنم ، ص ٥٤١ نقلا عن كتاب : « الأتراك » لديفيد هونمان ، ص ٣٤ - ٤٥ .

اليه فى تقليد الغرب ، حيث نراه يغير الأحرف التركية الى الأحرف اللاتينية ، وغير القيافة الى القيافة الغربية ، وغير حتى الأعداد الدينية ، وجعل يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدلا من يوم الجمعة ومنع الحج الى مكة ، لدرجة أنه منع اذاعة الموسيقى التركية والأغاني التركية والموسيقى الشرقية من الاذاعة ، وصدرت أوامره بأن تذاع الموسيقى الغربية فقط .

وبعد سنوات من هذا المنع أصدر أمره باذاعة الموسيقى والأغاني التركية من الاذاعة . . . وصدر أمره هذا فى جلسة شراب ! . اذ كان يوما فى مجلس شراب فى فندق « بارك » فحن لسماع الأغاني التركية القديمة فاستدعى المطرب التركى المعروف « نور الدين سلجوق » حيث طرب من أغانيه غاية الطرب ، ويقال انه مكى ، ومن جلسة الشراب هذا أصدر أمره باذاعة الأغاني التركية لأنه دفعه اليها حنين الذكريات (٥) .

ولعل هذه الحادثة تعطينا فكرة عن أنه كان مدفوعا فى تغييراته بدافع غير ذاتى وعندما أتت له فرصة التحرر من القيود الذاتية عبر عما فى داخله عندما طلب سماع الموسيقى التركية فى نوبة شراب وبكى عند سماعها ، ولعل هذه الحادثة أيضا تمثل الشعب التركى وأن ما أصابه عارض وعندما يتحرر من قيوده فإنه يعود الى أصله .

#### تركيا المعاصرة :

ظلت تركيا بعد مصطفى كمال دولة متخلفة فقيرة وظل العداء الأوروبى كامنا ضدها ، ولم يحمها من تعصب الغرب المسيحى ضدها انضمامها الى حلف شمال الأطلسى فظل الأوروبيون حتى الآن ينظرون اليها على أنها دولة اسلامية وينحازون ضدها فى صراعها مع اليونان فى قضايا الحدود فى بحر ايجه وبشأن قضية الاقلية المسلمة التركية فى قبرص .

(٥) المرجع السابق ص ٩ - ١٠ .

والجيش التركى يتخس على تركيا بيد من حديد ويسيطر عليه  
تنظيم سرى موال للغرب والماسونية العالمية حتى اذا فكر الشعب يوما فى  
صحوة اسلامية ترى الجيش يقوم بانقلاب عسكرى يسيطر به على  
الأوضاع ويعيدها الى الخط العلمانى الموالى للغرب ، ويهلك الغرب لذلك  
مثلما حدث فى سبتمبر ١٩٨٠ ضد اليقظة الاسلامية التى تتطور يوما بعد  
يوم فى البلاد •

ف عندما قامت هذه اليقظة منذ مدة رأى الغرب فيها خطرا وعودة الى  
القرون الوسطى فعملت أمريكا على احتوائها وقمعها بانقلاب يقوم به  
عمالؤها فى الجيش •

وحين وقع انقلاب عسكرى مماثل فى بولندا وأعلن العسكريون  
الأحكام العرفية ثار الغرب ورأى أن هذا اعتداء خطير على حقوق الانسان  
البولندى طبعاً لأن الانقلاب العسكرى الأول للحساب أمريكا والانقلاب  
العسكرى الثانى لحساب روسيا • على الرغم من وحشية الانقلاب التركى  
الذى وضع كل أحزاب المعارضة فى السجن وأعلنوا الأحكام العرفية ،  
وعلى الرغم من ذلك تنفس الغرب الصعداء ورحب بالانقلاب بمقولة أنه  
أنقذ تركيا من الفوضى ويقصدون بذلك التحول الى الاسلام •

أى ما يعد نهضة فى أوروبا ( على الرغم من صلتته فى بولندا  
بالكنيسة ) فهو فى نفس الوقت همجية فى تركيا والبلاد الاسلامية ويجب  
ضربه بقوة العسكر ، بينما تتكاتف دول الغرب لتحرس وتحمى يقظة  
الشعب البولندى •

وكأنى بالذين نامروا على الدولة العثمانية أرادوا أن يستمر  
تآمرهم ، فبعد موت مصطفى كمال أصدر هؤلاء قانونا لحماية تاريخ  
مصطفى كمال من أى انتقاد ، ولا يزال هذا القانون ساريا حتى اليوم ،  
انه قانون غريب فى بلد يدعى أنه يسير على النهج الديمقراطى قانون

يكمم الأفواه لم يسبق له مثيل حتى في الدول الديكتاتورية العاتية مثل روسيا الشيوعية فإن الذين أتوا بعد ستالين كشفوا حقيقته .

والذي يحدث في تركيا بعد مصطفى كمال دليل الخوف من انكشاف حقائق خطيرة ، كما أنه دليل العجز على مقاومة هذه الحقائق التي يخشى أن تتكشف .

والمفكر في تركيا الحديثة يستطيع أن يطعن في الرسل والأنبياء ، والناس أجمعين وبجميع الكتب السماوية وغير السماوية حتى في ذات الله جل في علاه ، وبكل شيء ولكنه لا يستطيع أن يقول حرفا واحدا ضد مصطفى كمال .

لقد جعلوا منه صنما في حياته وبعد مماته وهم يحاولون أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق (٦) .

#### زوال الخلافة الاسلامية من العالم الاسلامي :

في أوائل مارس ١٩٢٤ م ( ١٣٤٢ هـ ) ألغى مصطفى كمال الخلافة من تركيا ، وألجأ آخر خليفة كان موجودا يومئذ وهو السلطان عبد المجيد الثاني الى حياة النفي الاجباري خارج تركيا لا يملك شيئا وأخذ ينتقل من سويسرا الى فرنسا .

لكن الخلافة الاسلامية لم تكن تخص تركيا وحدها بل تهمة العالم الاسلامي كله ، فقد كانت جزءا من عظمة المسلمين ومحورا لتاريخهم ورمزا لوجودهم ووحدتهم وهي رئاسة وقيادة دينية للشعوب الاسلامية في مختلف الأنحاء ، وقد استمرت الخلافة أكثر من ألف وثلاثمائة عام منذ أن اجتمع المسلمون وانتخبوا أبا بكر الصديق خليفة لرسول الله

(٦) الرجل الصنم ، ص ٧ - ٨ .



وتعاقب الخلفاء طوال العصور في دول عديدة حتى القرن العشرين  
( ١٤ هـ ) •

وكان لنبا الغاء الخلافة وقع أليم في جميع البلاد الاسلامية وخاصة  
في مصر اذ أنها مقر الأزهر الشريف والمعاهد الدينية الاسلامية والحفيظة  
على التراث والعلوم الاسلامية ، ولقد أثارت تلك المحنة لوعة الشعر  
والأدب فنظم أمير الشعراء شوقي مرثيته الشهيرة التي تعتبر بحق من  
أبلغ ما قيل يومئذ تأثيرا في النفس يقول في مطلعها :

ضجت عليك مآن ومنابر      وبكت عليك ممالك ونواح  
الهند وآلهة ومصر حزينة      تبكي عليك بمدمع سحاح  
الشام تسأل والعراق وفارس      أمحا من الأرض الخلافة ماح

ولقد كان عزيزا على المسلمين أن تختفى الخلافة من حياتهم بين  
عشية وضحاها ، وتسائل المسلمون بأنه اذا كانت الخلافة قد انتهت من  
تركيا فلماذا لا تعود الى البلاد العربية وخاصة أن الخلافة كانت عربية  
في أصلها وظلت كذلك قرونا عديدة قبل أن تنتقل الى الأتراك عندهم  
ضعف العرب ، لهذا فكر كثير من الناس ولا سيما علماء المسلمين في  
اعادة الخلافة الى حياة المسلمين وتجديدها وبدء عهد جديد في حياتها •

وقد ترعّم الأزهر في مصر طليعة هذه الدعوة وبدأ نشاطا قويا في  
أوساط مصر السياسية والدينية يهدف الى بحث مسألة الخلافة واتخاذ  
قرار بشأنها وفي تلك الأثناء انتهى الرأي في مصر الى ضرورة عقد مؤتمر  
اسلامى دولى يحضره ممثلون عن الدول الاسلامية ويكون مقره القاهرة  
تحت رعاية واشراف الأزهر ويتناول هذا المؤتمر مسألة الخلافة بالبحث  
لكى يصل الى قرار بشأنها يكون محل اتفاق المسلمين لأن الخلافة لا تخص  
مصر وحدها بل تهتم العالم الاسلامى كله ، وفضلت مصر أن تتبع الطرق  
القانونية في هذا الأمر الخطير •

وفى يوم ٢٥ من مارس سنة ١٩٢٤ عقد علماء الأزهر اجتماعا تحت  
رئاسة الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر وتداولوا فى الأمر ثم أصدروا بيانا  
جاء فيه ما يلى :

« كثر تحدث الناس فى أمر الخلافة بعد خروج عبد المجيد الثانى  
من الاستانة ، واهتم المسلمون بالبحث فيما يجب عليهم عمله قياما  
بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف » ثم بينوا ضرورة القسوى التى  
تستلزم وجود خليفة وامام للمسلمين كافة وانتهوا أخيرا الى القرار  
التالى :

« لهذه الأسباب نرى أنه لابد من عقد مؤتمر دينى اسلامى يدعى  
اليه ممثلوا جميع الأمم الاسلامية للبحث فيما يجب أن تسند اليه الخلافة  
الاسلامية ويكون المؤتمر بمدينة القاهرة تحت رئاسة شيخ الاسلام بالديار  
المصرية ( وهو شيخ الأزهر فى مصر ) وأن يكون عقد المؤتمر فى شهر  
شعبان سنة ١٣٤٣ هـ ( مارس ١٩٢٥ )<sup>(٧)</sup> وفى تلك الأثناء فوجئ الناس  
بالشريف حسين بن على ملك الحجاز يومئذ باعلان نفسه خليفة على  
المسلمين دون تشاور معهم أو بيعه منهم ورفض كثير من المسلمين  
الاعتراف له بالخلافة •

ومما هو جدير بالذكر أن الملك عبد العزيز بن سعود بدأ الزحف  
على الحجاز سنة ١٩٢٥ وأخرج على بن الحسين من جدة فى ديسمبر  
سنة ١٩٢٥ وأعلن عبد العزيز ضم الحجاز الى مملكته فى يناير ١٩٢٦ ثم  
أعلن نفسه ملكا على نجد والحجاز سنة ١٩٢٧ •

ونشطت الجهود استعدادا لعقد هذا المؤتمر فى داخل مصر وخارجها

---

(٧) انظر : قرار الهيئة العلمية ، الدينية الاسلامية الكبرى بالديار  
المصرية فى شأن الخلافة ، سنة ١٣٤٢ هـ محفظة رقم ٢ من محافظ الخلافة :  
دار الوثائق بالقاهرة •

وبدأ ملك مصر يومئذ وهو الملك فؤاد حفيد محمد على يعد نفسه لتولى هذا المنصب منافسا بذلك الشريف حسين بن علي •

ووسط هذه الظروف السياسية الصعبة التي تتعلق بمصير الخلافة الإسلامية صدر كتاب في مصر بعنوان « الإسلام وأصول الحكم » في أبريل سنة ١٩٢٥ يبحث في الخلافة والحكومة في الإسلام مؤلفه قاضي شرعي في مصر وعالم من علماء الأزهر هو الشيخ « علي عبد الرازق » حاول فيه مؤلفه أن يثبت أن الخلافة ليست من الإسلام وذلك لأن الإسلام دين والدين ضد الدنيا ، فلا علاقة للإسلام بشئون الدنيا ومنها الخلافة ، وأن الإسلام لا صلة بالحكم ولا بالمجتمع ولا بالدنيا ، وأنه يجب إذن انتهاء الخلافة من حياة المسلمين ، وأن الخلافة الإسلامية التي قامت في التاريخ لم تكن إذن إسلامية بل ملكا دنيويا وأن أبا بكر كان أول ملك في الإسلام ، وأن الإسلام في حقيقته ليس فيه ( جهاد ) ، وأن جهاد النبي لم يكن من صميم الرسالة ولا جزءا منها لأن الجهاد — كما يزعم — مؤلف هذا الكتاب إنما يكون في سبيل الملك وتوسيع السلطان •

إلى غير ذلك من الآراء الشاذة التي تخالف ما يعتقد المسلمون وما اجتمع عليه علماءهم والتي أحدثت دويما في أوساط المسلمين • ولا يمكن إلا أن تكون آراء لمستشرق استعماري صهيوني عدو للإسلام والمسلمين ولا يريد لهم القوة •

والذي لا مراء فيه هو أن آراء الشيخ علي عبد الرازق التي طرحها في كتابه كانت ( تطابق تماما أهداف الانجليز ) والسياسة الاستعمارية في العالم الإسلامي ، فالانجليز كانوا يريدون هدم الخلافة والقضاء عن كل فكرة من أجل التجمع من جديد حول الوحدة الإسلامية وهذا هو الغرض الأساسي من الكتاب كله (٨) •

(٨) انظر : د. ضياء الرئيس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ص ١٨٣ •

وأعداء الاسلام يعمدون دائما الى تشويه تاريخ الاسلام والظعن  
فى شخصياته وهذا هو الذى قرره وأكدّه الشيخ عبد الرازق بعبارات  
حماسية عنيفة فى كتابه ، والمستعمرون عامة يعملون على ابعاد الاسلام  
عن السياسة وفصله عن الدولة وتجريده من القوة وواجب الجهاد والحرب  
وحق الدفاع عن نفسه ، ليسهل على المستعمر الاعتداء على المسلمين  
واستعبادهم واحتلال بلادهم واغتصاب أراضيهم وثرواتهم ، فلا يكون  
للمسلمين جهاد ولا دفاع ضدهم ولا تدخل فى السياسة لأن هذه الأمور  
كلها من شؤون الدنيا •

وهذه الآراء التى هى فى مجملها آراء المستشرقين انبرى للدفاع  
عنها الحزب الموالى للانجليز فى مصر والى ينتمى اليه الشيخ على  
عبد الرازق وأسرته وهو ( حزب الأحرار الدستوريين ) الذى انبثق من  
حزب الأمة ربيب الاستعمار الانجليزى فى مصر ، واذا كان حزب الأمة  
المنحل قد نشأ بايحاء ورعاية « اللورد كرومر » المندوب السامى فى مصر ،  
فان حزب الأحرار الدستوريين نشأ كذلك بتأييد الانجليز ورعاية « اللورد  
اللتبى » ممثل الاستعمار البريطانى فى مصر والشرق ، وكان هذا الحزب  
الأخير الذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته يقوم على أساس  
مبدأ التعاون مع الانجليز وصدافتهم ومسايرة سياستهم ، ولا شك أن  
هذا الكتاب وضع بالتعاون مع المخابرات البريطانية •

وقامت ثورة فى « الصحافة المصرية » ، بين مؤيد ومعارض ،  
فالصحف التى كانت تعيش فى ظل الاحتلال البريطانى أيدت الفكرة  
وأصبغت على الشيخ ألقابا كثيرة لا يستحقها من بينها : « العلامة الكبير »  
و « الأستاذ المحقق » و « المصلح المجدد » بينما رمته الصحف الوطنية  
بالطيش فى رأى والاحاد فى العقيدة وتعرض لهجوم شديد من كثير  
من المفكرين الوطنيين ورماء كثير منهم بالخيانة •

وكان من نتيجة نشر هذا الكتاب أن قامت بعض ( المظاهرات ) فى  
مصر من الأزهر تعلن الاحتجاج ورفعت عرائض وقع عليها عدد كبير

من العلماء الى شيخ الأزهر وبعض الجهات الرسمية طالبوا فيها أن ينهض الأزهر بواجبه في الدفاع عن الاسلام والرد على هذه الدعوات الالحادية الهدامة التي تعد خروجاً على أحكام الدين وتحريفاً لحقيقة الاسلام وطعناً في تاريخه •

وكانت النتيجة أن صدر ( قرار من الأزهر ) بتقديم مؤلف الكتاب الشيخ « على عبد الرازق » الى محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء •

وكان لهذه المحاكمة دويلاً لأن التهمة فيها تتعلق بمسألة دينية وسياسية في نفس الوقت ، وصدر الحكم فيها باخراج الشيخ على عبد الرازق من زمرة العلماء •

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فإن الكتاب قد ساهم في نسف فكرة عودة نظام الخلافة لجمع شمل المسلمين ، أما عن المؤتمر الذي دعا اليه الأزهر لبحث مسألة الخلافة فقد انعقد في القاهرة في مايو ١٩٢٦ م وذلك بعد أن تأخر عاما عن الموعد الذي حدد لانعقاده في مارس ١٩٢٥ م وظهر في أول جلساته أنه مختلف الاتجاهات وبدى أنه من المتعذر الوصول الى اتفاق ، عند ذلك رأى القائمون عليه أن أسلم طريقة لحفظ كلمة المسلمين من التفرق وابقاء على الخلافة وحماية لها هو أن يسرعوا لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارات معينة من شأنها أن تزيد النفرة بين المسلمين •

ويلاحظ أن علماء الأزهر اكتشفوا في مؤتمر القاهرة مدى اتساع الهوة بين الشعوب الاسلامية وازدياد الفرقة التي عمل الاستعمار على تعميقها وأن هناك حواجز تحتاج الى وقت طويل تصلح فيه النفوس التي أفسدها الاستعمار ، واحتاج المسلمون نحو نصف قرن بعد ذلك لكي يجتمعوا بزعامة قادتهم ورؤسائهم في اجتماع القمة بالمغرب سنة ١٩٦٩ م عقب حريق المسجد الأقصى بفلسطين ، وكان هذا الاجتماع على الرغم من سلبياته الا أنه كان أشبه بالمعجزة •

ولعل سبب فشل مؤتمر القاهرة يرجع الى عوامل خارجية وداخلية ،  
أما العوامل الخارجية : فكانت تتلخص فى خطورة المسألة الموضوعة  
على بساط البحث وعدم امكان الاتفاق بين زعماء المسلمين على من يولونه  
خليفة وفى أى قطر تكون الخلافة فكان هناك تنافس شخصى وسياسى  
بين الملوك والرؤساء أركاء الانجليز ، وعدم وجود من يصلح لهذا المنصب  
الجليل وكان لدسائس الاستعمار ومساعى بريطانيا بأذات كبير الأثر فى  
ايجاد التفرقة وعرقلة الجهود الرامية الى اقامة الخلافة من جديد ، كما  
كان لاعلان الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين وعدم  
اشتراكه فى المؤتمر من العوامل المؤثرة والمؤدية الى فشل المؤتمر ، كما  
أبرق أحد زعماء المسلمين الهنود الخاضعين للانجليز الى المؤتمر بأنه  
لا يزال على مبايعته لعبد المجيد الثانى العثمانى المعزول ، وأنه لا يزال  
يعدّه خليفة المسلمين كما بعث كثير من المسلمين يسألونه ويشككون فى  
مقاصد المؤتمر ويقولون : هل المراد من المؤتمر حفظ الخلافة قياما  
بالواجبات الدينية أم أن المقصود فقط هو نقل الخلافة من شاطئ  
البحر الى شاطئ النيل .

وأما العوامل الداخلية : الخاصة بمصر فهى أن الملك فؤاد الذى يبدو  
أنه أعد نفسه لهذا المنصب كان لا يظهر أنه الرجل الذى تتوفر فيه شروط  
الخلافة اذ أن لها شروطا عالية ، من حيث العلم والتقوى فضلا عن أنه  
ليس من أصل عربى وتربى فى أوروبا وكان مفتونا بها ، وأكثر من ذلك أنه  
لم يكن محبوبا من شعبه فى الداخل ، فلم يتجاوب مع أمانى الشعب  
الوطنية فى الحرية وكان يريد أن يجمع ارادته وينفرد بالحكم ، وكان  
يناصب زعيم الشعب المصرى سعد زغلول العداء وتأمر عليه لإخراجه من  
الحكم فلم يكن أحد من الشعب المصرى يرحب أن يرتفع هذا الملك الى  
مقام الخلافة السامى لكى يزداد نفوذه فى البلاد ويزداد استبداده اللهم  
الا اذا تحققت شروط معينة لتقييد سلطته من أجل منع هذه المخاطر ، كما

رأى علماء الأزره الذين تحمسوا لفكرة الخلافة وضرورة عودتها للبهيمنة على حياة المسلمين من جديد<sup>(٩)</sup> .

وكانت هذه الظروف الخارجية والداخلية السالفة أقوى من تحمس علماء الأزره لفكرة عودة الخلافة ففشل المؤتمر وفشلت جهودهم لاعادة وحدة المسلمين وقتل الموضوع في مهده ، وانفض المجتمعون وعاد كل الى وطنه وبقي العالم الاسلامي حتى وقتنا هذا بدون خليفة ، ويبعدو من واقع المسلمين الحالي أنه ليست هناك أية محاولات لعودة الخلافة من جديد وذلك بفعل ألعيب الاستعمار وتفريقه للمسلمين .

وبعد أن انطقت فكرة اعادة الخلافة للعالم الاسلامي تمكن الاستعمار من ترويح فكرة القوميات لتمزيق العالم الاسلامي الى عصبيات جنسية متعدية ومتنافسة ومتحاربة أحيانا ، وتفريق كلمتهم كما هو واقع المسلمين اليوم .

كما قامت الدول الاستعمارية بحركة نشطة في ميدان الغزو انفكري والثقافي عن طريق حكم الوصاية والانتداب والاستعمار واعداد قيادات عميلة داخل الأوطان العربية والاسلامية تؤمن بالحضارة الغربية وقوانين الغرب بديلا عن الحضارة الاسلامية والشريعة الاسلامية .

---

(٩) د. ضياء الرئيس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .  
( م ٨ — العالم الاسلامي )





## الفصل الخامس

### الغزو الفكرى فى العالم الاسلامى

« ان السيطرة على أى منطقة من العالم  
لا تتم الا من خلال وقف مفعول  
المضارة الداخلية لهذه المنطقة » ..

هنرى لامانس اليسوعى الفرنسى

١٨٧٢ — ١٩٣٧ م



## الغزو الفكرى فى العالم الاسلامى

بعد أن فشل الغزو المادى للمسلمين من ادراك غاياته وهى السيطرة على العالم الاسلامى ، تفتتق ذهن أعداء الاسلام عن خطة جديدة تقوم على غزو عن نوع جديد يؤدى نفس الغرض وهو السيطرة على المسلمين وهذه الخطة الجديدة هى غزو أفكار المسلمين وتقوم على مرحلتين :

الأولى : هدم الاسلام فى عقائده ونظامه وشرائعه وثقافته ولغته وتقاليده ووحدة أمته انطلاقا من قول المستشرق الفرنسى هنرى لامانس ( ١٨٧٢ — ١٩٣٧ ) •

« ان السيطرة على أى منطقة من العالم لا تتم الا من خلال وقف مفعول الحضارة الداخلية لهذه القطعة » •

وفى المرحلة الثانية : بعد وقف مفعول الحضارة الداخلية اغراء المسلمين بتقليد الغرب المسيحى فى نظمهم وقوانينه الوضعية ولغته وثقافته وتمجيد القيم الغربية المسيحية وذلك على حساب تراث الأمة الاسلامية وتكون النهاية انصراف المسلمين عن التمسك بالاسلام •

لهذا تخلى الغرب المسيحى عن استعمار الاراضى واستعمر بدلها العقول والقلوب ما دام هذا يوصله الى هدفه وهو السيطرة على المسلمين • وهذا الأسلوب الجديد أخطر ألف مرة من أساليب الاستعمار السابقة العسكرية والسياسية لأنه يسرى فى جسم العالم الاسلامى سريان السم ويقدم اليهم فى أطباق شهية خداعة وهم لا يدرون أن السم فى العسل : لقد قاد هذه الهجمة اليهود والمستشرقون والصليبية النعانية والمبشرون والشيوعيون والمؤازرون لهؤلاء جميعا فى داخل البلاد الاسلامية •

ولكن كيف بدأت هذه الخطة الماكرة ؟ بدأت بعد فشل الحروب الصليبية التي كانت صراعا سافرا بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى دام نحو قرنين من الزمان فقد بدأت هـ الحروب عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦م) بالحملة الصليبية الاولى ثم انتهت بسقوط عكا فى يد المسلمين بقيادة السلطان المصرى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١م) وحفلت هذه الفترة الزمنية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء .

وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة من الحروب الصليبية بالنسبة للصليبيين فى وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧ هـ ( ١٢٤٩ م ) والتي أتاحت له معاناته فى سجنه بالمنصورة فرصة هادئة ليفكر بعمق فى السياسة التى يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك اذا ما فكر فى غزو الشرق الاسلامى .

وكانت بنود هذه الوصية هى تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديدة هو اثاره الخلافات بين الأوساط الاسلامية واثارة التفكك فى وحدة المسلمين ، والعمل على بقاء هذه الخلافات مستمرة بين الأمراء المسلمين والامعان فى تأييد بعضهم ضد البعض وتأمين هذا التأييد اذا دعت الحال بمهادنات ومحالفات يمكن نقضها عند الاقتضاء واستغلال ما يكون بين العرب وأمراء المسلمين من منافسات وخلافات استغلالا يمكن العرب من التمتع بامتيازات سياسية واقتصادية وثقافية مما يهيىء السبيل الى تفتيت الكتلة الاسلامية .

ومن ناحية أخرى فقد لمس الغرب المسيحى تقدم الشرق الاسلامى حضاريا عنه فبدأ يتعلم علوم المسلمين لى يهزمهم بأسلحتهم وأيضا ليشوه عقائد المسلمين وتاريخ الاسلام .

يقول المفكر الهندي وحيد الدين فى هذا الصدد :

« وبعد الفشل الذريع ( أى فى الحروب الصليبية ) قررت أوروبا تغيير سياستها ، وأخذت تستعد لحملة جديدة على عالم الإسلام » .

« وكانت خلاصة التفكير الجديد أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها » .

« وسمى الأوروبيون الحرب الجديدة ، بالصليبية الروحية Spritual Crusade وكانت غاية الصليبية الروحية أن يتعلم الأوروبيون علوم المسلمين فيشوهوا العقائد الإسلامية وتاريخ الإسلام »<sup>(١)</sup> .

وبدأ الغرب جاهداً فى إقامة جسور من العلاقات السلمية التجارية والثقافية والدبلوماسية فى بداية نهضته لكى يتوغل ببطء فى قلب العالم الإسلامى وهذه العلاقات تمخضت عن اتفاقيات ومعاهدات تضمنت امتيازات للأجانب فى بلاد المسلمين توسعت فيها شيئاً فشيئاً حتى أضحت تشكل تدخلاً سافراً فى أوضاع الدول الإسلامية ، وأضحى بموجبها للأجانب دول داخل الدول ، وكانت بذلك الامتيازات الغربية إحدى الوسائل الفعالة التى سهلت مهمة الغزو الفكرى فى أرجاء العالم الإسلامى .

فما هى اذن قصة هذه ( الامتيازات الغربية ؟ )<sup>(٢)</sup> برزت الامتيازات الغربية فى البلاد الإسلامية بشكل واضح فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ( السادس عشر الميلادى ) وكانت علاقة الدولة العثمانية

---

(١) انظر : مقالاً لوحيد الدين خان بجريدة الأخبار القاهرية بعنوان : « الغرب .. حيث توقف المسلمون » ، عدد ١٨ من أكتوبر ( تشرين أول ) سنة ١٩٧٢ .

(٢) انظر تفصيلاً عن الامتيازات الأجنبية فى كتاب الدكتور عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ، ج ٢ ، الفصل ٢٤ ، الفصل ٢٥ .

وهي يومئذ دولة الاسلام الكبرى وتسيطر على منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا » كانت علاقتها بممالك أوروبا في البداية علاقة عداوية طابعها العام هو العنف والحروب المتصلة وظلت على هذه الوتيرة زمتا طويلا ، ولم يكن هناك مجال لاقامة جسور سلمية بين العثمانيين وممالك الغرب . وابتدأت المراسلات السلمية بين الدول الأوروبية في عصر السلطان سليمان المشرع ( ٩٢٦ — ٩٧٤ هـ ) ( ١٥٢٠ — ١٥٦٦ م ) أعظم سلاطين بنى عثمان على الاطلاق والذي كان معاصر للملك فرانسوا الأول ملك فرنسا . فان الظروف والملايسات السياسية حتمت مثل هذا التلاقي بين فرنسا والدولة العثمانية ، وذلك بسبب العداء الذي بين فرانسوا الأول وملك أسبانيا شارل الخامس أعظم ملوك أوروبا المسيحية في ذلك العصر وكان خصم الدولتين العثمانية والفرنسية في وقت واحد ، وكانت امبراطوريته تضم في وقت واحد أسبانيا وهولندا وألمانيا وجزءا كبيرا من ايطاليا ، وكانت أملاكه تحيط بفرنسا من جميع الجهات الا من جهة البحر ، وحاول فرانسوا الاتصال بالسلطان سليمان لاقامة نوع من العلاقات الدبلوماسية بين البلدين توصلنا للتحالف ضد أطماع شارل الخامس .

وكانت أمنية فرنسا منذ عهد لويس التاسع هي اقامة مثل هذه المعاهدات التي تمثل زحفا سلميا على الشرق ، وفي عهد فرانسوا الأول وجدت الظروف الملائمة لذلك ، والتي سبقت الاشارة اليها وتبودلت الرسائل الودية بين سليمان المشرع وفرانسوا على يد السفراء وخاصة من جانب فرنسا التي كانت في حاجة الى معاونة الدولة العثمانية ابان صراعها مع الامبراطور شارل الخامس .

وبعد أن فتح السلطان سليمان العراق ودخل العثمانيون تبريز للمرة الثانية ٩٤١ هـ ( ١٥٣٤ م ) أرسل فرانسوا سفيرا فرنسيا الى سليمان يهنئه بفتوحاته الجديدة وعلى يد هذا السفير ويدعى ( لافوري ) تم التوصل الى اتفاق في عام ٩٤٣ هـ ( ١٥٣٦ م ) يعتبر الأول من نوعه في

تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية وذلك لما اشتمل عليه من امتيازات عظيمة للرعايا الفرنسيين النازلين بالأراضي العثمانية .

وهذا الاتفاق يشتمل على ستة عشر بنداً ينص البند الأول منه على إقامة الوفاق والسلم الأكديين بين البلدين مدة حياة الملكين ( فرانسوا وسليمان ) وجواز سفر رعاياهما المدنيين والعسكريين للتجول في بلاد الطرف الآخر والإقامة فيها بقصد التجارة دون تعدد عليهم أو على متاجرهم ، ودون أن تجبى ضرائب على رعاياهما أكثر مما يدفعه المواطنون في كلا البلدين .

ونصت باقى المواد على إقامة تمثيل قنصلى في بلاد الدولة العثمانية ومنح قناصل الفرنسيين سلطات واسعة للحكم على الرعايا الفرنسيين في القضايا المدنية والجنائية دون تدخل من المحاكم الشرعية الاسلامية .

وبذلك كانت فرنسا أول دولة أوروبية ، حازت على امتيازات لرعاياها في الدولة العثمانية ، وقد حذت بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من دول أوروبا حذو فرنسا ، فحصلت على امتيازات مماثلة في الدولة العثمانية وولاياتها .

وقد فتحت هذه الامتيازات الباب على مصراعيه للغزو الفكرى في البلاد الاسلامية . ولكن كانت تلك الامتيازات حتى سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩م امتيازات مؤقتة يمنحها السلاطين وتنتهى بموتهم أو تركهم العرش لغيرهم ، كما كانت هذه الامتيازات لا تأثير لها في ظل قوة الدولة العثمانية وعظمتها ولكن عندما ضعفت الدولة ، بدأ الأجانب يتوسعون في هذه الامتيازات وأصبحت تشكل غزواً سلمياً وتدخلوا في بلاد المسلمين .

ففى سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠م حصلت فرنسا على معاهدة جديدة كانت أساساً جديداً للامتيازات فقد نصت صراحة على أن تبقى أحكامها سارية

المفعول غير محتاجة الى اجازة أى سلطان فى المستقبل كما هو الشأن من قبل ابرامها ، كما نصت على أن تكون هى صاحبة الدولة الاولى بالرعاية فى البلاد الاسلامية التابعة للدولة العثمانية ولا يفوق نفوذها أى دولة أخرى كما جمعت جميع الامتيازات السابقة ولخصتها فى معاهدة واحدة توسعت فى الحقوق التجارية والقضائية والثقافية فى بلاد الدولة العثمانية .

وبذلك أصبحت هناك قواعد للغزو الفكرى لفرنسا فى كثير من أجزاء الوطن العربى والاسلامى وحذت حذو فرنسا باقى الدول الغربية وأصبحت هذه القواعد تمهد الأرض الاسلامية للاستعمار وتهديه الى مفاتيح ثغورها وأبوابها وتكشف له عن طبيعة الميدان قبل أن يقتحمه غازيا ريستبيح حماء محتلا غاصبا .

وبذلك سبقت حملات الغزو العسكرى الاستعمارى الأخيرة بعنات استكشاف فكرى كانت أوكارها فى القنصليات تدرس طباع شعوبنا وعقلياتها وأمزجتها ، وحين كنا فى غفلة عن تراثنا كان جواسيس الغرب يجوسون خلال الديار ويبحثون عن ذخائر تراثنا ويعكفون على قراءته للكشف عن ملامح ذاتنا وسر وجودنا على مسار الزمن ، وكان هؤلاء يرسلون تقاريرهم تباعا الى حكوماتهم فيها أهم ما قاموا برصده فى البلاد الاسلامية .

#### دعاة الغزو الفكرى :

##### اولا : المستشرقون :

فى أعقاب الحروب الصليبية عاد الغرب الى أوروبا يحمل صورة مشرقة لمعاملات الاسلام وكثيرا من جوانب التقدم والسماحة ، فتيقظت الكنيسة الكاثوليكية لهذا الخطر الذى يهدد المسيحية فى عقر دارها ، فجندت جماعة من المفكرين فى طليعتهم رجال الدين المسيحى يدرسون



الاسلام بوحى من الكنيسة للانتقام من تعاليمه واهدار قيمه ، واتخذوا من وصية لوييس التاسع ملك فرنسا السالفة عاملاً مساعداً لهم على ضرب الاسلام والمسلمين .

وبذلك بدأت أولى أعمال المستشرقين لاطفاء هذا الضوء الذى لاح فى الغرب واخراس السنة المنصفين منهم وحاولوا جهمهم تناول المسلمين بالتشويه والتزييف والعمل على تعميق الكراهية والأحقاد فى نفوس الأوروبيين وتغذيتها بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الاسلام عن أوروبا والحيلولة دون نفاذه اليها<sup>(٢)</sup> .

وعندما بدأ الضعف يدب فى أرجاء العالم الاسلامى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ومطلع العاشر الهجرى فكر الغرب المسيحى فى الانتفاض عليه للقضاء على الاسلام الذى شبهته الكنيسة الكاثوليكية يومئذ بأنه طاعون وطالبت بضرورة بذل الجهود للحيلولة بين سكان بقية العالم وبين اصابتهم بالطاعون الاسلامى ، ومن ثم كانت هجمة البرتغاليين والاسبانيين فى هذه الفترة على أطراف العالم الاسلامى فى البحار الشرقية فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الاتصالات السلمية بقلب العالم الاسلامى والعمل على رصد كل صغيرة وكبيرة فى بلاد المسلمين وكشف موارد الثروة فيها واستغلال تلك الثروة ونقلها الى الغرب واستتيع هذا الاتصال السلمى نفوذ سياسى قوى للغرب المسيحى فى العالم الاسلامى .

وتسائل الغرب كيف يدوم له هذا النفوذ السياسى والاستغلال الاقتصادى والاسلام ما زال يدعو معتقيه الى الجهاد والثورة على الاستغلال والظلم ؟ من هنا بدأ الغرب يفكر فى وسيلة لاضعاف المسلمين وتقليل أظافرهم والعمل على تحطيم المقاومة الاسلامية وبدأت جهود

(٢) د : على جريشة ، اساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى ، ط١ : ص ٢١ - ٢٢ .

المستشرقين فى مجال تأويل الجهاد وصرف أنظار المسلمين الى الدعية والقعود عن الجهاد فى سبيل الله ومدافعة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر<sup>(٤)</sup> . ليسهل للاستعمار السيطرة عليهم لأطول مدة ممكنة .

وبدأ المستشرقون عملهم لحماية الاستعمار فى البلاد الاسلامية بتشويه مبادئ الاسلام وبعثهم لخلافات المسلمين الماضية وخلقتهم خلافات أخرى لا ياتفت اليها المسلم بعد ما صهر الاسلام علاقته بأخيه المسلم وكون منها وحدة قوية .

ولما كان الغرب قد تقدم علميا فى عصر النهضة فقد بدأ يستغل هذا التقدم فى المفاضلة بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى من تأخر الأول وتقدم الثانى ثم تركزت الأسباب أخيرا فى المقابلة بين الاسلام والمسيحية واعتبر الاسلام دين المتخلفين والمسيحية دين المتقدمين .

وخلاصة عمل المستشرقين فى البلاد الاسلامية تتلخص فى غرضين :

الأول : اضعاف القيم الاسلامية عن طريق شرح تعاليم الاسلام ومبادئه شرحا يهز القيم الاسلامية فى عقول المسلمين ويضعف تمسك المسلم بالاسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين<sup>(٥)</sup> .

ثانيا : بعد مرحلة التشويه تبدأ مرحلة تقديم البديل للمسلم على أيدي المنصرين الذين يسمون خديعة بالمبشرين لاغواء المسلمين وغيرهم باعتناق المسيحية .

(٤) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٥) محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٧ .

ولقد نجح المستشرقون الى حد كبير فى المجال الأول وفشلوا هم والمبشرون فى المجال الثانى وهذا باعترافهم هم •

فعندما اجتمع مؤتمر المبشرين فى جبل الزيتون بفلسطين عام ١٩٠٩ م وقف مقرر المؤتمر ليقول : « ان جهود التبشير الغربية فى خلال مائة عام قد فشلت فشلا ذريعا فى العالم الاسلامى لأنه لم ينتقل من الاسلام الى المسيحية الا واحدا من اثنين : اما قاصر خضع بوسائل الاغراء أو بالاكراه ، واما معدم تقطعت به أسباب الرزق فجاءنا مكره ليعيش » •

وهنا وقف القس زويمر ليقول : « كلا • هذا الكلام يدل على أن المبشرين لا يعرفون حقيقة مهمتهم فى العالم الاسلامى ، انه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الاسلام الى المسيحية ، كلا !

ان مهمتنا أن نخرجهم من الاسلام فحسب وأن نجعلهم ذلولين لتعاليمنا ونفوذنا وأفكارنا ، ولقد نجحنا فى هذا نجاحا كاملا ، فكل من تخرج من هذه المدارس لا مدارس الرساليات فحسب ولكن المدارس الحكومية والأهلية التى تتبع المناهج التى وضعتها بأيدينا وأيدى من ربينا هم من رجال التعليم ، كل من تخرج من هذه المدارس خرج من الاسلام بالفعل وان لم يخرج بالاسم وأصبح عوننا لنا فى سياستنا دون أن يشعر ، أو أصبح مأمونا علينا ولا خطر علينا منه • لقد نجحنا نجاحا منقطع النظير » (٦) •

وفى مؤتمر سابق للمبشرين فى القاهرة فى عام ١٩٠٦ قال زويمر سابق الذكر وكان رئيس المؤتمر :

« لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الاسلامى الذى اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا وبث فى مائتى مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده ، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية » •

(٦) سيد قطب ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ، ط ٢ ص ٦٦ — ٦٧ •

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح للمبشرين من بينها :

(أ) وجوب اقناع المسلمين أن النصراني ليسوا أعداءهم •

(ب) وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول منهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها<sup>(٧)</sup> •

ومن ثم فمن الواجب علينا أن نتتبع نشاط المستشرقين وأعاونهم في المجال الأول الخاص باضعاف عقيدة المسلم فإذا أمكننا ذلك استطعنا أن نتعرف على أقوالهم التي اختلطت بذكاء وخبث في ثقافتنا المعاصرة لكي نتمكن من غربة هذه الثقافة وتنقيتها من الدخيل الهدام ، أو بمعنى آخر تنقية غذاء العقل والروح من السم الذي دسه الحاقدون على المسلمين في غفلة منهم •

ومن هذا القبيل ما تناوله (أرنست رينان) المستشرق الفرنسي في تصويره (عقيدة التوحيد) في الاسلام بأنها عقيدة تؤدي الى حيرة المسلم كما تحط به كائنسان الى أسفل الدرك ، وهذا الكلام ظاهر البطلان لأن عقيدة التوحيد مزية الاسلام فصاحب هذه العقيدة لا يخضع في حياته لغير الله<sup>(٨)</sup> •

وقد ألقى رينان هذا محاضرة في جامعة السربون بباريس كان موضوعها (العلم والاسلام) كان مما جاء فيها : « ان انتاج الأمم غير العربية أكثر من انتاج الأمة العربية وأن التمدن أكثره من انتاج الفرس وغيرهم دون العرب ، ورغم أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر وأن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد وحرقت كتبه ، أو كان في حماية خليفة أو أمير من المؤمنين » •

(٧) على جريشة ، اساليب الفوزو الفكرى ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ ص ٣٣ - ٣٤ •  
(٨) د. محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٣٨ •

وقد نشرت هذه المصاضرة فى جريدة الديبا الفرنسية  
Journal des Debats ورد عليه جمال الدين الأفغانى وكان حينئذ  
فى باريس بمقال نشر فى جريد الديبا أيضا خلاصته<sup>(٩)</sup> :

« ان ما ذكره رينان عن الاسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه  
بل من عمل بعض من اعتنقوا الاسلام فى بعض العهود ، وأن الاضطهاد  
الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة  
الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن • وأما عن قوله أن الاسلام  
لا يشجع على العلم ، فان الكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال  
البداءة التى كان عليها قبل الاسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى  
ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية ،  
فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت  
لسيادته »<sup>(١٠)</sup> •

وكذلك ( فكرة العودة الى القرآن الكريم ) التى نادى بها ابن تيمية  
وتابعه فيها محمد بن عبد الوهاب وغيره من بعده من المصلحين حتى  
وقتنا هذا ، بعدما رأينا العصبية الجاهلية للمذاهب الكلامية • وبعد  
ما رأينا انقسام المسلمين الى طوائف انقسامها واضحا ، هذه الفكرة التى  
ترمى الى العودة الى صفاء التعاليم الاسلامية وبساطتها قبل تعقيدها  
بالشروح المفروضة أو القائمة على تعسف وعدم استقامة فى تخريجها ، وبهذا  
يمكن للجماعة الاسلامية أن تعود الى الوحدة ، أو على الأقل الى التماسك  
أو عدم التضارب فى الآراء والسياسة •

ولكن المستشرقين عندما وقفوا على هذه الفكرة ورأوا أثرها  
الايجابى فى حياة الجماعة الاسلامية لو سارت مستقبلا فى طريقها

(٩) ارنست رينان عاصر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

(١٠) محمد عبادة ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٢٠٨  
وعبد الرحمن الراغبى ، جمال الدين الأفغانى ، ص ١٢٢ — ١٢٣ •

الصحيح المرسوم لها ، فعند ذلك تصدوا لها وأمانوا بها عن هذا الطريق وشرحوها شرحا محرفا في زعمهم : بأن معنى العودة الى القرآن الكريم أو الى عصر الصحابة الأول ، رضوان الله عليهم هو الرجوع الى الحياة البدائية التي كانت للجماعة الاسلامية الأولى . وقد كانت جماعة بدائية ثم ينكرون على من يقوم بهذه الفكرة أنه يدعو الى الاصلاح والاصلاح في نظرهم هو التطور والأخذ بأساليب المدنية الحديثة والقوانين النوضعية المعاصرة وأسلوب الحكم الحديث . فاذا طلب انسان العودة الى العهد البدائي والأساليب البدائية باسم الاصلاح ، فهو اما مدع الاصلاح ، أو غير فاهم لمعنى الاصلاح .

وكان من نتيجة ذلك أن كثيرا من الحكام المستبدين في الشرق الاسلامي قاموا بضرب حركات الاصلاح ووصفوها بالخروج على الاسلام ، ومثل هذا حدث من السلطان العثماني محمود الثاني ( ١٢٢٣ — ١٢٥٥ هـ ) عندما عمل جاهدا على ضرب الدعوة السلفية في الجزيرة العربية التي نادى بها محمد بن عبد الوهاب ، والتي كانت قد حققت كثيرا من الذيوع والانتشار والانتصار في كثير من الميادين ، فأوكل السلطان العثماني ( لمحمد علي ) والى مصر بالزحف على الجزيرة العربية وضرب هذه القوة وساعد العرب محمد علي في حروبه في الجزيرة العربية وأعطته فرنسا وانجلترا كثيرا من الضباط والمستشارين العسكريين الذين رافقوا حملته على الجزيرة العربية يوجهون الغزو ويشيرون على الطاغية ( ابراهيم بن محمد علي ) بما يفعله ضد اخوانه المسلمين ، وظل هؤلاء المستشارين في جيش محمد علي مادامت الحرب ضد المسلمين في جزيرة العرب ، وعندما توجه جيش محمد علي لضرب الثورة اليونانية في شبه جزيرة المورة سنة ١٢٣٧ هـ ( ١٨٢١ م ) وذلك بأمر من السلطان العثماني أيضا ، عند ذلك رفض المستشارون العسكريون الفرنسيون والانجليز أن يتبعوا جيش محمد علي وأنسحبوا منه لأنه سيضرب أمة أوربية تجمع بينها وبينهم ضلالت الدين والثقافة والتاريخ .

### بعث العصبيات الشعبوية بين المسلمين :

نشأت الجماعة الإسلامية الأولى على أيام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وفيها كثير من الأجناس فبجانب العربي كان سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي • والكل أخوة في الله ، فقد صهر الاسلام علاقة المسلم بأخيه المسلم بقاعدة ذهبية قوامها : « الناس سواسية كأسنان المشط » لا فرق لعربي على عجمي الا بالتقوى » و « اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي » •

ففضى الاسلام بذلك على التمييز بين الأجناس والألوان الذي يغرس الحقد في نفوس البشر ، ومن ثم دخل الاسلام آسيا وأفريقيا وسادت بين أفرادها المحبة المبنية على أساس من المساواة ، وبذلك تقدمت أمتة خالية من الحقد والمبينة على تمييز الأجناس • وهو ما كان يسمى في صدر الاسلام بالشعبوية أي التعصب لشعب دون شعب آخر وعرف حديثا بالقومية والوطنية الضيقة •

ونظر الاستعمار الى ما حققه الاسلام من وحدة فريدة بين الأجناس بعين ملؤها الحقد ، فجند المستشرقين لاجداث التصدع في البناء الاسلامي ، وفي هذا المجال ارتبط الاستئثار بالاستعمار الأوربي ونسقت أعمال المستشرقين تحت رعاية وزارات المستعمرات الأوربية وكانت مهمة الاستئثار في هذا المجال العمل على تفتيت الوحدة الإسلامية التي كانت ماتزال قائمة في الدولة العثمانية ، فعملوا في كتاباتهم على بعث القوميات القديمة التي قضى عليها الاسلام لاثارة أسباب الفرقة والقطيعة بين الأجناس الإسلامية المختلفة وعدم اتحادها

فتحدثوا عن ( الأكراد ) و « العرب » في العراق وعما بين الجنسين من فوارق في تصور الحياة وفهم العقيدة والأمانى القومية ، وعلى هذا النحو يتحدثون عن العرب و ( البربر ) في شمال أفريقيا وما بينهما من ( م ٩ - العالم الإسلامي )

اختلاف ، وسكان الشمال والجنوب فى السودان و ( السنة ) و ( الشيعة )  
فى العراق وفى ايران والبلاد الاسلامية الأخرى •

وبناء على ذلك عمل الاستشراق والاستعمار على فصل هذه  
الجنسيات من جديد ، ( فالفرس ) فى ايران و ( الأتراك ) فى آسيا  
الصغرى ، و ( العرب ) فى جزيرتهم و ( البربر ) فى شمال افريقيا ،  
و ( المصريون ) فى وادى النيل وغيرهم من الجنسيات عمل الاستعمار  
متعاوناً مع الاستشراق على إعادة قومياتهم من جديد •

واستكمالاً لهذا المخطط شجع المستشرقون فى جامعات أوروبا  
الدارسين المسلمين والعرب على دراسة لهجاتهم المحلية ليعيد تمزيق اللغة  
العربية التى توحدت بالقرآن الى لهجات محلية ثم الى لغات تبعد شيئاً  
فشيئاً عن اللغة العربية الأم لغة القرآن ، فيبعدون بذلك عن مصدر  
تشريعهم وعقيدتهم وهو القرآن وبالتالى يبعدون أيضاً عن تراثهم الفكرى  
الموروث ، ويحاول المستعمار تحويل تراثنا الى « فولكلور » نلفرجة •

وشجع الاستعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت  
شعار جديد لايعرفه الاسلام وهو « القومية العربية » ولم يكن هذا  
حبا فى العرب ومصلحتهم ولكنه فى الدرجة الأولى من أجل القضاء على  
الرابطه الاسلامية القوية بين المسلمين ، وخلق ثغرات اقليمية جديدة تزيد  
من تفرق العالم الاسلامى • وفى نفس الوقت أغرى الأتراك المثقفين  
العائدين من أوروبا للتعصب لقوميتهم التركية ، ومن ثم وقع الصدام  
بين الطرفين أثناء الحرب العالمية الأولى •

يقول المستشرق ( المبشر ) لورانس براون Lourance Brown  
الذى ألف كتاباً عن « الاسلام والارساليات Islame and Missions  
يقول فيه عن خطورة الوحدة الاسلامية :

« اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصباحوا



لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير» (١١) •

ويقول أيضا : « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي» (١٢) •

وبعث القوميات على نحو ما سلف لم يكن هدفا نهائيا للاستعمار وانما كان هدفا تكتيكيا مرحليا عندما يحقق غرضه يبحث الاستعمار عن وسائل أخرى لتمزيق المسلمين كخلق الوطنيات الضيقة •

#### مراكز محاربة الوحدة الاسلامية وبث الروح القومية :

بدأت السفارات والمفصليات الاستعمارية تعمل عملها في العالم الاسلامي وبلدانه الاسلامية لبث روح الفرقة بين المسلمين ، وكانت أعمالها بارزة بشكل واضح في اسلامبول وبيروت والقاهرة وبغداد ودمشق واتخذت لها مركزين رئيسيين : في اسلامبول لضرب الدولة الاسلامية في مركزها الرئيسي ، وفي بيروت : لضرب الدولة الاسلامية في قلبها العربي •

#### أما بالنسبة لمركز بيروت :

فقد وضع له المخطط على أن يعمل للمدى الطويل وللنتائج البعيدة والتي تلمس بعض آثارها في هذه الأيام ، ولقد بدأ هذا المخطط على شكل جمعيات مثل :

(١١) محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث ، ص ٥٢٥ •

(١٢) المرجع السابق ، ص ٥٢٦ ، ومصطفى خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار ص ١٨٤ •

« جمعية الفنون والعلوم » التي أنشأتها البعثة التبشيرية الأمريكية، سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٧ م والتي تولي رعايتها العميلان الانجليزيان :

« بطرس البستاني » و « ناصف اليازجي » واشترك معهما في رعايتها طائفة من أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية ولم يدخلها أحد من المسلمين ولئن ظهرت هذه الجمعية بمظهر نشر العلوم والفنون وحياء اللغة العربية وآدابها وبعث التراث العربى الفكرى ، إلا أن الغرض الصحيح هو إثارة النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية .

وفى سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥٠ م تأسست ( الجمعية الشرقية ) تحت رعاية الأب اليسوعى الفرنسى ( هنرى دبرنير ) من المسيحيين العرب والأجانب دون المسلمين .

ثم أتت مرحلة جديدة أصبح فيها هذا النشاط في يد الوطنيين العرب من مسلمين ومسيحيين وذلك عندما نشأت سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م ( الجمعية العلمية السورية ) وأدى هذا النشاط الهدام الى هذاب سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين في الشام والتي أدت الى تقسيم الشام الى طوائف متحاربة ويقول ( عمر فروخ ) عن هذه الفتنة : « فى عام ١٨٦٠ نشبت بين الموارنة والدروز ( المسلمين ) فى جبل لبنان فتنة غسلت البلاد بالدماء وتركت فى نفوس الناس أسوأ الأثر الى اليوم الا أن هذه الفتنة لم تنتشب فجأة ولكنها كانت تهيأ خطوة خطوة ولقد كان مهندسوها بارعين الى حد أن الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يوم ذاك أن الدول الأجنبية قد هيأتها على أيدي المبشرين » (١٣) .

وقد تسببت أحداث سنة ١٨٦٠ الى وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجرة بعض رجالها الى مصر ليقتل الدولة العثمانية الا أنها استأنفت نشاطها بقوة بعد ذلك وأخذت تجند لعمليها كثيرا من الشخصيات العربية من

(١٣) التبشير والاستعمار ص ١٢٧ .

المسلمين والمسيحيين على السواء من اسلامبول والقاهرة ودمشق وبيروت وغيرها •

وكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسى هى :

( جمعية بيروت السرية ) التى تأسست عام ١٢٩٢هـ ( ١٨٧٥م )  
فقامت على أساس فكرة القومية العربية وكانت فى الظاهر تعمل للعرب والعروبة ، وتثير العداء للدولة العثمانية ، وتعمل على فصل الدين عن الدولة وجعل القومية العربية هى الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الاسلامية ليكون للاقليات المسيحية واليهودية فى البلاد العربية وجود بل دول فى المنطقة وهذا ما حدث فيما بعد •

ويطول بنا المقال لو استعرضنا نشاط هذا المركز وغاية ما يمكن قوله هو أن هذا المركز مازال حتى الان يقذف بالزعماء الذين ينادون بالقومية والوطنية وكلهم ميشيل وجورج وقسطنطين وأنطون وكوفيس وتحول هذا المركز الان الى المنسادة بسيطرة المسيحيين على المسلمين فى لبنان أو على الأقل الاستقلال عنهم فى وكر شبيه بوكر الصهاينة فى فلسطين ومن ورائهم الدول الاستعمارية تدفعهم وتمدهم بالسلاح •

وكانت بلاد الشام تنقسم قبل أحداث سنة ١٨٦٠ الى التنظيمات الادارية الاتية :

- ١ — ولاية ( حلب ) وتشمل شمال الشام •
- ٢ — ولاية ( طرابلس ) وتشمل وسط الشام •
- ٣ — ولاية ( دمشق ) وتشمل الجزء الجنوبى من بلاد الشام حتى الحدود المصرية •

وبعد مذابح سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م تدخلت الدول الأوروبية وعملت على انشاء ( متصرفية لبنان ) (١٤) .

وتدخلت الدول الأوروبية أكثر في لبنان من أجل تقسيمه الى قسمين:

١ — شمالي للمسيحيين .

٢ — وجنوبي للمسلمين .

يفصل بينهما الطريق الممتد من بيروت الى دمشق . وكان الاستعمار يريد منها غاية ذكرها أنيس صايغ في كتابه : « لبنان الطائفي » قال :

« وقد أرادت الدول من ذلك المشروع جعل لبنان بلدا مسيحيا » (١٥)

ثم بدأت بعد ذلك بدعة تعيين رئيس مسيحي على لبنان ، فقد انعقد في لبنان ( بيروت ) مؤتمر دولي حضره المفوض عن الدولة العثمانية مع خمسة وكلاء من :

بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا .

وقرر الوكلاء أن تكون ادارة لبنان بواسطة متصرف ( حاكم ) مسيحي يعين برضا تلك الدول ونص القرار على أن يكون هذا الحاكم نصرانيا أوربيا كاثوليكي لا وطنيا مسلما أو مسيحيا (١٦) .

وبعد الحرب العالمية الثانية وزع الاستعمار في لبنان كتابا لمؤلف مجهول بعدة لغات على البعثات الدبلوماسية وعلى المهاجرين اللبنانيين بعنوان : « لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى » وكان هذا التوزيع سرا ومجانا وهو من تأليف المستشرقين الأوربيين (١٧) بالطبع .

(١٤) انظر : احمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الإداري لسوريا في العهد العثماني ، مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول سنة ١٩٥١ .

(١٥) أنيس صايغ ، لبنان الطائفي ، ص ١٦١ .

(١٦) عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، ص ١٤٣ .

(١٧) المرجع السابق ص ١٣٩ — ١٤٠ .

### انشاء الجامعات المسيحية فى لبنان :

وعملت حركة المستشرقين على انشاء الجامعات فى لبنان متعاونة مع المبشرين والارسلالات التبشيرية والاستعمارية محاولين غرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الاسلامية<sup>(١٨)</sup> .

فأنشأوا لهذا الغرض عدة مؤسسات تعليمية فى لبنان أهمها (الجامعة الأمريكية ) فى بيروت سنة ١٢٨٢ هـ ( ١٨٦٥ م ) والتي كانت تسمى من قبل اسم « الكلية السورية الانجيلية » وهى جامعة بروتستانتية كان لانشائها أثر سبىء فى مساعدة الأفكار الهدامة بين شباب الشام المثقف ويرمز اليها (S.P.C.) .

وأنشئت بعدها بقليل « جامعة كاثوليكية » هى جامعة القديس يوسف وتعرف الان ( بالجامعة اليسوعية ) فى بيروت وتدير أعمالها ارسلالية التبشير الكاثوليكية فى بيروت ، وبسبب التعاليم التي تنشرها وتبثها هذه الجامعة كان لها الحظ الأوفر فى انتشار الأفكار الفرنسية فى الشام<sup>(١٩)</sup> .

وقد كانت هاتان الجامعاتان تصولان وتجولان فى ميدان الثقافة فى الوقت الذى لم يكن فيه فى الشام كله جامعة اسلامية ، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه للأفكار الهدامة لتحتل عقول طلائع المثقفين الذين سارعوا الى الانخراط فى صفوفهما .

---

(١٨) محمد البهى ، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الاسلام ص ١٤ — ١٥ .

وانظر أيضا مجلة : الاسلام فى عددها الصادر فى ١٦ مارس سنة ١٩٥٨ ص ١١٤ .

(١٩) محب الدين الخطيب ، الغارة على العالم الاسلامى ص ٨ .

وكان الطلاب المسلمون فى الجامعة الأمريكية يجبرون على الدخول يوميا الى الكنيسة التابعة للجامعة وشهود بعض الطقوس المسيحية ، ولا احتج بعض الطلبة الغيورين على اسلامهم فى سنة ١٩٠٩م (١٣٢٦هـ) أصدرت الجامعة فى بيروت منشورا ردا على احتجاجهم ويتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها وهك نص هذه المادة :

« ان هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي ، هم اشترىوا الأرض ، وهم أقاموا الأبنية ، وهم أنشأوا المستشفى وجهازه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

كما أعلن مجلس أمناء الكلية فى هذه المناسبة « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ولا لثبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » (٢٠) .

هذه هى أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية سافرة دون استحياء فليعلم كل مسلم مدى التخريب الذى تتعرض له البلاد الاسلامية ، اذا عرفنا أنه لا تخلو عاصمة اسلامية من وجود جامعة أمريكية بروتستانتية أو معهد كاثوليكي أو مدارس للرساليات الأجنبية المسيحية المتعصبة .

---

(٢٠) ابراهيم خليل أحمد ، الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية ص ٥٥ — ٥٦ .

وعمر غروخ وزميله ، التبشير والاستعمار ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .  
ومحمد البهى ، المبشرون والمستشرقون ، ص ١٠ .

### انتقال جناح لبناني الى مصر :

بعد مذابح لبنان سنة ١٨٦٠ تيقظت الدواة العثمانية لنشاط الغزو الفكري الهدام في بيروت وخطره على الوحدة الاسلامية ، فبدأت تشدد من قبضتها عليه وخاصة في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ - ١٣٣٨ هـ ، ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) ومن ثم تعرض عبد الحميد لهجوم شديد من هؤلاء ورموه بالاستبداد ونعتوا عصره بعصر الاستبداد الحميدي ، فاننقل جناح منهم الى مصر . وكانت مصر يومئذ في قبضة الأوربيين بعد التسوية الأوروبية للمسألة المصرية ، والتي تمت في لندن سنة ١٢٥٦ هـ وتمخضت عن معاهدة لندن ١٨٤٠ م التي فرضت على محمد علي وعلى مصر الخضوع لأطماع الغرب .

وفي مصر وجد هؤلاء المهاجرون اللبنانيون وأغلبهم من المسيحيين مرتعا خصبا تحت حماية النفوذ الأوربي قبل الاحتلال الانجليزي لمصر ، وبعد الاحتلال الانجليزي ١٣٠٠ هـ ١٨٨٢ م أصبحوا في حماية الانجليز .

وكان في طليعة هؤلاء : ( شبلو شميل ) و ( جرجي زيدان ) و « فرح أنطون » و « يعقوب صروف » و ( فارس نمر ) و ( اسكندر مكاربوس ) وغيرهم .

وأنشأ هؤلاء في مصر عدة جرائد ومجلات بمعونة الاستعمار الانجليزي وتشجيعه وتوجيهه ، وبدأوا يكتبون فيها الأفكار الاستشراقية التبشيرية ومن هذه الصحف : المقطم ، والهلال : الذي أسسها ورأس تحريرها جرجي زيدان سنة ١٨٩٢ م والمقتطف : أنشأها في سنة ١٨٦٨ فارس نمر ويعقوب صروف وكانت صلة فارس نمر بالاحتلال الانجليزي في مصر قوية ، و قد تزوجت ابنته من المسنر سمارت مستشار السفارة الانجليزية في القاهرة (٢١) فمكّن له هذا في مصر . ولكي نعرف الصلة التي تربط هذه المجلة بالنشاط الارشادي

(٢١) محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ط١ ص ٢٣١ .

البروتستانتى فان الجامعة الأمريكية فى بيروت هى التى احتفلت بالعيد المئوى لهذه الجريدة سنة ١٩٦٨م ونشرت بهذه المناسبة فهرسا للمقتطف تحت اشراف هيئة تدريس الدراسات العربية بالجامعة فى بيروت وذلك لأن الجامعة الأمريكية بالقاهرة لم تتمكن من ذلك بسبب أن جمال عبد الناصر كان قد فرض عليها الحراسة بعد هزيمة العرب فى حرب سنة ١٩٦٧ •

وقد ظلت مجلة المقتطف تبث سمومها فى مصر حتى قيام ثورة ١٩٥٣ حيث أوقف صدورها •

وكانت تلك الصحف التى أنشأها اللبنانيون المسيحيون فى مصر منابر للفكر الغربى فى ظل الاحتلال الانجليزى ، وكانت خلاصة دعوتهم رفض الأساس الاسلامى للفكر العربى ومحاولة بناء أساس جديد مستمد من الفكر الغربى المسيحى ، وتنمية الروح الاقليمية فى مواجهة الوحدة الاسلامية ، وتقوية الاتجاه العلمانى وفصل الدين عن الدولة وفصل الشريعة الاسلامية عن حياة الناس وابعاد التعاليم الاسلامية عن ميدان تربية النشء •

وقد مكن اللورد كرومر المندوب السامى الانجليزى لهؤلاء فى مصر، بل وكان مبتهجا فرحا بهم فوصفهم فى مذكراته بأنهم : « منحة من السماء » وأنهم بمثابة « خميرة البلاد » يعنى مصر وكانت صحفهم هى اللسان الناطق لسلطان الاحتلال باللغة العربية ، فأيدت الاحتلال وهاجمت الحركات الوطنية ، وكتب هؤلاء يدافعون عن حق الانجليز فى مصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر الى الرضوخ اليه ولم تمر بمصر حادثة واحدة الا وقفوا فيها موقفا معارضا لأمانى الشعب (٢٢) •

(٢٢) أنيس صايغ « لبنانى » الفكرة العربية فى مصر ، ص ١١٢ ومابعدها وأنور الجندى ، « الليقطة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار » ، ص ١٧٦ — ١٧٧ •



وهناك نموذج من كتاباتهم عن ضرورة فصل الدين عن الدولة ، مما كان ينشر في جريدة المقطم في أواخر القرن الماضي الميلادي ، فقد جاء في عددها الصادر في ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩ م مايلي :

« يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين وبين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان فإذا لم تدركه عامتنا كان الخطر محيطا أبدا بعامتنا أو سالت عامتنا اليوم لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم الا بالدولة ، والدولة لا تقوم الا بالدين وأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين ، لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التي تسعى الدولة اليها في زماننا هذا هي غاية دنيوية محضة هي أمن الناس على أرواحهم ، أما الدين فالغاية المرجوة منه على اختلاف الزمان والمكان هي صلاح الناس في هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فهو الصلة بين الأفراد الذين يتدينون به وبين خالقهم ولكل انسان دينه ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة •

« أما قيام الدولة بالدين والدين بالدولة فلا وجود له في عصرنا بين الدولة العزيزة المتمدينة الا بمعنى أن هذه الدولة لا تكون الا اسلامية وتلك لا تكون الا مسيحية فإذا لم نميز بين الدولة والدين في عصرنا ، فماذا نفعل لو سقطت الدولة أيسقط معها الدين ؟ » (٣٣) •

هذا نموذج لما كانت تنشره هذه الجرائد العميلة ذات الفكر الدخيل ، وهذه هي أفكار رجالها الذين وصفوا أنفسهم بأنهم مهاجرون من قبضة الاستبداد الحميدى ومدافعون عن حرية العرب واستقلالهم •

وقد كشف المفكرون المسلمون في مصر هذا المخطط الاستعماري للغزو الفكرى وتصدوا له وعملوا على تعريبته في الجرائد الاسلامية مثل : ( اللواء ) التى أسسها مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ، و ( الدستور ) التى كان يرأس تحريرها فريد وجدى و ( العلم ) وكان يرأس تحريرها

(٢٣) المقطم ، عدد ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩ •

الشيخ عبد العزيز جاويش و ( المنار ) التي أسسها سنة ١٨٩٨ م  
محمد رشيد رضا ( والمؤيد ) التي أسسها الشيخ علي يوسف وغيرها .

وكان يكتب في هذه الجرائد الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا  
ومحب الدين الخطيب ومصطفى صادق الرافعي ومصطفى لطفى  
المنفلوطي وأحمد تيمور باشا .

وكان ( محب الدين الخطيب ) (٢٤) السورى المقيم فى مصر يحرر  
فى جريدة المؤيد مقالات قوية ينتبع فيها نشاط المستشرقين والمبشرين فى  
العالم الاسلامى وأهمها مقالاته التى كتبها تحت عنوان : الغارة على  
العالم الاسلامى . سنة ١٣٣٠هـ ثم نشرها فى كتاب بنفس العنوان (٢٥) .  
وأنشأ محب الدين الخطيب أيضا ( المطبعة السلفية ) الشهيرة بالقاهرة  
للعناية بنشر الفكر الاسلامى .

وكان هؤلاء المدافعون فى وجه الغزو الفكرى الغربى المسيحى  
فى مصر كلهم من المؤمنين بالاصول والجزور الاسلامية التى تنبع من  
الفكر الاسلامى الاصيل ومعظمهم تخرج فى الأزهر أو نهل من علومه  
الاسلامية ، وكان هؤلاء يمثلون التيار الرئيسى الوطنى الجارف ، فكشفوا  
للمسلمين فى مصر وفى كل مكان عن منهج هؤلاء العملاء وأهدافهم  
واتهموهم بالخصومة لحركة اليقظة الاسلامية والعمالة للاستعمار .

---

(٢٤) كان لمحِب الدين الخطيب نشاط قومى مضاد لحركة التتريك فى  
البلاد العربية فلفت نظر السلطات التركية الحاكمة فى دمشق فأخذت تلاحقه  
وتنسيق عليه ، فهاجر الى مصر عام ١٩١١ وأنشأ فيها المكتبة السلفية  
ومطبعتها وبدأ يكتب المقالات فى جريدة المؤيد .

(٢٥) طبع هذا الكتاب طبعتين الاولى فى سنة ١٣٥٠ هـ والثانية فى  
سنة ١٣٨٢ هـ وعُنيَت بنشرة المطبعة والمكتبة السلفية ونشر منها فى المؤيد  
سنة ١٣٣٠ هـ وفى صحيفة الفتاح سنة ١٣٤٩ هـ - ١٣٥٠ هـ .

ولما انكشف مخطط الغزو الفكرى وانكشف عملاؤه من المسيحيين  
الابنانيين المهاجرين فى مصر رأى الانجليز ضرورة انشاء جناح جديد  
أكثر قدرة على التخفى والتنويه ، ويزداد قسوة بأن يكون زعماءه من  
المصريين المسلمين أنفسهم ، فأنشأ الانجليز ( حزب الأمة ) لهذا الغرض  
سنة ١٩٠٧ وكانت هذه هى الظروف والملايسات السياسية والفكرية التى  
أوجدت حزب الأمة فى مصر ، وهو الحزب الذى انبثقت منه أرضية  
الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية بعد الحرب العالمية  
الأولى ولأمد طويل جدا .

ويذكر البعض أن ( حزب الأمة ) منذ انشائه مجموعة من الطامعين الذين  
أعطاهم الاستعمار بعض المكاسب ووزع عليهم أراضى الدائرة السننية  
وخلق منهم طبقة موالية له وكان على رأسهم ( لطفى السيد )<sup>(٢٦)</sup>  
( وعبد العزيز فهمى ) و ( عبد الخالق ثروت ) وأسرة ( عبد الرزاق باشا )  
و ( فتحي زغلول ) و ( ابراهيم الهلباوى ) وغيرهم .

وكان هدف هذا الحزب وبرنامجه مستمد من مفاهيم اللورد كرومر  
الأساسية ويستهدف تمزيق الوحدة الاسلامية ووحدة الفكر الاسلامى  
فى مجال الربط بين الدين والمجتمع وحللال مفهوم الاقليمية باسم القومية  
ونزع مصر من الرابطة الاسلامية وارساء دعائم القوانين الوضعية  
بدلا من الشريعة الاسلامية ، هؤلاء لهم جريدة تكون منبرا لأفكارهم  
المسمومة هى جريدة « الجريدة » التى ترأس تحريرها ( أحمد لطفى  
السيد ) الذى أسبغ عايه الانجليز لقب أستاذ الجيل كما أغدقوا على  
قربينه ( طه حسين ) عميد الأدب العربى . وكان لطفى السيد وجماعته  
ثقل من الطامحين يخالفون روح الأمة الاسلامية والمسلمين فى مصر  
ويخالفون فكرها وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فكان هؤلاء يسيبسون

(٢٦) أنور الجندى فى كتابه « اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار »  
وكان لأحمد لطفى السيد أخ يسمى سميد باشا لطفى ، كان أول مدير مصرى  
للإذاعة المصرية عند نشأتها سنة ١٩٣٠ .

ضد التيار الاسلامى العام الى حيث يرتضى الاستعمار والاحتلال (٢٧) .  
ولما كشف المسلمون فى مصر هوية هؤلاء وردوا فكرهم الى مصادره  
الأولى عند المستشرقين ، اضطروا بعد الحرب العالمية الأولى الى تغيير  
جلدهم فأنشأوا تشكيلا جديدا تحت اسم « حزب الأحرار الدستوريين »  
وغيروا اسم جريدتهم وسموها ( السياسة ) وأعطوا رئاسة تحريرها  
لوجه جديد هو ( محمد حسين هيكل ) الذى غير رأيه وفكره فى نهاية  
حياته وتحول تحولا كاملا واعترف فى مذكراته بأن حزب الأمة صنعة  
الانجليز (٢٨) .

ويمكننا القول بأن هؤلاء الطامحين لم تكن تقوم لهم قائمة لولا النفوذ  
الاستعماري فى مصر الذى كان يفرض آراءهم فى السياسة والتربية  
والثقافة وكان رأى العام مناهضا لهم ويحاول أن يمضى فى طريق  
اليقظة الاسلامية الذى اختطه الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ منتصف  
القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

#### مركز اسلامبول :

فى اسلامبول عاصمة تركيا عمل الاستشراق والاستعمار عملهما  
الغادر لتفريب الوحدة الاسلامية وضرب الدولة فى عاصمتها وفى  
رجال الحكم فيها وكانت الخمية التى اعتمد عليها الاستعمار والاستشراق  
فى قلب الأوضاع فى اسلامبول هم مجموعة من الشباب التركى المثقف  
ثقافة أوروبية حيث كونوا جمعية فى باريس تسمى ( جمعية تركيا الفتاة )  
عملت من أجل فصح عرى الوحدة الاسلامية والمناداة بالقومية التركية  
الضيقة ، وكان فرع هذه الجمعية يعمل سرا فى اسلامبول ، وكان  
( مدحت باشا ) قائدا لهذه الحركة .

وتوغلّت ( حركة تركيا الفتاة ) فى الجيش العثمانى وانتشرت

(٢٧) انور الجندى ، اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار ، ص ١٨٧  
(٢٨) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

أفكارها الى المدارس العسكرية العثمانية وذلك لأن التعليم العسكرى فى اسلامبول كان أكثر أنواع التعليم اتصالا بالثقافة الأوروبية ، وفى عام ١٣٠٧هـ - ١٨٨٩م ألف بعض طلاب المدرسة العسكرية الطبية فى اسلامبول جمعية سرية فرعا لجمعية تركيا الفتاة داخل البلاد وعندما افتتح سر الجمعية عام ١٣١٠ - ١٨٩٢هـ غادر بعض أعضائها الى باريس هربا من انتقام السلطان عبد الحميد وعلى رأسهم ( خليل غانم ) المسيحي العربى الذى أصدر فى جنيف جريدة ( الهلال ) ثم جريدة ( تركيا الفتاة ) فى باريس ومنهم ( أحمد رضا ) الذى كان مديرا للتعليم فى بروسه وأصدر فى باريس جريدة ( مشورت ) كل أسبوعين باللغة التركية مع ملحق باللغة الفرنسية وكانت تهرب الى تركيا ذاتها عن طريق دوائر البريد الأجنبية التابعة للفتنصليات الأوروبية التى كانت تتمتع بامتيازات خاصة داخل الدولة تجعلها بعيدة عن التفتيش .

وكانت الجمعيات ذات النشاط الهدام فى الدولة وفى سنة ١٣٢٤ - ١٩٠٦هـ ألف ( مصطفى كمال ) ( أتاتورك ) وكان يومها ضابطا فى الجيش فى دمشق جمعية « الوطن » وكانت من العناصر السخطة على عبد الحميد فى الجيش ثم لم تلبث أن نقلت نشاطها الى ( سالونيك )<sup>(٢٩)</sup> التى أصبحت مركزا للخارجين والمناهرين على الدولة وخاصة من رجال الجيش وصار اسمها ( الوطن والحرية ) ولم يلبث مصطفى كمال أن وجد فى سالونيك جمعية أخرى تمارس نشاطا سريا كبيرا وعلى اتصال بالأجانب فيها وهى ( الجمعة العثمانية الحرة ) وكان

(٢٩) سالونيك مدينة من مدن مقدونيا باليونان ، ويرجع السبب فى اختيار سالونيك مركزا لنشاطهم انها كانت أكثر المناطق اتصالا بأوروبا وضعف قبضة عبد الحميد نسبيا كما كان نشاط قوميات البلقان دفع الدولة الى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادة كبار الضباط وهو الجيش الثالث العثمانى . وكان للأجانب تدخل فى سالونيك بسبب كثرة الاضطرابات فى المنطقة فأنشأت خمس دول أوربية إدارة دولية لمتابعة الوضع فكان أن وجد الجيش الثالث العثمانى نفسه فى قلب دائرة التدخل الأجنبى ( د محمود منسى ، البيضة العربية ص ١٠١ ) .

من أعضائها ( جمال ) و ( طلعت )<sup>(٣٠)</sup> زميلاً مصطفى كمال فى ثورته • ولم يابث مصطفى كمال أن وجد فى سالونيك البيئة الملائمة لعمل جهده لتوحيد هذه الجمعيات فى سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ هـ فى جمعية واحدة هى ( جمعية الاتحاد والترقى العثمانى ) ( عثمانلى ترقى واتحاد جمعيتى ) ووثقوا صلاتهم بالأجانب من رجال الادارة الدولية الذين خططوا معهم للثورة على السلطان عبد الحميد فى يوليو ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ هـ وقيدوا من سلطة السلطان ثم أصبح رجالها أصحاب سيطرة كاملة على شئون الدولة ولم يلبث هؤلاء أن قاموا بعزل السلطان عبد الحميد آخر السلاطين الأتقيا فى ٧ من ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ أبريل ١٩٠٩ م •

ولقد نادى هؤلاء بالقومية التركية وتفضيل العنصر التركى على بقية العناصر التى تتكون منها الدولة وقد كتب أحدهم مقالا فى صحيفة ( طنين ) وهو ( حسين جاهد ) بتاريخ أكتوبر ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م يقول :

« ان الأمة التركية كانت وستظل هى الأمة الحاكمة فى الساطنة العثمانية ، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين ، وأنه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى ، وأن الدستور العثمانى لا يمكن أن يكون فى شكله النهائى سوى دستوراً تركيا »<sup>(٣١)</sup> •

وغيرض الاتحاديون اللغة التركية على مختلف عناصر وأجناس الدولة بما فيهم العرب على حساب لغاتهم ، فلم يسمحوا بفتح مدارس أهلية تعلم دروسها بالعربية ، ومدارس الحكومة وضعت الحكومة لها

---

(٣٠) يتحدر طلعت باشا من اصل يهودى واعتنق الاسلام ويطلق عليه وعلى أمثاله فى التاريخ العثمانى « الدونية » انظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، ج ٢ ص ١٠٢٤ •

(٣١) توفيق برو ، العرب والترك فى العهد الدستورى ص ٩٦ ، د - محمود منسى ، القنطرة العربية ، ص ١٠٨ •

برنامجاً يهدف الى التتريك ، كما صدرت التعليمات الى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية ، وأبلغت لجان الاتحاد والترقي في الولايات العربية بأن تكون مخابراتها مع اللجنة المركزية في سائونيك باللغة التركية ، وفرض على التجار العرب تقديم البيانات الى دوائر الجمارك باللغة التركية ، ومنع قبول الشكاوى المكتوبة باللغة العربية في مجلس المبعوثان •

ومما يدل على تعصب الترك للغتهم ومماربتهم للغات الأخرى تلك الحادثة التي جرت في البرلمان فقد وقف وزير الأوقاف — وهو عربى — ليلقى بيانا عما قامت به وزاراته ، وبعد أن ألقى البيان باللغة التركية اختتمه بدعاء في كلمات عربية ، فهب النواب الترك محتجين على استعمال لغة غير التركية في المجلس ، ولم يستطع رئيس المجلس تهدئة هذه العاصفة من الاحتجاج على الوزير الا عندما أكد النواب أن ما قاله الوزير ليس الا دعاء تقليديا ليس من صلب الخطاب وانما هو دعاء خاص بين الوزير وبين الله (٣٢) •

وكانت هذه النغمة جديدة على الأتراك فان اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم وكانت غالبية اللغة التركية من كلمات عربية وكانت التركية في طريقها الى أن تكون عربية خالصة بسبب نظرة المفكرين العثمانيين المقدسة الى لغة القرآن حتى أن جمال الدين الأفغانى سعى لدى السلطان عبد الحميد من أجل احلال اللغة العربية محل التركية على أساس أن هذا الاجراء من شأنه زيادة هيبة تركيا كدولة اسلامية وهيبة السلطان كخليفة على المسلمين جميعا من عرب وغيرهم •

ولقد تعرض ( رجال الاتحاد والترقى ) لهجوم من العرب فرموهم باحتقار الاسلام ولغة القرآن فقد أقدموا على شيء خطير لم يقدم عليه

(٣٢) محمود نسي ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ •

( م ١٠ — العالم الاسلامى )

سلاطين العثمانيين وهم فى أوج قوتهم ألا وهو ترجمة القرآن الكريم الى اللغة التركية مما يعتبر مظهرا عدائيا ضد الاسلام والعروبة .

ففقد الأتراك الاتحاديون بذلك الروح الاسلامية وفقدوا مع ذلك حب العرب والمسلمين لهم .

ويجب علينا أن نلاحظ التفريق بوضوح بين مرحلتين : مرحلة السلطان عبد الحميد التى بدأت سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م وانتهت سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩م ومرحلة الاتحاديين التى بدأت فى سنة ١٣٢٧ هـ وانتهت بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وهاتان المرحلتان يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقتهما ويدخلون الواحدة منهما فى الأخرى ادخلا مريباً .

فالمرحلة الأولى : هى مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الاسلامية فى وجه الاستعمار والصهيونية .

والمرحلة الثانية : هى مرحلة الصراع الدموى ومحاربة العرب والعروبة والاسلام ومحاولة التتريك وتسليم فلسطين لليهود والقضاء على الدولة وتصفيتها ابان ادخالها الحرب الأولى ( وتسليم طرابلس الغرب للايطاليين وفلسطين والعراق للانجليز وسوريا ولبنان للفرنسيين ) وكان رواد هذه المرحلة من رجال الاتحاد والترقى يعلنون أن الطريق الوحيد للدولة العثمانية فى مواجهة التخلف والضعف لن يتحقق الا ببلوغ نهاية الطرف الآخر من الاتصال بالحضارة والفكر الأوروبى انتقالها من مفهوم الوحدة الاسلامية الى القومية الطورانية المتعصبة للاجناس ومن الفكر الاسلامى الى الفكر الغربى ، ومن اللغة ذات الحروف العربية الى اللغة ذات الحروف اللاتينية ، وفى النهاية صفيت الدولة العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى على يد أصحاب هذا الاتجاه الغربى .



وصفوة القول أن الغزو الفكرى ساعد فى تدمير الدولة العثمانية ومازال يسرى فى العالم الاسلامى لمحو الشخصية الاسلامية ، ولا شك أن العالم الاسلامى فى حاجة الى ثورة ثقافية يتحرر بها من ربكة الأفكار الدخيلة المزيفة التى أدخلت عليه فى فترة تخلفه •

والحق أن العالم الاسلامى سيظل حيا قويا مادام أبنائوه يشمرون أنهم متصلون بأسلافهم اتصالا واضحا وهذا الاتصان لا يتعارض مع ضرورة تقدمهم وتطورهم فى المجال الحضارى مع احتفاظهم بعقيدتهم ومثلهم العليا سليمة بارزة ، وجعل تراثهم نطقا يحمى وحدتهم وقاعدتهم ينطلقون منها نحو مستقبل عظيم •



## الفصل السادس

### اليقظة الاسلامية

ضعفت الدولة العثمانية وتكالبت عليها كثير من الدول الأوروبية الطامعة في أملاكها ، ولم تستطع الدولة أن تواجه الأوضاع المتردية في ولاياتها ، ولم تستطع من ناحية أخرى أن تواجه الأطماع الأوروبية في أراضيها . ولما وصل الحال الى هذا الحد من الضعف ارتفعت الأصوات المخلصة في شتى أنحاء العالم الاسلامي تتادى بالاصلاح لاعادة المسلمين الى سابق عظمتهم .

وكان التيار العام الجارف هو تيار الاصلاح على أساس عقائد السلف الذي يقول بأن الشريعة الاسلامية التي حققت للمسلمين الأوائل العزة والرفعة والمنعة بين الأمم في الأثرمة الماضية كفيلا بأن تحقق لهم العزة والمنعة من جديد ان هم عادوا اليها خالية من ثوائب الانحراف وسوء التطبيق .

وقد انبعث هذا التيار في قلب الجزيرة العربية وقاده الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ) هذا التيار الذي امتد ومازال يمتد حتى اليوم الى شتى بقاع العالم وانبثقت منه مختلف الحركات الاسلامية في مختلف بلدان العالم الاسلامي في العصر الحديث .

والشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد في بلدة العيينة من اقليم نجد وتربى في بيت علم على مبادئ المذهب الحنبلي وآراء ابن تيمية في الاصلاح والتفقه في الدين معروفا بالتقوى والسلوك الصالح بين ذويه وأهله ، وحج في مطلع شبابه لبيت الله الحرام في مكة المكرمة ، وطلب

العلم في أدينة المنورة وساح في كثير من البلاد المجاورة كالشام والعراق وفارس ثم عاد إلى نجد ، وقد تميز غضبا لما رآه من سوء حال المسلمين فصحت عزيمته على القيام بدعوة اصلاحية للعودة بالاسلام الى نقاته الاول وعظمته لدى المسلمين الأوائل .

وبدا يبشر بدعوته الاصلاحية التي قوامها محاربة البدع والخرافات التي سادت في العصر العثماني فأمر بهدم المزارات التي أصبح الناس يتوجهون اليها من دون الله ودعا الى نبذ ما لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حتى يخلص الاسلام من البدع والرجوع به الى بساطته الاولى . وقد وجدت دعوته أنصارا لها في الجزيرة العربية فتحالف مع أمير الدرعية محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ وكان أكبر أمراء نجد وأغلا زعمائها شأنًا بعد أن قبل دعوته وبذلك كسبت الدعوة قوة وأصبح للحق قوة تحميه من الباطل ، وأنشأ الشيخ حكومته على أساس من الشورى . كما كانت على أيام الخلفاء الراشدين .

ونجحت الدعوة في تحويل كثير من قبائل الجزيرة من حياة الضياع التي عمادها التقاتل والتناحر على أتفه الأشياء الى رجال ذوي مبادئ سامية يستشهدون من أجلها ، كما أصبح لهم قوة لا تتطابق وعزيمة لا تنتهي بسبب العقيدة الدينية التي بثها فيهم ابن عبد الوهاب ، وتملكهم شعور ديني جياش شحذ همهم بالتصميم .

فانتشرت الدعوة بفضل هؤلاء الرجال في جميع أنحاء نجد وامتدت الى الحجاز وأطراف الشام والعراق ، واعتبر الوهابيون هذا النجاح مجرد خطوة أولى في سبيل فتح العالم الاسلامي قاطبة فتحا اصلاحية دينيا تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية (١) .

وتوفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ (١٨٩٢م) وذلك

---

(١) لوثرروب ، حاضر العالم الاسلامي ، الطبعة الرابعة ، ج ١ ص ٤٩١

بعد أن قويت دعوته في الجزيرة العربية كلها ، وانتشر صداها في أنحاء العالم الاسلامي .

وعلى الرغم مما حققه ( آل سعود ) بعده من نصر الا أن عاهلهم كان على الدوام ينزل على رأى الجماعة وشوراها فلم يمتنع حرية أتباعه وبنى قومه وكانت حكومته قوية عادلة فانقطع التمردى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمأنينة والراحة وذلك نظرا لسيادة الحكم بالقرآن وبشريعة الله الذى هو أعلم بمن خلق ، وأعلم بما يصلحهم فى حياتهم ومعاشهم ، نعم عادت السيادة للحكم بشريعة الله بالقرآن بعد أن أهملت زمنا طويلا وسادت شريعة الغاب بين قبائل العرب مرة أخرى ، ثم كانت العودة الرشيدة تحت راية التوحيد لكى يسود المجتمع الاسلامي من جديد .

غير أن هذه اليقظة الاسلامية قابلها تحديان خطيران : التحدى العسكرى الذى وجهته الدولة العثمانية اليها فتضى على نهضتها الاولى كما سبق أن أشرنا ، والتحدى الثانى : هو المخطط الاستعماري الفكرى عن طريق المستشرقين وأعوانهم من المبشرين وأعوان الغرب من المسلمين فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البدائية ، وخلقوا حركة موازية لها هي حركة التجديد الغربى التى أخذ رجالها يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامي ومقوماته وأسس ، واثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث . وكان هذا التحدى هو أخطر ما واجه الدعوة نظرا لأن الاستعمار أعطاه امكانيات الذبوع والانتشار بفضل أجهزة الدعاية الحديثة التى يسيطر عليها من صحافة ومدارس واذاعات لأن الدعوة السلفية عجزت فى بداية نشأتها أن تصل الى مثل هذا النشاط الاعلامي .

وأسدل الستار الى حين على فصل من أهم فصول اليقظة الاسلامية عندما قضت الدولة العثمانية على الدولة السعودية الاولى سنة ١٢٣٣هـ .

ولكن الدعوة جددت شبابها عندما ظهر في مطلع القرن الحالى  
الميلادى قائد قوى هو ( عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ) حفيد  
محمد بن سعود الكبير ، فاستولت التعاليم الاصلاحية على مشاعره  
وتملكه شعور بالتصميم على اعادة الحركة الى قوتها لاعادة الأمة العربية  
والاسلامية مرة أخرى لكان الصدارة فى السياسة والفكر . وعلى الرغم  
من قلة رجاله الا أن الايمان الذى تسليح به كان أقوى من كل العقبات  
« وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » فنجح برجاله القلائل  
فى اعادة تجميع أنصار الحركة الذين فرقتهم الدولة العثمانية من قبل  
وأعاد سلطة الحركة السلفية والدولة السعودية من جديد منذ أن أعاد  
فتوح الرياض سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠٢ م من جديد .

وأعاد التاريخ نفسه فى الجزيرة العربية على يد عبد العزيز  
فقد استطاع هذا القائد أن يخضع الشعور القبلى العربى المتناحر من  
جديد وبثفيهم الأفكار التى بنت الدولة الاسلامية الأولى، ووجه ارادتهم  
القتالية من حالة الضرب ضد بعضهم الى حالة الضرب مع بعضهم من  
أجل سيادة التوحيد والوحدة من جديد .

ولأول مرة منذ صدر الاسلام تتحقق الوحدة العربية فى الجزيرة  
العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ما عدا بعض الأطراف فى اليمن  
وساحل عمان وامارات اللخيج التى تمركز فيها الاستعمار الانجليزى .

#### حركة الجامعة الاسلامية :

كان العالم الاسلامى قد أفزعته فى القرن التاسع عشر أسباب  
الطمع الأوروبى فى أراضيه التى كانت تقرب منه شيئاً فشيئاً منذ أن  
ظهرت فى مطلع القرن العاشر الهجرى ( ١٦م ) وما كاد ينتصف القرن  
التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ففتح الفرنسيون الجزائر  
واستولت روسيا على أراضى شاسعة عبر القوقاس وبسطت بريطانيا  
نفوذها على الهند .

كان هذا سببا كافيا جعل قادة المسلم ين يدركون أن الاسلام مهدد بالخطر القادح والبلاء الشامل بسبب انتشار سيطرة الغرب المسيحي عليه فازدادت حاجتهم الى التماسك وقوى لديهم الشعور بالترابط بعد طول تفرق • وأضحت الجامعة الاسلامية أمرا ملحا لمقاومة الغرب وصدده وإيقاف أطماعه •

وبدأت المقاومة فعلا في أماكن متفرقة ، ولكنها كانت غير منظمة ولم تكن هناك رابطة تنظم كفاحها ، فهب أبطال أمثال ( عبد القادر الجزائري ) في الجزائر و ( مصطفى كامل ) في مصر و ( شامل ) في القوقاس وغيرهم يقاتلون ويناضلون الفاتحين الغربيين قتالا شديدا ، فكان ذلك القتال على استمراره أثبه بمبضع يزيد العالم الاسلامي جروحا فيزداد تألما وصراخا بيد أن قتالا مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لأبطال المسلمين وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مددا ونصرا يستعينون بهما على المضي في القتال<sup>(٢)</sup> •

وبدأ العالم الاسلامي يغلي غليان المرجل على النار فقامت في الجزائر ثورة سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد، فكانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهي الثورة التي دامت طويلا وأجهدت الانجليز وفتنت في عضدهم وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وتم للانجليز اخمادها ودخل كتشنر الخرطوم قبل ختام القرن التاسع عشر •

وفي أفغانستان انفجرت الثورة كالبركان في وجوه الانجليز ، واتصلت شرارة هذه الثورة الى المسلمين في الهند ، فألهت صدورهم بالحماسة الهابا فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانجليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بشق الأنفس وركوب الهول •

(٢) لوثرروب ، حاضر العالم الاسلامي ، الطبعة الرابعة ج١ ص ٢٩٢ •

وفى أواسط آسيا حدثت مقاومة من نوع آخر حيث ظهرت الطريقة النقشبندية الدينية فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الصين ، فثار مسلموا الصين ثورتهم الكبرى فى تركستان الشرقية •

وفى أندونيسيا بجزر الهند الشرقية شبت الثورة فى الأراضى التى كان يسيطر عليها الهولنديون •

وكانت هذه الثورات ومازالت ينقصها التنظيم ، والرابطة التى تضع لها التخطيط ، وكانت أيضا يعوزها القيادة المركزية الواعية لأن هذه الثورات التى تقوم هنا وهناك لا يمكن أن توهم شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون العسكرية<sup>(٢)</sup> ، وأدرك قادة العالم الإسلامى حق الإدراك أنه إذا رام العالم الإسلامى حقا تحرير نفسه من النير الغربى وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا ويسعى سعيا أكيدا ثابتا جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى ، وأيقن هؤلاء أيضا أنه لابد للعالم الإسلامى إذا شاء هذا من دراسة عنوم الغرب ونهج مناهجه وسلوك سبله فى جميع مايؤدى الى نهضة العالم الإسلامى القائمة على أسس من العلم وعلى هذا كان أمثال ( محمد عبده ) و ( جمال الدين الأفغانى ) •

وكان قادة الجزيرة العربية السلفيون يرون أن استقلال المشرق الإسلامى وتحرره من حكم الغرب المسيحى يجب أن يسبقه إعادة المسلمين الى عقائد السلف وأنه متى صلحت نفوس المسلمين وتوحيات عقائدهم أمكنهم القيام بتلك المهمة الصعبة •

وكان رجال الحركة السنوسية فى الصحراء الكبرى الأفريقية يرون أن تحرير المسلم سياسيا يجب أن تسبقه الدعوة الى الأخلاق الإسلامية المرتبطة بالعمل وظل السنوسى طوال حياته يجاهد لادراك هذه الغاية

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ •



من أجل تهذيب النفوس وتنشئة الأجيال على الفضائل الإسلامية التي يمكن ترجمتها في سلوك عملي •

ولقد مرت حركة الجامعة الإسلامية بمرحلتين :

أولا : مرحلة السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ — ١٩٠٨ م •

ثانيا : مرحلة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية ومحاولة التضامن في مؤتمر الخلافة بالقاهرة •

أما عن مرحلة ( السلطان عبد الحميد الثاني ) فإنه قد بذل جهدا كبيرا لأحياء عظمة الإسلام والخلافة الإسلامية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة في العالم الإسلامي، وذلك عندما تكالبت الدول الأوروبية على الدولة العثمانية تريد اقتسامها وأطلقت على أملاكها « أملاك الرجل المريض » وتربصوا بها لاغتنامها عند وفاته واقتسامها فيما بينهم ، فنشط السلطان عبد الحميد لمواجهة هذه الأطماع بتقوية الخلافة وتقوية الرابطة بين المسلمين لايقاظهم لصد أطماع الغرب ، وحاول الاتصال بثتى أنواع المقاومة الإسلامية لتنظيم هذه المقاومة لتكون فعالة •

وحاول الاتصال بألمانيا وكانت ألمانيا بعد انتصارها في الحرب السبعينية ( ١٨٧٠ م ) على فرنسا ونجاحها في توحيد الشعب الألماني قد بدأت تحاول إيجاد مجال حيوى لها خارج أوروبا ، وتحركت نحو الشرق واتصلت بالدولة العثمانية وقوت علاقاتها بها ، واستقبل عبد الحميد هذه الروح من ناحيته بالترحيب وحاول أن يستفيد من قوة ألمانيا ، وتقدمها في مجال المشاريع التي يود القيام بها لتقوية الرابطة الإسلامية ، وذلك مثل سكة حديد الحجاز التي كان يود لها أن تمتد من العاصمة العثمانية الى مكة المكرمة عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام وتم مدها الى المدينة المنورة •

ومن ناحية أخرى كان يريد مناوأة أطماع بريطانيا وفرنسا في بلاده بتقوية علاقاته مع ألمانيا الناشئة القوية التي كانت تعادى الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وتتشد أن تقاسمها في مستعمراتهما خارج أوروبا •

#### التضامن الاسلامى :

قطعت حركة التضامن الاسلامى شوطا لا بأس به منذ ظهرت في مطلع القرن الهجرى المنصرم حتى وصلت الى القوة على يد المغفور له المالك ( فيصل بن عبد العزيز ) الذى استطاع أن يجمع قادة المسلمين في مؤتمرات قمة منتظمة للتضامن والتآزر أمام العدو المشترك ، وذلك بعد أن حال الاستعمار دون الوحدة الاسلامية التى هدفت اليها حركة التوحيد في الجزيرة العربية •

وعلى الرغم من سيطرة الاستعمار فقد ظل المسلمون منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجرى يشعرون بشعور اسلامى دافق نحو الوحدة ويتألمون للمصائب التى ينزلها الاستعمار باخوانهم في كل مكان ويتطلعون للتضامن والتآزر أثناء النوائب فى جو ضاع في الكيانات السياسية الصغيرة أمام جشع الامبراطوريات الاستعمارية القوية •

وظل ( الحج ) كل عام يغذى هذا الشعور ويقويه فهو مؤتمر سنوى للمسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم يجتمعون فيه على صعيد واحد أمام خالقهم يجددون ايمانهم • ودلت الاحصائيات في بداية عصر الملك عبد العزيز على أن عدد المسافرين<sup>(٤)</sup> الى مكة للحج والعمرة أخذ يزداد باضطراب بفضل الأمن الذى نشره الملك عبد العزيز ، وعادت مكة تلعب دورها في اشعال العاطفة الاسلامية للمسلمين كل عام ، ففيها يجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم « مرة في السنة أثناء الحج يلتقون

(٤) بول شمتر ، الاسلام قوة الغد للعالمية ص. ١٥٠ — ١٦٥ •

مع بعضهم بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبي خارج المنطقة الحرام  
المضروبة حول مكة وينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة  
واحدة ، هي الأخوة في الله ، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد نبيس  
للفوارق الإقليمية مكان بينهم وهم يد على من سواهم (٥) .

وظلت المعاهدة الإسلامية في العالم الإسلامي وفي طليعتها  
( الأزهر ) تقوم بأمانة الحفاظ على التراث ونشره في العالم الإسلامي  
في وجه حركات التغريب والغزو الفكري المعادية التي بدأت معاقل  
الاستعمار تبثها في تلك المراكز التي انتشرت في شتى أنحاء العالم  
الإسلامي على هيئة كليات ومعاهد للإرساليات التبشيرية والبروتستانتية  
والكاثوليكية وكانت أهم مراكزها في إسلامبول والشام ومصر والهند .

وكان ( الأزهر ) منذ أنشأه الفاطميون في القاهرة سنة ٣٦١ قد  
نجا من انقلابات الدول والحن المتعاقبة على مدى تاريخه الطويل . وغدا  
منذ العصر المملوكي جامعة المسلمين السنية التي تعنى بدراسة التراث  
الإسلامي على مذاهب أهل السنة والجماعة، وغدا في مطلع القرن المنصرم  
مركزا لتجمع الطلائع المثقفة في العالم الإسلامي يتجمعون في أروقته  
وصحنة لكل جنسية رواق ، فهناك رواق للشوام وآخر للمغاربة والحجازيين  
والبغداديين والأتراك والسودانيين والجبرتية « الصومال والحبشة »  
واليمنيين والهنود والصينيين والجاويين وغيرهم . وبذلك تجمعت فيه  
الوحدة الإسلامية مصغرة لطلائع المثقفين في العالم الإسلامي يجمعهم  
شعار واحد هو الحفاظ على التراث الإسلامي واللغة العربية لغة القرآن  
الكريم في وجه الغزو الفكري واللغوي الأوربي الذي استباح حماهم بهدف  
تغيير هويتهم .

وكان هؤلاء المثقفين الأزهريين يؤوبون إلى أوطانهم بعد التزود  
بالمعرفة الإسلامية ليصبحوا دعاة في أوطانهم ويحملون عبء مسئولية

(٥) المرجع السابق نفس المكان .

الدعوة الإسلامية في جو زادت فيه الأطماع الاستعمارية في العالم الإسلامي .

ورمقه الاستعمار بعين الريبة فوجه اليه سهامه للقضاء عليه ، ففي مؤتمر المبشرين العام الذي عقد في القاهرة سنة ١٣٣٣ — ١٩٠٦ هـ لجميع ارساليات التبشير البروتستانتية في العالم برئاسة القسيس ( زويمر ) ، وصف أحد أعضاء المؤتمر ما ( للجامع الأزهر ) من النفوذ واقبال الألواف عليه من الشبان المسلمين في كل أقطار العالم الإسلامي وتساعل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة الى الان ثم قال :

« ان السنين من المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا » .

وأشار الى أهمية أوقاف ( الأزهر ) التي تمكته من الصرف على طلابه وأساتذته وطالب بضرورة أن يعمل العرب على انشاء جامعة نصرانية عالمية في مصر تنافس الأزهر وتقوم الكنيسة بنفقاتها فقال :

« خصوصاً وأن أوقاف ( الأزهر ) الكبيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً لأن في استطاعته أن ينفق على ٣٥٠ أستاذاً ، ثم تساعل عما اذا كان الأزهر يهدد كنيسة المسيح بالخطر وعرض اقتراحاً يريد به انشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبهم لتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة وتتكفل هذه المدرسة الجامعة باتقان تعميم اللغة العربية » (٦) .

(٦) ثنائيه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ترجمة محب الدين الخطيب ص ٢٣ ، ٢٤ الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ الطبعة السلفية بالقاهرة .

ولقد واصل الغرب أعماله التخريبية من أجل إضعاف ( الأزهر )  
ووائته الفرصة يوم أن كان الاستعمار الانجليزي قابضاً على صولجانه  
في مصر ويده من حديد في الفترة من ١٣٠٠هـ — ( ١٨٨٢ — ١٩٥٢ )  
فاستولت الحكومة على ماتبقى من أوقافه وغدا مؤسسة تصرف عليها  
الدولة من ميزانياتها وتقتدر له مائشاء لها غرض الاستعمار وهواه وبذلك  
ضربته في أهم ركيزة له وهي القاعدة الاقتصادية فأضعفت بذلك من  
مقدرته التعليمية ومقدرته على التطور الذي يقتضيه العصر • فنتأخر عن  
مجارات غيره من الجامعات المدنية في التنظيم وسرعة التطور المطلوبة في  
جو تتقدم فيه الوسائل العلمية بسرعة مذهلة •

ولكن غالبية علماء الأزهر هاجروا الى المملكة العربية السعودية  
وقامت على أكتافهم عملية انشاء جامعات اسلامية تربي الأجيال الاسلامية  
وهي جامعات :

١ — الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض •

٢ — والجامعة الاسلامية في المدينة المنورة •

٣ — وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وفروع هذه الجامعات في  
المملكة وخارجها •

#### جهود جمال الدين الأفغاني

حركة جمال الدين الأفغاني من أجل التضامن الاسلامي جزء من  
التيار الاسلامي العام الذي شمل العالم الاسلامي كرد فعل لعودة  
هجوم الغرب المسيحي عليه ذلك الهجوم الذي مزق البلدان الاسلامية  
زمناً طويلاً وما زال وتحكم في مصيرها بسيطرته على مقدراتها •

وجمال الدين الأفغاني ولد في أسعد آباد بأفغانستان ونشأ  
( بكابل ) وتلقى العلوم العقلية والنقلية وسافر الى انهد وحج في سنة

١٢٧٣هـ وعاد الى وطنه بعد أن عاين واقع المسلمين المر وتفرقتهم أمام اجتماع عدوهم عليهم • فتحركت في نفسه دوافع الدعوة للتضامن الاسلامي فحمل لواءها وتنقل من أجل ذلك في كثير من الأوطان الاسلامية كإيران والحجاز ومصر والهند واسلامبول وساعدته معرفته بلغات كثيرة على ذلك كالعربية والأفغانية والفارسية والتركية والفرنسية والانجليزية والروسية •

وكون مدرسة من المفكرين في البلاد التي ساح فيها واجه بهم التيارات الغربية الوافدة من أوروبا ( وأرجع كثيرا من مستحدثات الغرب الى أصولها الاسلامية ورد النهضة الأوروبية الحديثة الى أصول اسلامية ) •

« ولا ينتمي جمال الدين وتلاميذه في جميع بلاد العالم الاسلامي الى تلك الفئة التي انحدر منها دعاة القومية الذين يتخفون الطابع الغربي نموذجاً لهم دون نقاش ولا أدنى نقد ، فقد استولت عليهم مباحج المضارة الغربية فاعتنقوا مبادئها قضية مسلمة لا تقبل الشك اطلاقاً ، أما جمال الدين وتلاميذه فقد تخيروا منها مايتفق وطبيعة العالم الاسلامي ، ولم ينقلوا ما أخذوه بصيغته ، بل صاغوه صيغة جديدة تتناسب مع ماتتطلبه الحياة الشرقية ، واعطاء ماأنتجه الفكر الأوربي صيغة اسلامية<sup>(٧)</sup> »

كما أنه لاينتمي الى الدعاة الذين انبعثوا من الصحراء وحياة البداوة مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي •

بل أخذ من كل منهج ما يناسب نهضة العالم الاسلامي المطلوبة في عصره •

---

(٧) بلول شمتز ، رجع سابق ذكره ، ص ١٠٨ •

فكانت نظيرته مثلا الى ( النظام البرلماني ) الأوربي على أنه من  
وحى الحكمة الاسلامية فما هو الا نظام الثورى الاسلامى أحسنت  
صياغته فى العصر الحديث •

يمم جمال الدين الأفغانى وجهة شطر القاهرة حيث ( الأزهر )  
بمصر من ١٢٨٨ هـ - ١٢٩٧ هـ ، ١٨٧١ - ١٨٧٩ م وألقى دروسه وعرض  
أفكاره فى صحن الأزهر بوثقة أفكار المسلمين وأشهر جامعة اسلامية فى  
العالم الاسلامى يومئذ فوجدت أفكاره تربة صالحة وتجمع حوله المريدون  
يتشربون تعاليمه ويحملون رسالته من أجل الاصلاح السياسى ، وفى  
القاهرة تبين جمال الدين مدى الخطورة التى تهدد الشرق الاسلامى فى  
مصر تتركز هجمات أوربا فأعلن المقاومة ضد الاستعمار الأوربى وضد  
الحكام المسلمين الفاسدين ، وبين جمال الدين أن الاسلام يعطى للشعب  
حق تقرير المصير « وأن الأحداث السياسية التى نتج عنها اقامة نظم  
الحكم الموجودة اثر الهجوم الغربى على الشرق لايجوز قبولها على أنها  
قضاء وقد كتب على جبين هذا الشعب •• بل يجب الكفاح ضدها حتى  
تستقيم أو تزول لتحل محلها حكومات عادلة ، والدفاع عن حقوق الشعب  
واجب مقدس فى عنق كل مسلم<sup>(٨)</sup> •

وخطيب ( أبناء الشرق الاسلامى ) فى مرارة بالغة آخذاً بيدهم من  
حياة الذل والعجز والمهانة قائلا :

« وما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخطبكم وأذكرنكم بواجباتكم فانكم  
قد ألغتم الذل ورضيتم بالمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف  
والتلطف وسرتم كالمجائز لاتقدرون على الدرع والاقدام والجليب والدفع  
والمتع والرفع فاننا لله وانا اليه راجعون<sup>(٩)</sup> •

(٨) باول شمتز الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٠٩ •

(٩) أنظر للمؤلف تاريخ الحركة الوطنية ص ٢٢٤ •

ولقد نجح الأفغانى فى بث دعوة ( البيقظة الاسلامية ) فى الأزهر و روى تلاميذه فيه ولقنهم منهجه فى الاصلاح ومنهم ( محمد عبده ) و ( سعد زغلول ) و ( محمود سامى البارودى ) الشاعر و ( عبد السلام المويلحى ) و « ابراهيم المويلحى » و ( ابراهيم اللقانى ) و ( عبد الكريم سليمان ) و ( ابراهيم الهلباوى ) وغيرهم ، وعندما اتصل الأفغانى وجماعته بضباط الجيش المصرى وبثهم روحه زادت هواجس الخديوى توفيق حفيد محمد على وخشى تأزر المدنيين العسكريين فعزم على التخلص منه ، واستيقظت القاهرة ذات يوم على خبر آلم المخلصين ذلك الخبر هو أن توفيق قد أمر بنفى الأفغانى الى الهند ولم يكتف توفيق بهذا النفى بل أعلن على الناس بلاغا رسميا نشر فى جريدة الوقائع المصرية حاول فيه تشويه سمعة الأفغانى والطعن فى سلوكه الدينى ونسب اليه : « السعى فى الأرض بالفساد » وأنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » (١٠) .

وبعد خروج الأفغانى من مصر اشتد التذمر وتهاى الشعب للثورة على التدخل الأجنبى وعلى الحاكم الفاسد فى سنوات ١٩٢٩٨ - ١٢٩٩ هـ ١٨٨٠ - ١٨٨١ ، ١٣٠٠ هـ ١٨٨٢ م ولأذ الحاكم توفيق بالانجليز وطلب معونتهم ضد الثوار وكانت النتيجة هو وقوع مصر تحت الاحتلال الانجليزى الذى استمر نحو ثلاثة أرباع القرن .

بعد خروج الأفغانى من مصر وصل الى حيدر آباد بالهند ونسب يستقر بها طويلا لتعقب الانجليز له فخرج منها الى ( باريس ) التى كانت تفتح أبوابها لثوار البلاد التى بها الاستعمار الانجليزى نكابة فى بريطانيا ، فالتقى الأفغانى بالشيخ محمد عبده الذى نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرباوية السالفة ، فأصدرا معا فى العاصمة الفرنسية جريدة تعبر عن التضامن الاسلامى وموجهة الى الشعوب الاسلامية

(١٠) الوقائع المصرية ، عدد ٣١ اغسطس ١٨٧٩ .



وهي ( العروة الوثقى ) أسبوعية يديرها الأفغانى ويرأس تحريرها محمد عبده وتتولى الاتفاق عليها جمعية « العروة الوثقى » لها فروع فى الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الاسلامى ومهمتها العمل على انهاض الشعوب الاسلامية من ضعفها وتبليها من خطر الاستعمار الغربى •

يقول الأفغانى عن رسالته التى اختطها فى حياته ومضى ينفذها كالاعصار لايعرف التراجع ولا الخوف ولا الرهبة •

« لقد جمعت ماتفرق من الفكر ولحمت شعث التصور ونظرت الى الشرق وأهله •• وما آل اليه أمرهم •• فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتبليهم للخطر الغربى المحدث بهم(١١) •

ولقد لقيت جريدة العروة الوثقى اقبالا من القراء المسلمين وصادرتها الانجليز فى الهند ومصر حتى كانت تهرب الى داخل البلاد ، وأعطت سلطات مصر الراحة تحت تأثير الانجليز أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم بغرامة تتراوح بين خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها • وقد نشر منها فى ثمانية أشهر ١٨ عددا صدر آخرها فى ذى الحجة ١٣٠١هـ وبعدها احتجبت عن الصدور بسبب محاربة الانجليز لها ، وعاد محمد عبده بعدها الى سوريا ، وفى جمادى الأولى ١٣٠٣ هـ سافر الأفغانى الى « ايران » بدعوة من ناصر الدين شاه ايران ، وفى ايران تزاحم الأمراء والمجتهدون من رجال الدين حوله وأم يلبث أن بثهم روحه ودعوته فملأت الريبة قباب الشاه وتملكه الخوف من نشاط الشيخ ولمح جمال الدين هذا فخرج من ايران خائفا يترقب وسافر الى أوروبا • وعلى الرغم من أنه عاد مرة أخرى الى ايران بالحاح من الشاه غير أنه

(١١) مقدمة العروة الوثقى طبعة دار الكتاب العربى ببيروت ١٤٠٠ هـ •

طرده منها ولجأ الى العراق . وكان تأثير الأفغانى فى ( طهران ) مثل ماكان فى القاهرة يدفع الملتفين حوله الى التضامن والثورة على الظلم كما تدفع الضميرة العجين الى الفوران .

وانتهى الأمر فى ايران بثورة الشعب على الشاه وتقدم شباب من تلاميذ الأفغانى وطعن ناصر الدين شاه بسكين صائحا ( خذها من يد جمال الدين ) سنة ١٣١٤ واعتترف الجانى بأنه تلميذ الأفغانى فطلبت الحكومة الايرانية من الدولة العثمانية تسليم الأفغانى اليها لأن الشيخ كان ألقى عصي التنسيار فى ( اسلامبول ) بعد أن لقيت دعوته هوى فى نفس السلطان عبد الحميد الذى دعا فى نفس الوقت ( بالجامعة الاسلامية ) ردا على الدول الأوروبية التى كانت تتربص بدولته الكبيرة لتمزيقها وتوزيعها فيما بينهم فرأى فى دعوة الأفغانى فرصة لتقوية حركة الجامعة الاسلامية فدعاه فى عام ١٣١٢ هـ ١٨٩٥ الى الحضور الى اسلامبول وكان وقتها يعيش فى لندن منذ سنة ١٣٠٩ هـ ١٨٩٢م فلبى الطلب وواصل نشاطه فى عاصمة الدولة حتى اغتيال ناصر الدين وطلبت ايران تسليمه لأنها اعتبرته قاتلا « حقيقيا وان كان » غير مباشر ، ولم ينفذ طلب الحكومة الفارسية لأمر خارج عن ارادة الدولة العثمانية ذلك أن الحكيم الأفغانى كان قد فارق الحياة بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٧م ، وأسدل الستار على تاريخ عالم من أعلام التضامن الاسلامى أطلقت عليه انجلترا المشاغب الخطير لأنه أراد أن يوقظ النيام ، وأثر فى حوادث الشرق الاسلامى أكثر مما أثر فيه رجل آخر بأقواله (١٢) .

وظلت تعاليم الأفغانى حية بعد موته واستمر تأثيرها وأحدثت مدى كبيرا فى اليقظة الاسلامية التى كانت تزداد يوما بعد يوم .

---

(١٢) يؤكد أكثر الايرانيين وغيرهم ممن ترجعوا لجمال الدين أن موته لم يكن طبيعيا ، وأنه نفخ فى شفته بمادة سامة ، سببت له حالة مرضية تشبه السرطان (مقدمة العروة الوثقى ، ص ٢٧) .

### المؤامرة الاستعمارية لاجهاض العالم الاسلامى :

كانت أوروبا دائما تخشى أن يعود العرب الى سابق قوتهم بعد أن قهرتهم زما طويلا . وكانت تود أن يظل هذا الجزء من العالم ممزقا ولا تقوم له قائمة لكي لا ينتقم من الغرب مرة أخرى فتضيع بذلك المكاسب الاستعمارية التي حققها الغرب بالسيطرة على الشرق الاسلامى . يقول مورو بيرجر فى كتابه « العالم العربى المعاصر » : ان الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجا عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الاسلام يجب محاربة الاسلام للحيولة دون وحدة العرب التى تؤدى الى قوة العرب لأن قوة العرب تتصاحب دائما مع قوة الاسلام وعزته وانتشاره<sup>(١٣)</sup> .

وفى سنة ١٩٠٧ كان رئيس وزراء بريطانيا هو سير هنرى كامبل بانرمان Sir Henry Combell Bannerman وكان مهتما بالدراسات التاريخية وحريصا على أن يمد فى عمر الامبراطورية البريطانية ، فأمر بتشكيل لجنة من كبار وأساتذة الجامعات فى شتى المجالات الاقتصادية والبترولية والزراعية والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار وأعلام السياسة فى الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة فى كل من فرنسا وهولندا والبرتغال وأسبانيا وإيطاليا وإنجلترا وبلجيكا . واجتمعت هذه اللجنة فى لندن فى سنة ١٩٠٧<sup>(١٤)</sup> وافتتح أعمالها كامبل بانرمان طالبا

(١٣) مجلة روز اليوسف المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ٦/٦/٢٩ وانظر أيضا : قادة الغرب يقولون ، من منشورات المختار الاسلامى من سلسلة نحور وعى اسلامى ، ص٤٤ - ٤٥ نشر القاهرة سنة ١٩٧٧ الطبعة الثالثة .

(١٤) حسن صبرى الخولى ، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص١١٣ ، ج١ ، وانظر أيضا : انطون سليم كنعان ، فلسطين والقانون ، تقرير كامبل بانرمان ، بحث منشور فى كتاب المؤتمر الثالث لاتحاد المحامين العرب الذى عقد فى دمشق سنة ١٩٥٧ ، ص٤٥٧ - ٤٨٩ .

منها بحث الوسائل الكفيلة بعدم سقوط الاستعمار الأوربي أو على الأقل تأخير مصيره فقال ما نصه :

« ان الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر الى حد ما ، ثم تتحلل رويدا ثم تزول والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة • وغيرها • • فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهيائه ، أو تؤخر مصيره؟ وقد بلغ الان الذروة ، وأصبحت أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها بينما لايزال العالم الآخر فى صرخ شبابه يتطلع الى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية هذه هى مهمتكم أيها السادة على نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا » •

ومن هذه الكلمة الافتتاحية حددت مهمة اللجنة فى الاتى :

١ - اقتراح الوسائل الكفيلة بمنع سقوط الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية القائمة يومئذ •

٢ - العمل على عرقلة العالم غير الأوربي وعدم تقدمه وتطوره بحرمانه من التعليم والتنظيم والرفاهية حتى يطمئن الاستعمار الى وجوده فيه أطول مدة ممكنة •

وقامت اللجنة بدراسة تاريخية موسعة « وانتهت من دراستها الى تطور عام لمستقبل الاستعمار الأوربي • وضعوه فى تقرير اشتهر بتقرير بانرمان قدموه الى وزارة الخارجية البريطانية التى أحالته بعد دراسته الى وزارة المستعمرات •

ويستعرض التقرير مصالح الدول الاستعمارية والمجالات الحيوية لكل دولة ومناطق نفوذها فى العالم ، وتحدث عن أهمية البحر المتوسط

على مر العصور التاريخية وأن من يسيطر عليه يستطيع التحكم في العالم ، وأوضح مدى الأخطار التي تنزل بالدول الاستعمارية إذا ما هي خسرت مستعمراتها •

ثم تحدث التقرير عن منبع الخطر على الاستعمار وحده في منطقة البحر المتوسط وبالتحديد على شواطئه الشرقية والجنوبية حيث العالم العربي الممتد بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي ، وتضم هذه المنطقة قناة السويس ثريان الحياة لأوروبا في هذه المنطقة الحساسة يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة والآمال وجميع مقومات التجمع والترابط والاتحاد ، كما تتوافر له كل أسباب القوة والتحرر والنهوض نتيجة لنزعاته التحررية وثرواته الطبيعية الكثيفة وموارده البشرية المتزايدة ، وقدر عدد سكانه سنة ١٩٠٧ بحوالى ٣٥ مليوناً من البشر ، ويمكن أن يرتفع هذا العدد في مدى قرن واحد الى مائة مليون (١٥) •

ثم تسأل التقرير كيف يمكن أن يكون وضع العرب إذا توافروا فعلاً ، ودخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكنسات الثورة الصناعية الأوروبية اليهم ؟ وما يحدث لو انتشر التعليم وعمت الثقافة في أوساط هذا الشعب ؟ وما هو مصير هذه المنطقة إذا تحررت وتمكن أبناءها من استغلال ثرواتها الطبيعية لصالحهم •

ويجيب التقرير على هذه التساؤلات بما يلي :

« عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتماً بالامبراطوريات الاستعمارية كما حلت من قبل بالاغريق والرومان » •

(١٥) يلاحظ أن هذا التقدير أقل بكثير مما وصل اليه تعداد العالم العربي في أقل من قرن فقد وصل الآن ١٩٨٥ الى حوالى ١٥٠ مليون نسمة.

ثم يصل التقرير الى وصف العلاج لدرء هذا الخطر المحتمل على الاستعمار ، فيوصى الدول ذات المصالح الاستعمارية المشتركة بأن تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة مجزأة متأخرة ، وعلى بقاء شعبيها فى حالة التفكك والجهل والتناحر ومحاربة اتحصاد هذه الجماهير العربية أو ارتباطها بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى .

واقترح التقرير وسيلة سريعة لدرء الخطر من المنطقة العربية فأوصى بالعمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الأسيوى » واقترح لذلك اقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معا بالبحر المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة<sup>(١٦)</sup> .

وكان معنى التوصية الأخيرة هو زرع شعب غريب عن المنطقة العربية شرقى قناة السويس أى فى سيناء وفلسطين باعتبارهما المناطق الوحيدة التى يمكن أن تفصل آسيا عن افريقيا كلية وتمزق الوطن العربى كله ، وكان هذا التقرير ورقة عمل للاوربيين بصفة عامة وللدبلوماسيين الانجليز بصفة خاصة تعمل فى ضوءها فى منطقة الشرق العربى .

ولقد وجدت الأحلام الصهيونية فى هذا التقرير فرصتها الذهبية فتحالفت مع المخاوف الأوربية لخلق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين لعرقلة النهضة العربية الاسلامية المرتقبة والاثنية لا محالة ، ومن ثم ارتباط وثيق بين الصهيونية والاستعمار منذ ذلك التاريخ وهو ارتباط استراتيجى مصرى .

ولعب اليهود دورا خطيرا فى الأحداث العالمية قبل الحرب العالمية الاولى وأثناءها ، وخاصة فى الدولة العثمانية ، وكان أثر يهود الدونمة

---

(١٦) المرجع السابق . ص ١١٦ ، وانظر ايضا : ابراهيم خليل أحمد ، الاستشراق والتبشير ومصلتهما بالامبريالية العالمية ص ٣ - ٥ .

واضحاً في حركة انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٩ ، فكان منهم أناس يعدون أركاناً في حركة جمعية الاتحاد والترقي التركية .

#### الاستعمار يعمق الفارقة بين المسلمين :

لما صفيت الدولة العثمانية وقضى الاستعمار وكانت رائدة العالم الاسلامي ، وألغيت الخلافة سنة ١٣٤٢ هـ أصبح المسلمون يواجهون الدول الاستعمارية فرادى فكان من السهل ابتلاعهم في إطار ما سمي بالاستعمار تحت الوصاية والانتداب ذلك النوع من الاستعمار الذي نشأ في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وعلى الرغم من محاولة علماء الأثر الشريف رآب الصدع في الكيان الاسلامي تلك المحاولة التي تمثلت في الدعوة الى عقد مؤتمر عالمي نقادة العالم الاسلامي بالقاهرة تحت رعاية الأثر لبحث أمر الخلافة الاسلامية التي ألغاه مصطفى كمال من تركيا ، ومحاولة اعادتها الى حياة المسلمين السياسية أقول على الرغم من ذلك فان الاستعمار كان لهذه المحاولة بالمرصاد وضربها بسلاح التفارقة بين المسلمين ، ذات الحدين .

التفارقة في المجال السياسي وعدم اتحادهم حيث أوعز الى الشريف حسين شريف مكة بأن يعلن نفسه خليفة على المسلمين دونما بيعة منهم ودون الاجتماع معهم في القاهرة بل ومناوئته لهم في فكرة الاجتماع بالاضافة الى موقف المسلمين الهنود الذين كانوا خاضعين للاستعمار الانجليزي فقد أرسلوا يشككون في فكرة المؤتمر .

والتفارقة بين المسلمين في مجال الفكر عندما ألقى الاستعمار بينهم بحجر لتفريقهم عندما اجتمعوا على ضرورة عودة الخلافة ونشطت حركة الأفكار من أجل ذلك فألقى في الساحة بواسطة أحد أذنايه بفكرة صيغت في كتاب بعنوان : « الاسلام وأصول الحكم » وارتطمت هذه ( م ١٢ — العالم الاسلامي )

الأفكار العميلة بأفكار المسلمين الأصيلة وتصارعت معها وأوجدت شرحاً  
فى الفكر الإسلامى السياسى المتعلق بنظام الحكم فى الإسلام ما زال  
باقياً حتى يومنا هذا •

ولاذ المسلمون فى فترة ما بين الحربين الأولى والثانية الى الهدوء  
بعد ضربهم وتفريقهم ونمى فيهم الاستعمار (روح الاقليمية الضيقة)  
وغذاها فأصبحت قوية لدى حكام المسلمين ، ولكن الشعوب الإسلامية  
بدأت تذكر ماضيها العزيز ووضعها المهيى فى يد الاستعمار ونادى كثير  
من المفكرين بضرورة العودة الى الوحدة الإسلامية بالاستقلال أولاً عن  
ارادة الاستعمار ومن يتتبع الصحافة الإسلامية منذ ما بعد الحرب العالمية  
الأولى الى الحرب العالمية الثانية يتبين له مدى عاطفة الشعوب الإسلامية  
نحو الخلافة وضرورة الوحدة •

وجاءت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) نتيجة للاضطراب  
الأوروبى على المستعمرات فى بلاد المسلمين وغيرهم من الشعوب  
المتخلفة ، فطحن هذه الحروب أول ما طحنت المستعمرين وكشفت  
الاستعمار أمام الرأى العام العالمى فاضطر الى الدخول فى دور جديد  
تحت شعار منح الاستقلال المزيى لكثير من شعوب العالم •

لكن استنزاف الموارد فى العالم الإسلامى ظل مستمراً لصالح  
الغرب تحت اشراف مايسمى بشركات أو مؤسسات ظاهرها الاقتصاد  
الحر وباطنها الاستغلال لصالح الاستعمار •

وفى تلك الآونة طرحت صيغة القوميات الضيقة بشدة للتجمع  
الجنسى أمام أطماع الاستعمار ، ولكن هذه صيغة أثبتت فشلها على يد  
مصطفى كمال أتاتورك ورضا بهلوى وابنه من بعده محمد رضا بهلوى  
وجمال عبد الناصر وسبب فشلها أنها كانت خاوية بلا روح وأعنى بها  
الروح الإسلامية ، وذلك لأن الاستعمار هو الذى ساهم فى صنع هذه  
الصيغة ، وسقطت هذه الحركة فى الامتحان الذى دخلته عندما دخلت



مصر على سبيل المثال الحرب ضد اسرائيل ، فتلقت هزيمة ساحقة فى سنة ١٣٨٧هـ ( ١٩٦٧ م ) •

وحدثت حركة رد فعل بعد هزيمة العرب أمام اسرائيل والاعتداء على المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩ م حيث قام اليهود بحرق جزء منه فاستيقظ العالم الاسلامى ورأى أنه اذا أراد العيش الكريم وسط التكتلات العالمية ( السوق الأوروبية المشتركة ، الاتحاد السوفيتى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، الصين ) فإنه لابد أن يتكامل مثلها ، وطرحت صيغة كومنولث اسلامى ولكنها كانت فكرة اقتصادية فحسب ولم تنتقل الى حيز التنفيذ العملى •

وطرحت فكرة الجامعة الاسلامية من جديد لتوحيد السياسة والثقافة والاقتصاد والحرب ، واحياء اللغة العربية وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الاسلامى ، ومحو العنصرية بين المسلمين وذلك كما طرحها الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن الوحدة الاسلامية •

وطرحت فكرة للتضامن الاسلامى من الملك فيصل بن عبد العزيز وقطعت أشواطاً ناجحة فى ميدان هذا التضامن •



## الفصل السابع

دور الملك فيصل بن عبد العزيز

في دعم التضامن الاسلامي

كانت فكرة التضامن الاسلامي قبل الملك فيصل بن عبد العزيز ( ١٣/٣/١٣٩٥ هـ ) مجرد أمل دعا اليه المفكرون ولكن هذا الأمل تحول على يد الملك فيصل الى حقيقة بفضل جهوده في هذا المجال ، ففي جو سادت فيه الاقليمية الضيقة التي خلقها الاستعمار وغذاها حتى أصبحت قوية وخاصة لدى حكام المسلمين طرح الملك فيصل صيغة عبقرية حث قال لزعماء المسلمين فلتتضامن في النوائب والكوارث والنزلات وكل دولة على حالها من ناحية نظامها السياسي سواء كان ملكيا أو جمهوريا ، فأسس رابطة العالم الاسلامي لهذا الغرض في عام ١٣٨١ هـ وجعل مقرها مكة المكرمة •

وبدأت ( رابطة العالم الاسلامي ) تتحرك لربط ما انقطع من علائق الود بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بفضل ما وضع لها الملك فيصل من أساليب حكيمة تضمن لها الانطلاق والفعالية ، ففي سنة ١٣٨٤ هـ نلقت الرابطة دعوة رئيس جمهورية الصومال الى اجتماع قمة اسلامي لوضع أسس التضامن الاسلامي ، واجتمعت وفود من العالم الاسلامي ، من أجل هذه الغاية في مكة وقرروا تأييد دعوة التضامن الاسلامي •

وفي سنة ١٣٨٥ هـ بدأ الملك فيصل بعدة رحلات الى أقطار العالم الاسلامي لدعم التضامن الاسلامي فزار ايران والأردن والسودان وباكستان وتركيا والمغرب وغينيا ومالي وتونس ، وعلى الرغم من الحملات التي وجهت لهذه الحركة من الحاقدين على الاسلام من الشيوعيين

والصهاينة والاستعمار وأذئابهم فى العالم الاسلامى الا أن هذه الدعوة تقدمت الى الأمام بخطى قوية بفضل صمود الملك فيصل .

وفى عام ١٣٨٧ هـ وقعت الهزيمة المرة بالعرب فى الحرب التى شنها اليهود عليهم واستولت اسرائيل على شبه جزيرة سيناء من مصر ومرتفعات الجولان من سوريا والضفة الغربية لنهر الأردن من المملكة الأردنية الهاشمية وبلغت مأساة العرب والمسلمين أقصاها باعتداء اليهود على المسجد الأقصى وحرقه فى عام ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م بهدف إعادة بناء هيكل سليمان مكانه<sup>(١)</sup> .

وفى أعقاب الحريق وجه الملك فيصل بن عبد العزيز النداء التالى للامة الاسلامية داعيا للجهاد لتحرير المسجد الأقصى باعتباره السبيل الوحيد لاسترداد كرامة المسلمين واستعادة مقدساتهم .

« فى هذه اللحظة التاريخية التى امتدت فيها يد الصهيونية الآئمة الى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومصرى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فانى أناشد قادة المسلمين وشعوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها أن يهبوا لتحرير مقدسات الاسلام فى القدس العزيزة متساحين بالايمان الذى هو أقوى من أى سلاح وواضعين أمام أعينهم ما وعدهم الله به فى كتابه العزيز الذى يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ويقول عز وجل « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ان الصهيونية اللثيمة الماضية فى عدوانها الاجرامى غير عابئة بالقيم الروحية والمقدسات الدينية لا تؤمن الا بمنطق القوة خصوصاً بعد أن أصبحت الأمم المتحدة عاجزة عن الزام اسرائيل بتنفيذ أى قرار من قراراتها ، وان جميع الحلول السلمية التى تطلع على العالم كل يوم ما هى الا سراب تعطى الفرصة للصهيونية العالمية لتنفيذ مخططاتها التوسعية فى السيطرة على العالم .

(١) حركة التحرر الوطنى الفلسطينى « فتح » الاعلام المركزى ( قصة الأقصى الذى احترق ) القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٣٣ .

أخواني : لقد ناشدتكُم في موسم الحج الفائت أن تهبوا لتحرير المقدسات الدينية في فلسطين وأنشدكم الآن بإعلان الجهاد المقدس بعد أن استنفذت جميع الطرق السلمية • ونحن على يقين بأن جميع الشعوب المؤمنة بالله والمتمسكة بمبادئ الحق والعدل لتؤيدنا في قضيتنا وستهب لنصرتنا وعلينا نحن المسلمين أن نتنادى ليوم قريب نلتقي فيه جميعا على أرضنا المغتصبة وانقاذ مقدساتنا الدينية من براثن الصهيونية العارضة ولنفوز بإحدى الصنيتين : النصر أو الشهادة (٢) •

وتجاوبا مع نداء الملك فيصل دعا الملك الحسن الثاني ملك المغرب الى عقد مؤتمر قمة في الرباط للتباحث حول المؤامرات الصهيونية والاستعمارية التي تستهدف مقدسات المسلمين •

وفي يوم الاثنين ١١ من رجب ١٣٨٩ هـ ( ٢٢ من سبتمبر ١٩٦٩ ) افتتح ( أول مؤتمر قمة اسلامي ) في التاريخ بمدينة ( الرباط ) عاصمة المملكة المغربية وكانت الدعوة قد وجهت الى ٣٥ دولة اسلامية لبي النداء منها ٢٥ دولة ، وقد أعلن المؤتمر المبادئ الآتية :

الالتزام بالقيم الاسلامية وميثاق الأمم المتحدة وبحقوق الأساسية للإنسان ، ونبذ العنصرية وتأييد الحرية في كافة أنحاء العالم وصيانة السلام والأمن الدوليين •

وتمخض المؤتمر عن توصية بعقد ( مؤتمر لوزراء خارجية الدول الاسلامية ) في مارس ١٩٧٠ بمدينة ( جدة ) لوضع أسس لقيام أمانة دائمة لمؤتمر الدولة الاسلامية •

وقد اكتفى المؤتمر باستنكار الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية

---

(٢) مؤتمر القمة الاسلامي ، صدر عن جريدة الندوة التي تصدر في مكة المكرمة ١٤٠١ هـ ص ٢٣ وبه دراسة عن مؤتمرات القمة •

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ وندد بجريمة احراق المسجد الأقصى ودعا الدول الأربع الكبرى لبذل المزيد من الجهد المشترك لتحقيق الانسحاب الكامل غير المشروط لاسرائيل من الاراضى العربية المحتلة ، وأيد حقوق الشعب الفلسطينى المغتصبة ، وتحفظت كل من ( تركيا ) و إيران على قرار المؤتمر بدعم المقاومة الفلسطينية<sup>(٣)</sup> .

ومهما قيل عن الاختلافات التى نشبت فى المؤتمر بين المسلمين فيكفى أن زعماء المسلمين اجتمعوا وأول الغيث قطرة واتفقوا أيضاً على أن تكون لهم لقاءات اسلامية دورية • لبذل الجهود لجمع الكلمة والتضامن فى الأزمات •

وأثمرت فكرة التضامن اجتماعات دورية لقادة وزراء المسلمين وأنتجت مؤسسات ثقافية واقتصادية وسياسية ذات قدرة فعالة فى المجال الدولى الاسلامى والعالمى ، فقد اجتمع وزراء خارجية الدولة الاسلامية فى أحد عشر مؤتمر حتى مطلع عام ١٤٠١هـ بالاضافة الى ثلاثة مؤتمرات للقمّة آخرها قمّة مكة المكرمة ١٤٠١هـ ما عدا الاجتماعات الاستثنائية •

وكان اجتماع وزراء الخارجية الاسلامى ( الأول ) فى « جدة » فى ١٥ من المحرم ١٣٩٠هـ ( ٢٣ من مارس ١٩٧٠ ) افتتح جلسات المؤتمر الملك فيصل بن عبد العزيز معبراً عن أمه فى أن يخرج المؤتمر بنتائج عملية تعبر عن تطلعات جماهير الأمة الاسلامية •

وقرر المؤتمر الاجتماع مرة كل عام لمراجعة تطبيق القرارات وتقديم التوصيات للعمل المشترك وتعيين زمان ومكان مؤتمرات القمّة الاسلامية • كما قرر انشاء أمانة عامة للمؤتمر الاسلامى مقرها المؤقت فى مدينة جدة لتكون حلقة اتصال بين الدول الأعضاء ومتابعة تنفيذ

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥ •

قرارات ويرأس الأمانة أمين عام يعين لمدة عامين<sup>(٤)</sup> وكان أول أمين هو السيد تنكو عبد الرحمن رئيس وزراء ماليزيا ، والصالى هو الحبيب الشطلى من المغرب .

وفى الفترة من ١٤ — ١٨ محرم ١٣٩٢ هـ ( ٢٩ فبراير — ٤ مارس ١٩٧٢ ) عقد المؤتمر « الثالث » لوزراء الخارجية فى ( جدة ) ووضع « ميثاق المؤتمر الإسلامى » الذى نص على تأسيس منظمة باسم ( المؤتمر الإسلامى ) تضم مؤتمر القمة ومؤتمر وزراء الخارجية ويكون لها أمانة عامة ، ونص على أهداف هذه المنظمة : لتعزيز التضامن الإسلامى بين الأعضاء ودعم التعاون بين الأعضاء فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والقضاء على الاستعمار والتفرقة العنصرية ودعم السلام العالمى وتحرير الأماكن المقدسة فى فلسطين .

وقررت الدول الأعضاء بأنها تتعهد فى سبيل تحقيق الأهداف المذكورة فى ما سلف وتستوحى المبادئ التالية : المساواة التامة بين اندول الأعضاء فى الحقوق والواجبات ، واحترام حق تقرير المصير وعدم التدخل فى شئون الغير الداخلية واحترام سيادة كل اقليم واستقلاله ، وحل المنازعات فيما بينها بالطرق السلمية ، والامتناع عن استخدام القوة أو التهديد بها بين الدول الأعضاء .

ووافق المؤتمر على مشروع تأسيس « وكالة أنباء اسلامية » على أن يكون مركزها الرئيسى « جدة » ورعاية الجماعات الاسلامية وتقديم المعون لها والاهتمام بنشر الكتب الدينية وتنشيط الدراسات الاسلامية والألعاب الرياضية .

(٤) انظر : جريدة المدينة السعودية عدد ١٨ المحرم سنة ١٣٩٠ هـ .

### مؤتمر القمة الثاني :

فى لاهور (\*) بباكستان من ٢٢ فبراير سنة ١٩٧٤ :

جاء هذا المؤتمر بعد انعقاد خمسة مؤتمرات لوزراء الخارجية الاسلامية فقد ضم ٣٨ بلدا اسلاميا ممثلا ٦٠٠ مليون مسلم أى حوالى ١٥ ٪ من سكان العالم ، وجاء تعبيرا عن ظهور قوة جديدة فى المسرح الدولى تسعى لأن تلعب دورا فى قضايا العالم ، وتجلت فى « مؤتمر لاهور » الوحدة الاسلامية بأسمى معانيها فى بيان لاهور الذى عزز التضامن الاسلامى من أجل استعادة الحقوق المقتضية للمسلمين فى فلسطين وغيرها والتضامن من أجل القضاء على الفقر والمرض والجهل فى البلاد الاسلامية واستغلال الدول المتقدمة للدول النامية ، والتعاون من أجل التضامن الاقتصادى بين الدول الاسلامية وضمان رفاهيتها (٥) .

وفى فاس فى ١٠ من جمادى الثانية سنة ١٣٩٩ هـ عقد مؤتمر وزراء الخارجية العاشر ، وفيه اتضحت هيئات التضامن الاسلامى ومؤسساته وهى :

صندوق التضامن الاسلامى ويتكون مجلس هذا الصندوق من ١٣ دولة اسلامية وبلغت حصيلته قبل قمة مكة ١٢ مليون دولار وهو مبلغ صغير يساهم فى مساعدة المدارس والجامعات الاسلامية ويحاول انشاء جامعة اسلامية فى نيجيريا هى جامعة النيجر الاسلامية ، ويقدم العون للمسلمين المنكوبين ويذكر رئيس هذا الصندوق وهو الدكتور

---

(\*) تعنى كلمة « لاهور » باللغة الأردية أرض الطهارة ، وقد دخل الاسلام مدينة لاهور على يد حملة بقيادة محمد بن القاسم التى فتحت السند فى أواخر القرن الأول الهجرى فى العصر الأموى وإبان الاحتلال البريطانى كانت لاهور عاصمة لاتليم البنجاب وبعد ظهور دولة الباكستان كانت لاهور عاصمة لباكستان الغربية .

(٥) أنظر : مؤتمر القمة الاسلامى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ — ٥٠ .



عز الدين ابراهيم قبل انعقاد المؤتمر الأخير في مكة « ربيع الأول ١٤٠١ »  
بأنه طلب ألف مليون دولار على الأقل للصندوق لتمكينه من القيام  
بأعبائه<sup>(٦)</sup> .

ومن المنظمات الإسلامية البنك الإسلامي للتنمية ومقره الرئيسي  
جده ووكالة الأنباء الإسلامية ومنظمة اتحاد الاذاعات الإسلامية في جده  
أيضا .

ولقد أنتجت حركة التضامن الإسلامي كثيرا من أنماط التعاون منها  
حركة البنوك الإسلامية التي كثر انشاؤها في الآونة الأخيرة ، وانشاء  
الجامعات الإسلامية بدلا من الجامعات العلمانية التي نشأت في ظل  
الاستعمار وحركة تقنين الشريعة الإسلامية للاستعاضة بها عن القوانين  
الوضعية الأوروبية :

#### قمة اسلام آباد الطارئة :

في مطلع عام ١٩٨٠ وفي شهر يناير بالتحديد اجتاح الروس  
أفغانستان في نحو مائة ألف جندي بالدبابات والطائرات وأجهضوا  
المقاومة الإسلامية لحكومة كابول العميلة للروس وشقتوا رجالها في  
الجبال وأعلنت روسيا أنها دخلت البلاد بطلب من حكومة أفغانستان  
التي قام على رأسها العميل الجديد ( بابر كاركمل ) بعد قتله لحفيظ الله  
أمين الذي قتل معلمه الشيوعي وأستاذ المدرسة الشيوعية في أفغانستان  
( نور محمد تره كي ) قبل ثلاثة أشهر من الزحف الروسي على البلاد .

فهب العالم الإسلامي بعد أن أدرك مؤخرا بعد فوات الأوان أن  
الاطماع الروسية في العالم الإسلامي لا تنتهي عند حد وأن أفغانستان  
ليست مقصودة بذاتها فحسب بل هي في الطريق الى غيرها وتتزايد

(٦) ذكر ذلك في مقابلة تليفزيونية في المملكة العربية السعودية عام  
١٩٨٠ م .

المسلمون فى كل مكان بالاجتماع من أجل أفغانستان واجتمعوا فى اسلام آباد بباكستان فى ٨ من ربيع الأول ١٤٠٠هـ ( ٢٦ من يناير ١٩٨٠م)

ولم يستطع المؤتمر أن يفعل شيئاً لأفغانستان السليبية سوى اعلان الأسف لما حدث واستنكاره للعدوان الأثيم الذى يعتبر خرقاً للقانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة ، ونادى المؤتمر بالانسحاب الفورى للروس ، ولكن ذلك الطلب من مصدر ضعيف وتفرق فى الكلمة ، لا من مصدر قوة ، نعم لأن بعض الدول التى اجتمعت مع المسلمين فى المؤتمر والتى تمثى فى ركاب روسيا مثل سوريا واليمن الجنوبية وليبيا والجزائر لم تقبل حضور وفد رجال المقاومة الأفغانستانية للمؤتمر ، وكان هذا منتهى التخاذل والخوف من روسيا الذى أملاه الضعف . ولم تكف هذه المجموعة بهذا الموقف بل هددوا بافشال المؤتمر اذا أقدم على ادانة روسيا وقال بعضهم اذا أدنا روسيا فيجب أن ندين أمريكا أيضاً ، ونتج عن هذا الموقف أن المشتركين فى المؤتمر أخذوا يتضاربون بالأقوال لتجريح بعضهم بعضاً للتفريق لا للتجميع .

والمضحك المبكى أن المؤتمرين اختلفوا فى بداية المؤتمر على اللغة التى تدار بها جلسات المؤتمر ، فالدول التى كانت مستعمرات فرنسية فى الماضى طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هى الفرنسية ، أما الدول التى كان بها استعمار انجليزى فقد أصرت على أن تكون لغة المؤتمر هى الانجليزية وبذلك كان انقسامهم فى موضوع أفغانستان انقسام مبول الى أمريكا أو الاتحاد السوفيتى ، وفى مسألة لغة المؤتمر كان انقساماً استعمارياً ، وليس هذا فى اللغة فقط وإنما فى الاتجاهات السياسية والمشارب الثقافية .

وأكد وفد المملكة العربية السعودية على جعل اللغة العربية التى

هى لغة القرآن الكريم هى لغة المؤتمر وتابعتها فى ذلك بعض الدول<sup>(٧)</sup> .

وازاء عجز قمة اسلام آباد الطارئة كان لابد من عقد قمة أخرى لتصحيح الأوضاع وإعادة الترابط : فدعت السعودية الى عقد مؤتمر للرؤساء والملوك فى مكة المكرمة ، وخاصة أن اسرائيل أقدمت على نفس السنة على اعلان القدس عاصمة دائمة لها بشطريها العربى واليهودى ، فكان هذا حافزا آخر على الاجتماع .

#### قمة مكة ١٤٠١هـ :

فى مكة اجتمع ملوك ورؤساء العالم الاسلامى فى مؤتمرهم الثالث<sup>(٨)</sup> فى ١٩ من ربيع الأول ١٤٠١هـ فى الوقت الذى تهادى فيه الروس فى احتلالهم لأفغانستان واستمرارهم فى تغيير طبيعة البلاد الاسلامية ، وقهرهم للروح الأفغانية الاسلامية ، كما تمادت اسرائيل فى عنادها وجبروتها ازاء رفض الحقوق العربية والفلسطينية فى الوقت الذى اندلعت فيه حرب محرمة بين المسلمين فى كل من ايران والعراق ، وألقت هذه الظروف على المؤتمر بالمسئولية .

وتم افتتاح المؤتمر فى مكة فى عصر يوم ١٩ من ربيع الأول واستكمل أعماله فى مدينة الطائف ومن ورائه تطلعات المسلمين وآمالهم فى أن يوفق المؤتمر فى اتخاذ قرارات أشد حسما فى القضايا الاسلامية ، ومغايرة للطابع الذى اتسمت به قرارات وتوصيات المؤتمرات الاسلامية السابقة مما زاد من أعباء المسئولية على المجتمعين .

---

(٧) كان قد تقرر فى مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامية الثالث بجده سنة ١٣٩٢هـ جعل اللغات العربية والانجليزية والفرنسية هى لغات المؤتمر واعلن ذلك فى ميثاق المؤتمر .

(٨) كانت قمة اسلام آباد طارئة ومن ثم لم تحتسب ، واذا تم اجتماعها فان قمة مكة هى الرابعة . ولكن جرت العادة باحتساب المؤتمرات العادية دون الطارئة .

وبعد أن تشاور حكام ٣٨ دولة إسلامية اتفقوا على اعلان وثيقتين يعبران بهما عن الموقف الاسلامى من كافة القضايا الاسلامية •

الوثيقة الأولى : بلاغ مكة المكرمة •

الوثيقة الثانية : البيان الختامى للمؤتمر •

أما بلاغ مكة فقد كان معبرا عن تصميم المجتمعين على المضي فى توثيق التضامن الاسلامى والعزم على المقاومة الشاملة فى وجه العدوان الصهيونى ومضاعفة الجهد والسعى لرد ذلك العدوان واعادة العدة للجهاد من أجل الحقوق الاسلامية ، وأكد البلاغ رفض كل مبادرة لا تتبنى الخيار الفلسطينى المتمثل فى الحل العادل لقضية فلسطين والتعاهد على الجهاد لتحرير القدس ، كما أكد البلاغ دعم جهاد الشعب الأفغانى الى أن تنسحب قوات الاحتلال الروسى ، وأشار بلاغ مكة الى حرص الدول الاسلامية على السعى لقيام العلاقات الاقتصادية فى العالم على أسس العدل وسيادة نظام اقتصادى جديد •

وأكد البلاغ التزام الأمة بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، ودعى الى الاعتصام بتعاليم الدين والقيم الحضارية ، كما قرر قادة الدول الاسلامية دعوة الجمعية العمومية للامم المتحدة لدعم قبول أوراق اعتماد الوفد الاسرائيلى وتجميد عضويتها فى المنظمة الدولية ، ومطالبة الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى المعترفة بالعدو سحب اعترافها به وقطع جميع علاقاتها الاقتصادية والسياسية معه •

وأعلنوا عن قلقهم ازاء التنافس المتزايد بين القوتين الأعظم من أجل مناطق النفوذ وسعيها المتزايد لتكثيف وجودها العسكرى فى المناطق العربية المتخامة لدول العالم الاسلامى مثل المحيط الهندى والبحر العربى والبحر الأحمر والخليج ، وأكدوا بأن سلام الخليج واستقراره وأمنه انما هو مسئولية مطلقة لدول الخليج دون تدخل أجنبى •

كما دعوا جميع الدول التي بها أقليات مسلمة وتتعرض للاضطهاد الى تمكين هذه الأقليات من ممارسة شعائرها الدينية بحرية كاملة والتمتع بحقوقها المتساوية على أساس المواطنة في كنف الدولة وحرمة القانون .

ودعا البلاغ الى دعم التوسع في نشر العلم والمعرفة وتعزيز المؤسسات التعليمية في العالم الاسلامي وترسيخ المبادئ الاسلامية في التربية والثقافة واتساع مبادئ الاسلام في العالم لابرار مافيه من تقدم وخير للإنسانية ، والالتزام بدعم منظمة المؤتمر الاسلامي ومؤسساتها حتى تنهض بالمهام الملقاة على كاهلها ، وذلك كدعم صندوق التضامن الاسلامي وصندوق القدس ووكالة الأنباء الاسلامية<sup>(٩)</sup> .

وأما البيان الختامي : فقد تضمن عدة توصيات وقرارات غير منزومة في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية كان من أبرزها الالتزام بتحرير القدس العربية لجعلها عاصمة لفلسطين ، واعتبار قضية فلسطين جوهر مشكلة الشرق الأوسط واعتبارها قضية الأمة الاسلامية الأولى وطالب بضرورة انسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة .

كما طالب الملوك والرؤساء في بيانهم بضرورة انسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان ، ودعوا الى مضاعفة الجهد كي تظل أفغانستان دولة اسلامية مستقلة غير منحازة ، وشكل لجنة وزارية من وزراء خارجية غينيا وايران وباكستان وتونس وأمين عام منظمة المؤتمر الاسلامي لواصل السعي لحل القضية .

واتفق ملوك ورؤساء الدول الاسلامية على اعلان الجهاد المقدس لانقاذ القدس الشريف ونصرة الشعب الفلسطيني وتحقيق الانسحاب

(٩) انظر : نص بلاغ مكة منشور في مجلة رابطة العالم الاسلامي السنة التاسعة عشرة العدد الرابع ، ربيع الاخر سنة ١٤٠١ هـ .

من الأراضي العربية المحتلة وأوضحت الدول الاسلامية فى قرارها هذا أن للجهاد مفهومه الاسلامى الذى لا يحتل التأويل وإساءة الفهم ، وأن الاجراءات العملية لتنفيذه ستتيم وفقا لذلك وبالتشاور المستمر بين الدول الاسلامية •

ومن الأشياء الطيبة التى تمخض عنها المؤتمر تكوين لجنة للوساطة الاسلامية من رؤساء بعض الدول الاسلامية برئاسة الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى لحل النزاع العراقى الايرانى بالطرق السلمية وبدأت اللجنة فى مباشرة نشاطها بعد فض المؤتمر مباشرة ودعا المؤتمر العراق وايران الى الوقف الفورى لاطلاق النار بينهما وأعلن أن الدول الاسلامية وافقت على انشاء قوة اسلامية من أجل تطبيق وقف اطلاق النار اذا دعت الضرورة •

وقرر المؤتمر تمشيا مع سياسة التضامن فى الكوارث والمجاعات تشكيل لجنة للتضامن مع شعوب الساحل الافريقى المتضررة بالجفاف من الأمين العام ووزراء خارجية العراق والسعودية وماليزيا وفلسطين والامارات العربية المتحدة والكويت ، وينضم اليها ممثل عن اللجنة المشتركة بين الدول المتضررة من الجفاف •

ودعا المؤتمر لايجاد حل عادل وسلمى لقضية أريتريا وتأييد كل مايبذل من مساع للتوصل الى مثل هذا الحل وتشكيل لجنة مؤلفة من السنغال وغينيا والأمانة العامة لتقوم بالجهود السلمية لحل قضية أريتريا وعرض نتائجها على المؤتمر الاسلامى القادم لوزراء الخارجية •

وعبر المؤتمر عن التأييد الكامل للسكان المسلمين المضطهدين فى القرن الأفريقى ، وطالب بالانسحاب الكامل وغير المشروط لجميع القوى الأجنبية من القرن الأفريقى •

ووافق المؤتمر على انشاء محكمة عدل اسلامية ودعا الى عقد اجتماع لخبراء من الدول لأعضاء لوضع نظام أساسى لمحكمة العدل الاسلامية ، وكلف الأمين العام للمنظمة بوضع الترتيبات اللازمة لعقد اجتماع الخبراء ورفع النتائج الى المؤتمر الاسلامى لوزراء الخارجية •

ووافق المؤتمر على أن تكون اجتماعات القمة الاسلامية دورية كل ثلاث سنوات ، وأن تكون فترة انتخاب الأمين العام لمدة أربع سنوات غير قابلة للتجديد ، وبناء على دعوة من ملك المغرب لاستضافة مؤتمر القمة الاسلامى الرابع رحب الأعضاء بهذه الدعوة ووافق على تليبيتها<sup>(١)</sup>

وعلى العموم برزت فى قمة مكة عدة نشاطات وجهود ومحاولات انشاء مؤسسات اسلامية جديدة وتدعيم الموجود منها مثل : محكمة العدل الدولية ووكالة الغوث الاسلامية ووكالة الأنباء الاسلامية والبنك الاسلامى للتنمية وصندوق التضامن الاسلامى • وصندوق القدس والنجنة الاسلامية للشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومركز البحوث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية واتحاد الغرف التجارية والصناعية الاسلامة ، والمؤسسة الاسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية ومركز البحوث فى التاريخ والفنون والثقافة الاسلامية ، والمركز الاسلامى للتدريب الفنى والمهنى •

#### التضامن الاسلامى فى الميزان :

الواقع أن قمة مكة المكرمة كانت خطوة مباركة على طريق التضامن الذى أرسى قواعده الملك فيصل بن عبد العزيز من أجل حياة أفضل لسائر الشعوب الاسلامية ، لدرجة أصبحت معها الدول الاسلامية أكثر

(١) انظر : البيان الختامى لقمة مكة المكرمة المنشور فى مجلة رابطة العالم الاسلامى مرجع سبق ذكره •

قدرة على الوقوف فى وجه الطامعين فى البلدان الاسلامية » وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » •

واذا قارنا بين أول اجتماع للمسلمين فى القاهرة عقب الغاء الخلافة عام ١٩٢٦ وبين مؤتمر مكة فان الفارق لاشك كبير ، ففي مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة ١٩٢٦ كان الاستعمار ومازال يهيمن فى البلاد الاسلامية ومن بينها مصر ومازال قابضا على صولجانه بها ويده من حديد فما كاد المؤتمر يلتئم حتى تفرق جميع المؤتمرين بفعل ضعف المسلمين يومئذ وتكالب الدول الاستعمارية عليهم وتوحدتها ضدهم • أما فى مؤتمر مكة سنة ١٩٨١ فان الارادة أصبحت الى حد كبير حرة أكثر مما كان فى مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة ١٩٢٦ ، لدرجة أن حضر فى مؤتمر مكة المكرمة رؤساء ٣٨ دولة اسلامية بينما لم يحضر الى القاهرة سوى ممثلين عن دولهم من علماء وزعماء لا لا يزيد عن ثلاثين دولة وجماعة اسلامية وامتنعت كثير من الدول الاسلامية عن حضوره كما سلف أن أوضحنا •

وأثمرت فى الواقع صيغة التضامن الاسلامى الذى أرسى قواعدها الملك فيصل بن عبد العزيز ، صحيح أن المنظمة الاسلامية مازالت قراراتها وتوصياتها ضعيفة وغير ملزمة للاعضاء الا أننا لايمكن أن نتصور أن يصبح المسلمون بهذه السرعة قوة بعد طول تفرق وتمزق وغفلة وأن المسألة تحتاج الى وقت لكى تتخلص دولها من آثار الاستعمار وعصور الضعف والتخريب الاقتصادى والثقافى الذى حل بدولها ، وخاصة أن التكتلات الدولية مازالت تتربص بهم سواء فى الاتحاد السوفيتى وحلفائه ، أو فى المعسكر الغربى بزعامة أمريكا •

وعلى الرغم من تضارب المصالح بين الشرق الشيوعى والغرب المسيحى الا أنهم يتفقون بشأن كثير من القضايا التى تمس المصالح الاسلامية ، وهذا ماحدث ابان اجتياح روسيا لأفغانستان فى ٢٧ من ديسمبر ١٩٧٩م ( ١٤٠٠هـ ) فعلى الرغم من أن التفاهة الأمريكى أدى



اعتراضه الظاهري على عملية الغزو الشيوعي لأفغانستان ومنع بعض شحنات القمح الأمريكي عن روسيا ، وقاطع دورة الألعاب الأولمبية في موسكو سنة ١٩٨٠ م وغير ذلك من المظاهر الشككية ولم يتحرك عمليا لمساندة أفغانستان ، أقول على الرغم من ذلك فان احساس المسلمين الذي لا يخطئ يجعلهم يدركون بأن أمريكا متخوفة هي الأخرى من الصحو الإسلامية التي بدأت في العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة ، وهي متأمرة سرا على ضرب الأمانى الإسلامية في كل مكان في العالم .

وقد وصف مايكل آدمز رئيس تحرير مجلة ميدل إيست انترناشيونال « Meddle East Enternational » ( أى مجلة الشرق الأوسط العالمية ) سياسة النفاق الأمريكي هذه بقوله : « ان رد الفعل الأمريكي يقتصر على سلسلة من البيانات المتضاربة التي يرفضها حتى حلفاء أمريكا بوصفها ضربا من النفاق العديم المغزى (١١) » .

وان حركة انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية ليست منا ببعيد ، ففي سنة ١٣٩١ هـ ( ١٩٧١ م ) قامت حرب أهلية في باكستان الشرقية بمؤازرة الهند والاتحاد السوفيتي وزحف جيش هندي على أراضي البنغال ونجحت الهند في فصل باكستان الشرقية عن الغربية ، وأعلنت باكستان الشرقية نفسها جمهورية مستقلة باسم ( جمهورية بنجلادش ) كل هذا حدث بمساعدة الروس ، وكان النفاق الأمريكي كما عهدناه . فقد أبدى الأمريكان استياءهم للغزو وأسفهم لما حدث ولم يتحرك عمليا لمساندة باكستان الطليقة له .

وقد فضحت مذكرات هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا يومئذ والتي نشرت مؤخرا في جريدة الشرق الأوسط السعودية ، فضحت

---

(١١) من مقال للكاتب الانجليزي مايكل آدمز ، في جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تطبع في لندن والسعودية ، بعنوان « أين تقف باريس ؟ » عدد ١٩٨١/٩/٦ ص ٩ .

النفاق الأمريكى ، فانها أثبتت بأن تقسيم باكستان كان مؤامرة أيدتها موسكو بالسلح الذى أعطته للهند ، وقامت واشنطن بدور سلبي بأن منعت شحن الأسلحة الى باكستان فى وقت الحرب<sup>(١٢)</sup> الأمر الذى جعل باكستان عاجزة عن مواجهة الهند عسكريا ، ونجحت الهند فى اجتياح أراضيها ، وغطت أمريكا هذه الخيانة لدولة باكستان الحليفة بالنفاق الأمريكى المعهود ، سلسلة من الاستنكار والاستياء والأسف لما حدث .

وعلى العالم الاسلامى أن يعتمد على تضامنه من الآن فصاعدا وتكتله ووحدته وقوته الذاتية ، فانها كثيرة ومؤثرة ، وقد اكتشفها فعلا فى مؤتمراته المتعاقبة غير أنه مازال هيبا فى استعمالها ، ولعل فى مستقبل الأيام مايتيح له الفرصة فى التقدم الى الأمام خطوات أكثر ثباتا فى مجال الوحدة أمام التكتلات الدولية .

#### الجامعة الاسلامية الاقتصادية :

لعل خير انجاز قامت به حركة التضامن الاسلامى المعاصرة هو تنشيط الاقتصاد الاسلامى ، لأن النظام الاقتصادى الأوروبى سبقه بمراحل طويلة فقد قطع شوطا فى سبيل أعلى استغلال للثروة وتزويدها بدلا من كنزها ، وكان العالم الاسلامى يتسكع فى عصوره الوسطى ، ولم يستطع أن يطور النظام النقدى الاسلامى بما يتمشى مع النظم المصرفية الدقيقة بإدارات عصرية ، وأضحت التجارة والصناعة فى ظل الدول الاستعمارية فى بلاد المسلمين فى أيدي اليهود والنصارى من أهل البلاد أو بعض الدخلاء ، وجاءت ثروات البترول وغيرها من الثروات المعدنية فزلزلت العالم العربى والاسلامى زلزالا شديدا وتكدست أموال العرب فى بنوك أوروبا وأمريكا .

(١٢) انظر : مجلة الشرق الاوسط السعودية ، عدد ١٩٧٦/٤/١٥ م

والتفت العقلاء الى هذه الثروة وضرورة استغلالها فى العالم الاسلامى وكان على رأسهم الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود فأطلق النظام النقدى الاسلامى من عقاله ، ودعا الى الاسراع فى انشاء بنوك اسلامية تطبيق النظام النقدى الاسلامى ولا تتعامل بالربا ، بل تتعامل طبقا لنظام المضاربة المعروف فى المعاملات الاسلامية الذى بموجبه يقدم صاحب رأس المال ماله الى بيوت الخبرة والنتاج من المكسب بينهما حسب أصول مضبوطة ليس منها اشتراط نسبة من الربح لصاحب المال ، وانما العائد يقسم بينهما بعد دفع أجور العمال والموظفين ، وفى جميع المؤتمرات الاسلامية أثيرت مسألة المصارف الاسلامية وضرورة انشاء نظام مصرفى اسلامى ومن بينها مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الثانى بكراتشى بباكستان<sup>(١٣)</sup> أكد المؤتمر على ضرورة انشاء البنك الاسلامى العالمى للمتجارة والتنمية ، وأدرج فى جدول الأعمال فى مؤتمر وزراء الخارجية الثالث فى جدة<sup>(١٤)</sup> وقرر المؤتمر انشاء ادارة مالية واقتصادية لخدمة العالم الاسلامى بأمانة المؤتمر الاسلامى بجدة ، وتتولى دراسة واعطاء المشورة فى المواضيع الاقتصادية والبنوك الاسلامية<sup>(١٥)</sup> .

وفى مؤتمر القمة الاسلامى الثانى ببلهور بباكستان آف الذكر اتضحت معالم الجامعة الاقتصادية الاسلامية فأصدر المؤتمر فى بيانهم بعد أن تدارسوا الموقف الاقتصادى العالمى بصفة عامة والوضع الاقتصادى القائم فى البلاد الاسلامية بصفة خاصة قراراً ضرورة :

(١٣) انعقد مؤتمر كراتشى صباح السبت ٢٧ من شوال ١٣٩٠ هـ ( ١٩٧٠/١٢/٢٦ م ) .

(١٤) انعقد فى الفترة من ١٤ محرم حتى ١٨ منه ١٣٩٢ هـ « ٢٩ فبراير — ٤ مارس ١٩٧٢ م » .

(١٥) مؤتمر القمة الاسلامى ، مرجع سبق ذكره ص ٤٢ .

- ١ — القضاء على الفقر والمرض والجهل في البلاد الإسلامية .
  - ٢ — انتهاء استغلال الدول المتقدمة للدول النامية .
  - ٣ — تنظيم شروط التبادل التجاري بين الدول المتقدمة والدول النامية فيما يتعلق بموارد المواد الخام واستيراد السلع المصنوعة والخبرة الفنية .
  - ٤ — ضمان سيادة الدول النامية وسيطرتها الكاملة على مواردها الطبيعية .
  - ٥ — تخفيف المصاعب الاقتصادية التي تواجهها الدول النامية نتيجة لزيادة الأسعار .
  - ٦ — التعاون والتضامن الاقتصادي المتبادل بين الدول الإسلامية (١٦) .
- وقرر المؤتمر إنشاء لجنة من أجل إيجاد الوسائل والأساليب الكفيلة بتحقيق الأهداف المذكورة ، وضمان رفاهية الدول الأعضاء .
- وفي الدورة الخامسة للمؤتمر في (كوالا لمبور) عاصمة ماليزيا في غرة جمادى الثانية ١٣٩٤هـ (٢١ — ٢٥ يونيو ١٩٧٤) بحث وزراء خارجية الدول الإسلامية على إقامة رابطة للمتحمين وبورصة بين الدول الإسلامية لتأمين أسعار عادلة لمنتجاتها وحث المؤتمر على إنشاء بنك للتكنولوجيا لبناء خبرة تكنولوجية وعلمية متناسقة ، وتسهيلات مشتركة للتأمين ، وأساطيل للنقل البحري وشاحنات للبترول .
- وحدث المؤتمر الدول الإسلامية على تنشيط الاتفاقيات التجارية الثنائية بين الأعضاء ودراسة إنشاء تعريف تفضيلية ، كما دعا الدول

---

(١٦) المرجع السابق ص ٤٠ — ٥٠ .

الاسلامية الفنية الى استثمار أموالها فى الدول الفقيرة ، واقترح الأعضاء وضع نظام اقتصادى دولى جديد .

وتتم فى السبعينات اثناء عدة بنوك اسلامية فى العالم الاسلامى كان رائدها بنك فيصل الاسلامى المصرى وله فروع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى .

والمصرف الاسلامى الدولى للاستثمار والتنمية المصرى وغيرهما وشجعت الدول الاسلامية رأس المال الاسلامى من أن يتعامل مع هذه البنوك الاسلامية ، الأمر الذى دعا المصارف الربوية فى مصر الى فتح فروع لها بالمعاملة الاسلامية خوفا من عواقب الأمور المرتقبة التى أحست بها ، وهى خوف هذه البنوك من أن يسحب النظام النقدى الاسلامى الأموال من يدها .

ولا شك فى أن هذه الخطوات نحو الجامعة الاسلامية الاقتصادية ستتعمش الأوضاع الاقتصادية فى العالم الاسلامى من المحيط الأطلسى غربا الى أرخبيل الملايو شرقا وخاصة أن البلاد الاسلامية تحتوى على ثروات طبيعية هائلة فى مقدمتها ٧٠٪ من مطاط العالم الطبيعى و ٤٠٪ من الجوت العالمى و ٥٥٪ من الفوسفات و ٥٦٪ من الزيت الخام ، والنفط المخزون فى العالم أغلبيته فى أراضى اسلامية فى آسيا وافريقيا (١٧) وإذا نجحت الجهود المبذولة لاقامة تعاون اقتصادى بين الدول الاسلامية فان الدول الاسلامية مجتمعة ستحتل مكانها الحقيقى فى المجتمع الدولى خاصة اذا تبنت تجديد أنظمتها الاقتصادية وتقويهما .

---

(١٧) انظر : العدد رقم « ٣٦١٧ » من جريدة الندوة بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٧١ ضه تحقيق عن إمكانيات العالم الاسلامى الاقتصادية .

### الجامعة الاقتصادية بعد مؤتمر مكة :

فى مكة المكرمة انعقد المؤتمر الثالث لرؤساء وملوك العالم الاسلامى فى الفترة من ١٩ - ٢٢ ربيع الأول من عام ١٤٠١ هـ ( ٢٥ - ٢٧ يناير ١٩٨١ م ) والناس فى العالم الاسلامى يتطلعون لمزيد من الانجازات فى مجال الجامعة الاقتصادية للعالم الاسلامى لأنها هى التى تنقذهم من سيطرة الدول الاستعمارية بعد تكتلها الاقتصادى فى السوق الأوروبية المشتركة وغيرها .

وأعان المشتركون فى المؤتمر ادراكا منهم لمصالحهم المشتركة تصميمهم على العمل للقضاء على حالات الفقر التى ما تزال تعانى منها بعض شعوبنا الاسلامية .

وذكروا فيما سمي ببلاغ مكة : « ونعلن تصميمنا على دعم تعاوننا الاقتصادى على أساس تكامل امكاناتنا من أجل تطوير التنمية المتناسقة لبلداننا ، كما نعلن العزم وفقا لروح التضامن الاسلامى على دفع النهضة الاقتصادية للبلدان الأقل نموا بيننا ، كما نعلن حرصنا على ترشيد سياساتنا الانمائية بحيث يتوازن فيها الرقى المادى والروحى .

وندعو الى السعى لاقامة العلاقات الاقتصادية فى العالم على أسس العدل والتكافل لكى تتلاشى الفوارق الشاسعة بين الدول الصناعية وبين البلاد النامية والفقيرة ويسود نظام اقتصادى جديد قوامه العدل والتضامن تترشد فيه سياسات التنمية وتتكامل بما من شأنه القضاء نهائيا على المجاعة وأخطارها وألوان الحرمان وجميع أشكال استغلال الشعوب التى تعانى من آثار الاستعمار والتخلف وبما يحقق لها تنمية مواردها وحسن الانتفاع بها ونؤكد من جديد سيادة الدول على مواردها الطبيعية وحققها فى التحكم فى استغلالها (١٨) .

(١٨) انظر : بلاغ مكة المنشور فى مجلة رابطة العالم الاسلامى العدد الرابع السنة التاسعة عشرة ، ربيع الآخر ١٤٠١ هـ مرجع سبق ذكره .

وفى بيان المؤتمر الختامى اتفق ملوك ورؤساء ٣٨ دولة اسلامية فى المجال الاقتصادى على خطة عمل لتعزيز التعاون الاقتصادى بين الدول الأعضاء فى المجموعة الاسلامية ، وكلف الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الاسلامى بالاسراع فى اتخاذ الاجراءات المناسبة لتنفيذ هذه الخطة .

وتتم اقرار انشاء جهاز تابع لمنظمة المؤتمر الاسلامى يسمى المركز الاسلامى لتنمية التجارة ويكون مقره طنجة بالملكة المغربية والموافقة على النظام الأساسى للمركز وعلى ميزانيته للسنة المالية ٨١ - ١٩٨٢م، وترك المؤتمر لحكومة المغرب أن تتخذ كل التدابير الضرورية لتنشغيل المركز ، ودعى المؤتمر الدول الأعضاء لتقديم كافة المساعدات الضرورية الى المركز لتمكينه من تحقيق الأهداف والأغراض المرجوة منه .

ودعى المؤتمر فى بيانه الختامى الى المسارعة فى عقد اتفاقية تشجيع وحماية وضمان الاستثمارات فى الدول الأعضاء لأن ابرام مثل هذه الاتفاقية سيجعل الاستغلال الأمثل للامكانيات الاقتصادية الموجودة فى الدول الاسلامية ويتيح نقل الأموال بين الدول الأعضاء ويهيئ لشعوبها بلوغ التقدم الاقتصادى والرخاء وفوض المؤتمر الأمين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامى فى عقد اجتماع رفيع المستوى لمثلئ الدول الأعضاء قبل انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى الثانى عشر بوضع صيغة نهائية لنص الاتفاقية توطئة لقرارها من المؤتمر أو من الوزراء المختصين فى اجتماع يعقد لهذا الغرض .

وبحث المؤتمر مشروع انشاء اتحاد اسلامى للناقلين البحرين بجده فى المملكة العربية السعودية ووافق على هذا الانشاء وعلى الظام الأساسى للاتحاد ، وكلف الأمانة العامة بالعمل بالتعاون وثيق مع المملكة العربية السعودية على تحقيق هذا المشروع ودعا الدول الأعضاء الى الانضمام الى الاتحاد والتعاون معه لتمكينه من تحقيق أهدافه .

#### مساعداة عاجلة للءول الفقيرة :

وقرر المؤتمر أن يطلب من البنك الاسلامى للتنمية أن يمنح مساعداة عاجلة ومترابدة الى الءول الأعضاء الأقل نموا بما فى ذلك تمويل التجارة بشروط أكثر تيسيرا ومرونة • وحث الأعضاء على تقديم مساعداة لتلك الءول فى شتى الميااين وخاصة عند الطوارىء والأزمات •

وطلب من الأمانة العامة متابعة تنفيذ هذه القرارات والعمل على ضبط الاحتياجات الخاصة لهذه الءول وتقييم ماىحصل من تطور فى تنفيذ البرامج لفائدة هذه الءول •

وقرر المؤتمر تءعيما لهذه السياسة الاكتتاب فى رأس مال البنك الاسلامى للتنمية بمبلغ ١٢١٠ مليون دينار اسلامى وهو المبلغ الذى يمثل الحصة غير المكتتب بها فى رأس المال المسموح به وقيمتة ٢٠٠٠ مليون دينار اسلامى •

وقد قرر المؤتمر أن يطلب من الأعضاء تغطية رأس مال صندوق القدس والتضامن الاسلامى ودعم الميزانية السنوية لهذين الصندوقين فطلب لصندوق التضامن الاسلامى سنويا ما لا يقل عن خمسين مليون دولار والحث على تقديم التبرعات لهذا الصندوق ، وطلب تخصيص موارد اضافية له كطوابع البريد وغيرها ، وتنظيم حملات سنوية لجمع التبرعات فى كل دولة ، كما قرر المؤتمر تأكيد اقامة وقفية لفائدة الصندوق برأس مال قدره مائة مليون دولار ودعوة الءول الأعضاء الى تغطية هذا المبلغ باسهامات تطوعية •

وفى الطريق الى انشاء وكالة القوٹ الاسلامية طلب المؤتمر من



سا قَطْمَن تَجَل اَلدَّه

مجلس

سابقہ سید احمد علی

## المقدمة

صفحة

المقدمة . . . . . ٣

الفصل الأول - تمهيد تاريخي . . . . . ٩

أوضاع المغرب الاسلامي والاندلس . . . . . ١٤

التأثر التركي المغربي للدفاع عن شمال افريقيا . . . . . ١٩

أنواع المجاهدين في جيش عروج . . . . . ٢٥

موقف الأشراف العديدين في مراکش . . . . . ٢٧

الفصل الثاني - الالتفاف الأوربي حول العالم الاسلامي . . . . . ٢٩

اليهود يتجسسون لصالح الأوربيين . . . . . ٣٥

فضل المسلمين على البرتغاليين في الوصول الى الهند . . . . . ٣٧

البرتغاليون بينون مراكز استعمارية في الشرق . . . . . ٤٠

الفصل الثالث - أوضاع المشرق الاسلامي في مطلع القرن

العاشر الهجري . . . . . ٤٥

سلطنة المماليك في مصر . . . . . ٤٦

سلطنة العثمانيين . . . . . ٥٢

- الظروف والملايسات السياسية التي ظهر فيها العثمانيون ٥٢

الدولة الصفوية في فارس . . . . . ٦٣

الدولة الطاهرية والزيدون في اليمن . . . . . ٧٠

١ - نظام الامامة الزيدية . . . . . ٧٠

٢ - نظام الملك السني في الجنوب . . . . . ٧٠

الالتحام بالقوى الاسلامية . . . . . ٧٢

صفحة

الموقف في الهند	٧٨
معركة ديو الفاصلة	٨٠
محاولة التحالف مع الأخباش	٨٣
نتائج الغزو البرتغالي	٨٥
الفصل الرابع — العالم الاسلامي في ظل الدولة العثمانية	
حملة سليمان الخادم العثماني على اليمن والهند	٩٣
اقتسام تركة الرجل المريض	١٠١
تركيا المعاصرة	١٠٤
زوال الخلافة الاسلامية من العالم الاسلامي	١٠٦
الفصل الخامس — الغزو الفكري في العالم الاسلامي	
دعاة الغزو الفكري	١٢٢
أولا : المستشرقون	١٢٢
بعث العصبية الشعبية بين المسلمين	١٢٩
مراكز محاربة الوحدة الاسلامية وبت الروح القومية	١٣١
مركز بيروت	١٣١
انشاء الجامعات المسيحية في لبنان	١٣٥
انتقال جناح لبناني الى مصر	١٣٧
مركز اسلامبول	١٤٢
الفصل السادس — اليقظة الاسلامية	
حركة الجامعة الاسلامية	١٥٢
التضامن الاسلامي	١٥٦
جهود جمال الدين الأفغاني	١٥٩
المؤامرة الاستعمارية لاجهاض العالم الاسلامي	١٦٥
الاستعمار يعمق الفارقة بين المسلمين	١٦٩

صفحة

الفصل السابع — دور الملك فيصل بن عبد العزيز في	
دعم التضامن الاسلامى . . . . .	١٧٣
مؤتمر القمة الثانى : فى لاهور بباكستان من ٢٢ فبراير	
سنة ١٩٧٤ . . . . .	١٧٨
قمة اسلام آباد الطارئة . . . . .	١٧٩
قمة مكة ١٤٠١ هـ . . . . .	١٨١
التضامن الاسلامى فى الميزان . . . . .	١٨٥
الجامعة الاسلامية الاقتصادية . . . . .	١٨٨
الجامعة الاقتصادية بعد مؤتمر مكة . . . . .	١٩٢
مساعداة عاجلة للدول الفقيرة . . . . .	١٩٤
المؤسسات الاقتصادية التى تكونت حتى انعقاد مؤتمر	
مكة . . . . .	١٩٦

# مطبعة الجبل اوى

٢٠٢ شارع الترة البواقفة - شبرا

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧١٦٥